المركز القومى للترجمة

باتريك دوفيل

الطاعون والكوليرا

ترجمة ودراسة: منى طلبة



2999

سلسلة الإبداع القصصي

الطاعون والكوليرا

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2999
- الطاعون والكوليرا
- باتريك دوفيل
- منى طلبة
- الطبعة الأولى 2018

هذه ترجمة:
Peste & Cholera
Par: Patrick Deville

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الطاعون والكوليرا

(رواية)

تحرير : باتريك دوفيل
ترجمة ودراسة : منى طلبة

2018

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

دوفيل ، باتريك
الطاعون والكوليرا : رواية / تحرير باتريك دوفيل ؛ ترجمة ودراسة منى طلبة - القاهرة : ، المركز القومى للترجمة، ٢٠١٨
٢٨٠ ص ؛ ٢٤ سم
١ - القصص الفرنسية
٢ - الطاعون
٣ - الأوبئة
(أ) دوفيل ، باتريك (محرر)
(ب) طلبة ، منى (مترجم ودارس) .
(ج) العنوان ٨٤٣

رقم الإيداع ٢٦٠٨٥ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى: 978-977-92-1247-0
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

ارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذ
ارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هـ
ى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

إهـــــداء

إلى قرة عينى محمد حسونة،

كم أنت رائع!

حمدًا لله على وجودك الجميل

وشكرًا على معاونتك لى على التدقيق العلمى لهذه الترجمة

أولاً : الدراسة

من برج بابل إلى بيت الحكمة

بقلم د. منى طلبة

الترجمة والنص

نحاول فى هذه الدراسة تتمة مهمة الترجمة من ١- عرض الكلمة على الكلمة والجملة على الجملة إلى: ٢- عرض النص المترجم فى مجمله على غيره من النصوص الموائمة، بما يتمم أو ينفتح بعملية الترجمة على معرفة مزدوجة فى آن: معرفة الذات ومعرفة الآخر، حتى ٣- تلقى هذين المنتجين بالدرس والإحصاء والتوثيق...الخ، بما يولد عنهما المعارف المرجوة فى الثقافتين الثقافة المُرسلة والثقافة المُستقبِلة، ومن ثم الخروج من متاهة برج بابل إلى بيت للحكمة لم يغلق له بابٌ قط.

أولاً: الترجمة:

يؤسس نص برج بابل فى التوراة للاختلاف الحتمى للغات التى يتحدث بها البشر بوصفه الأساس المعوق للتواصل بينهم. هذا النص هو المرجعية التى يتم استحضارها بطريقة واعية أو لاواعية عند كل تنظير أو ممارسة أو تلقٍّ للترجمة: "وكانت الأرض كلها لسانًا واحدًا ولغة واحدة... وحدث فى

ارتحالهم شرقًا أنهم وجدوا بقعة فى أرض شنعار وسكنوا هناك... وقالوا نبن لأنفسنا مدينة وبرجًا رأسه بالسماء. ونضع لأنفسنا اسمًا لئلا نتبدد وجه كل الأرض. فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونـ وقال الرب: هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعـ والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم ـ لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض. فـ عن بنيان المدينة. لذلك دعى اسمها بابل لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأر ومن هناك بددهم الرب على وجه الأرض" (تك ١١: ٤-٩).

ليست بلبلة الألسنة -إذن- شأنًا لغويًا فحسب، وإنما هى أيضًا تو لكارثة وجودية شاملة تتمثل في: العقاب الإلهى للغطرسة الإنسانية وهو تمثل فى فقدان البشر للأصل اللغوى الواحد وبلبلة ألسنتهم، ومن ثم عجز عن التفاهم بل عن استماع الواحد منهم للآخر، وقصورهم عن إتمام أى ينوونه، وتبدد قواهم وشتاتهم الحائل دون توافقهم: كارثة لا تستطيع التر بوصفها كدحًا لتجاوز اختلاف اللغات أن تتخطاها، إلا بشيء من الريبة كمال مهمتها، ومن اعتمادها خيانة الأصل تعريفا لها، ورضاها بتراجع الد المعرفى للمترجم إلى ما هو ثانوى فى مقابل الأصل.

لقد برع الكثيرون من منظرى الترجمة فى تقديم تأويلاتهم الخلاقة لـ "برج بابل" بما يبدد فحواه الكارثى هذا. فجورج شتاينر **orges Steiner** فى كتابه "ما بعد بابل **Après Babel**" ١٩٧٥ [١] ينتقل بمفهوم البلبلة من مـ اختلاف اللغات إلى مجال البلبلة داخل اللغة الواحدة. فكل لغة تعانى من با أصلية تحول دون التواصل الشفاف بين متحدثيها، والترجمة -عنده- تتجـ إطار نقل المعنى من لغة لأخرى، لتشمل على نحو أعم "التفسير". فعند قول إنسانى تجرى عملية سيميوطيقية أو سيمانطيقية خاضعة للنموذج ذ

المُستخدم فى الترجمة: تفسير اللغة الأصلية من خلال اللغة الهدف. ويرجع إخفاق التفسير والتواصل بين المتحدثين فى إطار اللغة الواحدة أو اللغات المتباينة – كما يرى شتاينر– إلى سوء التفاهم الذى لا يعتمد على تفاوت الكفاءة اللغوية للمتحدثين فحسب، وإنما يعتمد أيضًا على مجمل هذا الجهاز الافتراضى من الحيل اللغوية والوقائع التى تُفهم بالعكس أو على نحو مغاير، وهو ما تقتضيه اللغة الإنسانية فى حد ذاتها. فكل تواصل بين البشر يتضمن بالضرورة عملية ترجمة، وكل بث أو استقبال لأى شكل من أشكال المعنى يتطلب تفسيرا وإدراكا للدلالة. ومن هنا ينتقد شتاينر ما استقر من شعور بالطابع الكارثى لأسطورة برج بابل، ويرى أن الإنسان قد استطاع بعد بلبلة الألسنة أن يكون فردًا وأن يكون حرًا فى رؤيته للعالم، ولولا تنوع الرؤى المستقلة والحساسيات المتفاوتة ما أمكن التواصل بين البشر وإثراء الفهم.

ينحو بول ريكور Paul Ricœur فى كتابه "عن الترجمة" Sur la Traduction [٢] بكارثة بلبلة الألسن فى بابل منحىً آخر غير المنحى اللغوى الذى تبناه شتاينر، ليؤسس من خلالها للخُلُق الإنساني. فقصة برج بابل عنده– لا تكرس ظاهرة "بلبلة الألسن" بوصفها عقابًا إلهيًا للخطيئة الإنسانية، وإنما بوصفها مقامًا إنسانيًا لا رجعة فيه. إنها بالأحرى إثبات لحالة "الانفصال الأصلية". ومن هنا يعيد ريكور قراءة قصة برج بابل فى ضوء قصة خلق آدم وخروجه من الجنة وقصة قتل قابيل لهابيل، ليرى فيها جميعًا قصصا تجعل من الرشد والمسئولية والأخوة مهمة أخلاقية على الإنسان أن يتحمل تبعاتها أبدًا. فمثل هذه القيم ليست معطيات أو مسلمات بسيطة موهوبة للإنسان أو مفقودة منه، وإنما هى قيم على الإنسان أن يسعى فى سبيلها. ونحن فى البلبلة والشتات مدعوون فيما بعد بابل الى الترجمة بوصفها رسالة وضيافة لغوية تحفظ المسافة على القرب وتتجاوز الخوف من الأجنبى وكراهيته؛ يحدونا دائما

– مع كل مشقة الترجمة– ذلك الشوق وتلك الرغبة الدفينة والعميقة والملحة للتواصل مع الآخر دون جبر أو منفعة، وبهذا تؤسس قصة برج بابل عند ريكور لقيمة وضرورة التواصل بوصفه مشروعًا أخلاقيًا وليس مجرد معطى طبيعى بسيط أو مجرد كارثة لغوية حطت على البشر.

فى المقابل يتخذ دريدا **Jacques Derrida** فى مقاله "أبراج بابل" **Les Tours de Babel** ١٩٨٣[٣] من أسطورة بابل متكئا لنقد كل مركزية لغوية مسيطرة، وللتأكيد على استحالة تطابق اللغات المختلفة من خلال الترجمة، بل وللتشديد على تكاثرها غير القابل للاختزال. ويتساءل دريدا: بأى لغة بُنى برج بابل وبُدد؟ بلغة استطاع من داخلها اسم العلم "بابل" أن يعنى البلبلة. فالمقطع "با" يعنى الأب، و"بل" يعنى الإله، و"بابل" هى مدينة الإله، وهو نبع اللغة البابلية التى أراد متحدثوها أن يقروها ويهيمنوا بها على الكون، من خلال بناء البرج وتشييد المدينة والتسمى بلغة كونية واحدة وحشد أنساب وأجيال حولها. ومثل هذه الرغبة فى الهيمنة وإرساء مركزية ما محكوم عليها منذ البدء بالتفتت والتفكك كما هو مبين فى اسم العلم "بابل" الذى يحمل من داخله دعوى الرسوخ: "بابل" أى مدينة الإله، ودواعى التفكك فى آنٍ: "بلبلة" أى الاضطراب والخلط".

وفى كتابه ما هى الترجمة الناجعة؟ **"Qu'est-ce qu'une traduction relevante ?"** [٤] بدا وكأن دريدا قد أراد أن يقدم تعريفا للترجمة من خلال حكاية أخرى غير حكاية "برج بابل" المهيمنة على نظرية الترجمة، فانطلق من نص" تاجر البندقية" لشكسبير– وبصفة خاصة مشهد المرافعة الأخير– لنقد المركزية الأوروبية، ولتفسير الترجمة بوصفها إقامة العدالة، فليس من شأن الترجمة أن تعتمد النقل الحرفى لكلمة مقابل أخرى، وإنما عليها أن تعتمد مسئولية التسامح الأمين فى المبادلة بين لغتين أخذًا وعطاءً، مبادلة يقوم فيها المترجم بالتضحية بجسد **الكلمة الأصلية فى مقابل** منح معناها حياة جديدة

وممتدة، فكل كلمة تحمل فى ذاتها طاقة ترجمتها، وبمثل هذا التسامح لا تصبح الترجمة مجرد معادلة بين لغتين وإنما سموا بالعدالة: "فالعفو يسمو بالعدالة" وفق عبارة بورتيا **Portia** المحامى والتى يقولها لشيلوك **Shylock** تاجر البندقية الذى أراد أن يقتص من أنطونيو لعدم وفائه بدينه له بقطع جزء من جسده. ففى مقابل اعتراف أنطونيو **Antonio** بدينه له، ، ينبغى على شيلوك أن يكون رحيمًا، فهذا هو عين العدالة أو بالأحرى تسام بمفهوم العدالة. قوة التسامح هنا تصبح أكثر صحةً وعدالة من القانون، ومن هنا ينتقد دريدا الفهم الحرفى للعدالة لدى شيلوك بنفس القدر الذى ينتقد به المركزية الأوروبية والترجمة الحرفية صنيعة الحداثة الأوروبية.

تنطلق كل هذه التأويلات الخلاقة من أسطورة برج بابل واختلاف اللغات لتصل إلى ما بعدها، أى إلى جدوى الترجمة ومحاذيرها بوصفها نشاطًا لغويًا أخلاقيًا فلسفيًا إنسانيًا مُتسامحًا، متخطية بذلك مأزق الكارثة والعقاب والخطيئة والشتات والصراع الملازم للاختلاف اللغوى كما قد يوحى التفسير الحرفى للنص التوراتي. إن إرادة التحول بهذه البلبلة إلى نوع من الحكمة هى التى جعلت إيتيامبل **Etiemble** يقول: "وهكذا نرى كما أعتقد أننا لا نبالغ إذا قلنا إن قدرنا هو بناء بيت للحكمة على غرار بيت الحكمة الذى أرساه المأمون فى بغداد، فإذا ما عجزنا عن بناء بيتنا هذا، أو إذا جعلنا منه برج بابل، فعلينا أن نعرف ما ينتظرنا، سيضمنا معًا - بكل تأكيد- بيت للمجانين"(٥).

إن "بيت الحكمة" (٦) الذى بناه الخليفة المأمون فى بغداد فى عام ٢١٧هـ / ٨٣٢ م وولى رئاسته للطبيب النسطورى يوحنا بن ماسويه، وقام الخليفة المتوكل- من بعد- بتجديده فى عام ٢٤٢هـ / ٨٥٧م ليتولى حنين بن إسحق ومدرسته الشهيرة فى الترجمة أمر هذا البيت، والذى أنشئ على غراره "دار الحكمة" فى القاهرة، و"مكتبة الأسرة الأموية "فى قرطبة، و"مكتبة

طليطلة" فى الأندلس. واشترك فى الترجمة فيه جمهور كبير من المترجمين المختلفين فى الجنس والعقيدة من المسلمين والمسيحيين واليهود والفرس والهنود والصابئة ينقلون عن اللغات اليونانية واللاتينية والسريانية والفارسية والسنسكريتية والقبطية والعبرية والنبطية وهى لغات تداول العلم والمعرفة فى ذلك العصر كلُ هذا كان إيذانًا باعتماد الترجمة كمحدد من محددات الثقافة العربية الزاهية فى العصر الوسيط، مما جعل "بيت الحكمة" فى حد ذاته نوعًا من التأويل لفحوى بلبلة الألسن. فالحكمة التى سرت فى هذا البيت وصارت اسمًا له استوحت – ضمنًا ولا شك – مفهومًا ما لاختلاف الألسن من الآيات التالية المؤولة بدورها للنص التوراتي:

" وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾." (٢٢ الروم ٣٠).

-يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾(١٣ الحجرات ٤٩)

هنا يبدو اختلاف الألسن "آية" (علامة وشاهد) على قدرة الله وليس عقابًا، وسبيلاً للتعارف والترقى. ومثل هذا المفهوم يقتضى نظرة مجملة للكون فى عمومه واختلافه الأصلى الذى يميزه ويشمله فى آن. فلا يثير تنوع اللغات واختلاف الشعوب الفوضى والبلبلة وإنما يرسخ لمبدأ الخلق وهو الاختلاف وغائيته: التعارف والتمايز بالتى هى أحسن. بهذا المعنى قد يبدو العجز عن التواصل بين البشر، واكتفاء كل منهم بلغته فيحدث نفسه طوال الوقت، أشبه بمن يعانى حالة من الجنون. فإذا اعتبرنا الترجمة محادثة للآخر وعلاقة بين اللغات بقدر ما هى علاقة بين الثقافات، فلها أن تكون فى هذا الإطار مبدأً للرُشد أصلاً.

لنقف قليلاً عند الفعل" لتعارفوا" ، بوصفه غاية اختلاف اللغات، المشتق من الفعل "عرف" فى الآية السالفة الذكر، لأن "لام التعليل" هنا، تقف بنا عند علة الاختلاف وشمولها للخلق الإلهى جميعًا لا للألسنة فحسب: الذكر والأنثى، الشعوب والقبائل، الألوان والألسن. وكأنه قد قدر لهذا الاختلاف فى عمومه أن يصير إلى غاية واحدة وهى التعارف بين شتى العناصر جميعًا بدءًا من الوحدة الأصغر وهى الذكر والأنثى، وحتى الوحدات الكبرى الشعوب والقبائل ...إلخ. والتقوى وحدها هى التى ترفع أحد المتعارفين المختلفين إلى مقام الأفضل الأكرم ولاحظ ما تستدعيه صورة الأكرم من معنى الكريم الواهب لغيره والمقبل عليه فى مقابل البخيل المستأثر بنفسه. و"التقِّى هو الذى يتخذ الوقاية والحذر فلا يرى نفسه خيرًا من أحد"(٧). ما من معرفة وتعارف بدون اختلاف، وما من فضل بين المتعارفين إلا لأكرمهم وأتقاهم .

لكن ما من تعارف -أيضًا- له حظ كمال التواصل بين البشر، لأن هذه المعرفة قيد الفعل أى السعي، فى صيغة "لتعارفوا" ، لأن كل معرفة مسبوقة بجهل بخلاف العلم، ولذلك يسمى الحق تعالى نفسه "بالعليم" لا العارف. ومن هنا تختلف الآيات القرآنية عن التوراتية فى اقتران اختلاف الألسن فيها بالتعارف، ولكنها تماثلها فى حفظ المسافة بين الله والبشر من خلال التمييز بين تعارف البشر وعلم الله، و التى أومأت إليها القصة التوراتية على نحو يبرز الغطرسة البشرية وسوء العاقبة. والآيات القرآنية مثلها مثل التوراة لا تعد بتجاوز شتات البشر واختلاف ألسنتهم، وإنما تثبته، بوصفه حالة قيد السعى الدائم للتعارف دون تمامه، وهى بذلك توجهه وجهة حيوية وخطيرة أيضًا كما سيتضح لنا من خلال تقصينا لمعانى الفعل"تعارف".

"تعارف" : فعل ثلاثى مزيد بحرفين على وزن" تفاعل" (٨)، وهذا المبنى الصرفى متعدد المعانى: ١- أحد هذه المعانى هو التشريك بين اثنين فأكثر،

فيكون كل منهما فاعلا فى اللفظ، مفعولا فى المعنى، وهذا يعني:١- أن فعل التعارف شركة بين فاعلين اثنين فأكثر؛ ٢- أن هذا التعارف - المبنى على هذه الفاعلية المشتركة- له مفعولان: معرفة الآخر ومعرفة الذات فى آن واحد، لأن الفاعل العارف يكون مفعولاً به بالنسبة للطرف الآخر وبالنسبة لذاته أيضًا؛٣- أن الترجمة لا يمكن أن تؤتى أكلها المعرفية إذا اقتصرت على نصوص ثقافة دون أخرى، فالتعارف شركة بين الشعوب والقبائل على اختلافها واتساعها اتساع الخلق، كما أن عملية التعارف عملية متبادلة، وهذا يعنى أن احتكار لغة ما لنشاط الترجمة قد يخل بالنشاط المعرفى الذى يقتضى المشاركة المتعادلة.

ذلك أن عملية الترجمة / التعارف المفترضة بين طرفين على الأقل تقوم على ثلاثة مستويات وفق الصيغة الصرفية للفعل: معرفة الطرف الأول للطرف الثانى ومعرفة الطرف الثانى للطرف الأول، أى أن يفعل أحدهما بصاحبه فعلا فيقابله الآخر بمثله، ثم معرفة كل طرف من الطرفين لذاته ولغته من خلال تعرفه على الآخر ولغته. ومثل هذه العملية المعرفية - التى تجسدها فى تقديرنا الترجمة- هى عملية متشابكة ومتعددة الفاعلية و المفعولية بما يفضى بالفاعلين والمفعول بهم - وعلى عكس ما نتصور- إلى نوع من التواؤم المعرفى الافتراضى الذى يجعل فعل الترجمة ممكنًا فى إطار يعلو على اختلاف اللغات ولا يمحوه، توحد لا ينشد لغة أصلية كان يتكلم بها البشر جميعًا وإنما ظهورًا لهذه اللغة المستورة الكامنة التى لم يستنفدها منطوقٌ بعد، والتى تحاول الترجمة على اختلاف الألسن تبيانها كحد أدنى أو أقصى للتفاهم / التعارف بين الناس، ومن ثم فمهمتها ليست تأكيدًا للغة أحادية وإنما توحيد لعناصر مختلفة، فالترجمة، فى الحقيقة، تحدث تغييرًا فى اللغتين من جراء التفاعل بينهما، وبمثل هذا التفاعل وحده تحيا اللغات: "فتطور اللغة دائمًا ما يأتى عن طريق المفردات تعريبًا أو توليدًا أو ارتجالاً أو ترجمة أو استنباطًا لمعانٍ، ولا يأتى عن طريق إضافة حروف أو ظروف أو ضمائر أو صيغ صرفية جديدة إلى اللغة"(٩).

ومقارنة بسيطة بين المعجم العربى الجاهلى والمعجم العربى العباسى بعد توسع نشاط الترجمة فى "بيت الحكمة" تؤكد هذه الحياة اللغوية النامية للعربية. ويشهد اقتران نشاط التدوين الهائل للغة والثقافة العربية منذ القرن الثانى الهجرى بنشاط الترجمة فى هذه الحقبة، على هذا التلازم المعرفى للذات والآخر الذى يحفزه ويدعمه فعل الترجمة. و من ثم فالترجمة ليست نقلاً وإنما كشف معرفى لإمكانات اللغة المنقول منها وإليها على السواء، ومحاولة لتفعيل التعارف العادل بينهما. وعلى خلاف "الضيافة اللغوية" التى يصف بها ريكور الترجمة فيما بعد بابل والتى ربما لا تلتفت إلا لكرم المضيف واستفادة الضيف فحسب، فإن التعارف يكرس الاستفادة المزدوجة للطرفين لا عن نبل بل لضرورة وجود.

إلا أن التواصل المعرفى المنشود من الترجمة لا يمكن تحقيقه مرة واحدة و للأبد. وهو ما يومئ إليه المعنى الثانى لصيغة "تفاعل / تعارف": حصول الشيء بالتدريج شيئًا فشيئًا (مثل تزايد المطر). وهو ما يوضح لنا ظاهرة تعدد الترجمات للنص الواحد، بل مراجعة المترجم للترجمة ذاتها التى أنجزها من قبل، كما هو حال حنين بن إسحق الذى قام فى سن متأخرة بإعادة ترجمته للنصوص التى سبق أن ترجمها، متوسلاً إتقانًا وسلامة لم يتوفرا له من قبل فى عهد الشباب. ولا يعنى التدرج المعرفى بلوغه يومًا حد الكمال، وإنما يعنى استمراره أبدًا، فالإدغام فى فعل "لتعارفوا" أى لتتعارفوا – وهو فعل مضارع يفيد الحالية والاستقبال- يُقارب أيضًا صيغة الفعل الماضى "تعارفوا". وكأن فعل التعارف يتراوح بين ما مضى وما هو آت، بين المهمة المنجزة والمهمة المقبلة، بين الكتب التى ترجمت والتى لم تترجم بعد، بين اللغات التى تشاركت فى الترجمة / التعارف، واللغات التى لم تشارك فى هذه المهمة الإنسانية المعرفية بعد، إما لتكاسل وإما بزعم أنها الأقوى معرفيًا ولا حاجة بها لمعرفة الآخر.

اختلاف الألسنة والشعوب والقبائل آية الخلق والقدرة الإلهية، والتعارف والبقاء غايته، وكمال هذا التعارف مستحيل، نتوخاه عبر حصوله تدريجيًا واستمرار النهوض به - كما سبق الذكر- و-أيضًا- عبر القيام به "مُطَاوَعَةً"، وهو المعنى الثالث الذى تحتمله صيغة تعارف / تفاعل، والمطاوعة هنا هى قبول أثر الفعل، فكأنه طاوعه ولم يمتنع عليه، وقبول الأثر هذا معناه استحالة تمام الترجمة / التعارف من خلال نسخ الأصل: ادعاء حضوره التام، أو تشويهه: إنكار وجوده وتغييبه تمامًا، أى من خلال محاكاته حرفيًا والخضوع الساذج والسطحى له، أو المقاومة المتعنتة له ومصادرته. والمطاوعة أيضًا هى ما تزاوله طوعا أى اختيارًا وهى ضد الإكراه والكراهية. وهو ما ينتقل بنا - بشكل أو بآخر- إلى النوايا والمقاصد الخفية لعملية الترجمة / التعارف.

لكن علينا أن نستدرك حدود هذه المطاوعة، فالمترجم وإن صدق نية الفضول والإقبال للتعرف سيظل أسير ما استتر وأشكل عليه علمه. ولكن شتان ما بين نية التعارف التى يحدها ما أشكل علينا علمه وبين تعمد تجاهل المنقول منه أو المنقول إليه، فالموقف الأخير سينحرف حتمًا بالترجمة - على عكس ما تقتضيه ماهيتها المعرفية - إلى نوع من الفرقة والشتات والصراع بين الشعوب. فتتحول الترجمة / التعارف إلى تَرَاجُم أى سب وطرد إما للثقافة المنقول عنها أو للثقافة المنقول إليها، سواء بالاستهانة باللغة الأصلية وتشويهها أو باللغة الهدف وتحميلها فيض البضاعة الأجنبية، وهذان الموقفان المتضادان للترجمة قد نجد أصداءً لهما فى معانى مادة "ترجم" فى المعجم العربى من خلال مادتين تتلبسان بها، المادة الأولى: "تَرَجَ" بمعنى استتر، وبمعنى أشكل عليه الشيء من علم أو غيره. والمادة الثانية: "رجم" وهو القتل واللعن والطرد والسب، ورجم أى تكلم بالظن، ورجم بالغيب تكلم بما لا يعلم، وتراجم القوم بالحجارة تراموا بها، وتراجموا بالكلام تسابوا، وترجم كلامه: إذا فسره بلسان آخر[١٠].

من هنا يمكن للترجمة / التعارف أن تكون نوعًا من المُطاوعة: أى أن تقبل أثر التعارف والتفاعل بين اللغتين، أو أن تكون خادعة فتمتنع عليه، أى إنها - وهذا هو المعنى الرابع والأخير لصيغة "تفاعل" - قد تتظاهر بالفعل دون حقيقته، فتأتى بأصل فعل الترجمة وهو التعارف مع أنه منتفٍ عنها فى الواقع. وإن فعلت فهى لا تسعى للتعارف بل تكرس للشتات. وهذا حال الكثير من الترجمات التى لا تخلف أثرًا معرفيًا لا فى الثقافة المنقول إليها ولا المنقول لها، أو تعكسه لعداوة، ولنا مثل على ذلك فى المترجمين اللاتينيين فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فى مدرسة طليطلة ومدرسة الألفونسيين و"الذين كان يتوزعهم موقفان : الرغبة فى الاستفادة من هذه المعارف العلمية والفلسفية (العربية الإسلامية) الجديدة واتخاذها سبيلاً لتطوير فكرهم الخاص، وشعور التهديد الذى يمكن أن تمثله تلك المعرفة على الثقافة "الرسمية" القائمة، أى الثقافة اللاتينية بمبادئها وقيمها الثابتة ... وقد ترتب على هذا الموقف المزدوج (الرغبة والخوف) اتجاه نحو الترجمة باعتبارها تملكًا واستحواذًا، بما يعنى ذلك من إطلاق لليد الثانية تعيث فى المؤلفات العربية زيادة ونقصانًا وتحريفًا وإضفاء المشروعية السياسية والدينية على ذلك الصنيع الآثم"(١١). فى المقابل نجد الآن، ترجمات عربية حديثة لنصوص أجنبية تتعمد إضفاء طابع وبنية أجنبية على النص العربي، بما يعسر تلقيه، ويطيح ببيانه !.

أوجز الآن ما تقدم: الترجمة نشاط معرفى فى الأساس، وبهذا المعنى تسعى الترجمة إلى تحقيق المعرفة بشروطها الثلاثة: اكتشاف الآخر واكتشاف الذات وإنجاز التواصل بينهما على نحو متعالٍ موضوعي، بضربة واحدة. وعلى العكس، إن لم تستوف الترجمة شروطها من الفاعلية والمشاركة والمطاوعة تكرس للتجاهل والفرقة بين الشعوب واضمحلال اللغة سواء المنقول منها أو المنقول إليها، والتى لن يتسنى لها الوعى بذاتها وممكناتها إلا بعرضها على

لغة أخرى. ولكن نجاح هذه العملية المعرفية مرهون بنوع من الاتزان بما لا يجور على أيٍ منهما قدر المُستطاع، أى بالخضوع للمحاذير ذاتها التى يأخذها المترجم ذاته على عاتقه لإنجاز مهمته على خير وجه ممكن، لأنه ما من معيار يُقاس عليه نجاح هذه المهمة بوصفها مُطابقة، ولكن بوصفها الأفضل.

٣- معضلة المعنى:

نحن نترجم، إذن، لنتجاوز برج بابل إلى بيت الحكمة، ومن هنا تحديدًا تكمن براعة المُترجم وقيمة الترجمة. لكن هذه المهمة مهما كَدَّت لن تبلغ أبدًا إتقانًا غير قابل للمراجعة، وهو ما يشكك أصلاً فى "عالمية" المعنى الذى تمنحه كل جماعة لغوية لتجربتها فى العالم. ثمة ثلاثة عوامل تتحكم فى المعنى الذى يتقصاه المترجم ألا وهي: الاختلاف، التحول، الوحدة المُلائمة للموضوع. ونعنى بالاختلاف: أن لغة كل جماعة لا تعكس سوى مقطع من الواقع، ولا تعبر إلا عن منظور ما له، ومن ثم فهذه اللغة – فى ذاتها وبأى حال من الأحوال– ليست إعادة إنتاج مباشرة ومتكاملة للواقع الموضوعى للعالم. من هنا، اتسم المعنى بقابليته للحراك والتحول للاتساع والانحسار. ومع ذلك، فإنه "عالم واحد هذا الذى نكتشفه على نحو بين– لغوى و ميتا– لغوى من خلال الملامح المتناسبة على اختلاف اللغات". (١٢)

ومع ذلك وفى تقديرى تظل معضلة المعنى حاكمة حتى فى إطار اللغة الواحدة، أيضًا، فإذا أردنا أن نفهم معنى كلمة ما فى لغتنا نفسها نأتى بمرادف لغوى لها موضح لها... ونفهم المرادف بضده ، أو ما يشابهه ، أو ما يفسره فى عبارة... وهكذا حتى نأتى على كلمات معجم اللغة، ذاتها، بأسره. وربما فطن المعجميون العرب الأوائل لهذه المعضلة، فأتت معاجمهم العربية وكأنها رصد للحقول الدلالية

للكلمات بأكثر مما هى إحصاء للمعاني، فالمعنى يستوضحه دائمًا استخدام للكلمة فى بيت شعري، فى منظور أحد الفقهاء أو اللغويين، فى مثل شعبي.، شاهد قرآنى أو حديث ما ... الخ، لا يعطيك المعجمى العربى القديم المعنى على نحو إحصائى وإنما على نحو استعراضى لاستخدامه فى أمثلة وشواهد تتراوح فيما بينها لطائف المعنى، وكأن المعجمى العربى فطن إلى أن المعنى "استخدام" للكلمة وليس قائمة إحصاء صارم لمكنوناتها، ومن ثم بدا ليَّ المعجم العربى القديم وكأنه عمل لم يكتمل بعد ولن يكتمل أبدًا، عمل يستنهض ما تلا عصر تدوينه للمساهمة باستخداماته للكلمة لتنضم إلى شواهده المستحدثة على استنفار مكنونات معنى الكلمة وضمها إلى مادتها. وهذا بالضبط ما تتوخاه الترجمة وتؤكد عليه : الوعى بمعضلة الإحاطة بالمعنى، الاختلاف الأصلي، يضبطه إلى حد ما استخدامه فى شواهد سابقة منفتحة بالضرورة على استخدام آخر فى إطار شفاف يحرض على توخى المعنى الموضوعى والعالمى فى آن.

فما من كلمة كما يرى دريدا يمكن أن تكون "ذات الآخر" **le même de l'autre**، وإنما هى توجه دائم صوب "الآخر المطلق" **le tout autre** السابق عليها والتالى لها والمُرجأ أبدًا(١٣). "وما من ترجمة تستبعد النص المترجم أو تصبح بديلاً عنه. والترجمة حسب هذا التصور، هى التى تنفخ الحياة فى النصوص وتنقلها من ثقافة إلى أخرى، والنص لا يحيا إلا لأنه قابل للترجمة وغير قابل فى الوقت ذاته. فإذا كان فى الإمكان ترجمة نص ما ترجمة نهائية فإنه يموت، يموت كنص وكتابة"(١٤).

ولكن فى تقديرى إذا ما كانت الترجمة هى عملية معرفية أصلاً، كما بَيَّننا، قائمة على الاختلاف المُفضى إلى حياة طرفى المعادلة على المستوى اللغوي، فإن ثمة حياة أخرى تنتظر النص المترجم من خلال عرضه على ما يناظره من نصوص الثقافة المستقبلة له، ولا سيما إذا كان النص أدبيًا، وهذا ما سنقوم به للتو، حتى نبلغ بالترجمة جدواها على المستوى النصِّى أيضًا .

ثانيًا: النص:

القراءة المستثمرة للنص على مستوى الثقافة المستقبلة له، من خلال تدبره ومقارنته بنظائره ومضاعفة الحواشى على متنه، هى نوع من الترجمة المُفَسِّرة له على مستوى الثقافات. وبهذه الطريقة يؤتى النص المترجم ثماره ناضجةً - وهو الأمر الذى انتهجته كل الحضارات لتشحذ هممها وتبتكر فرائدها- فلا تقف عند حد الاجترار. ومن يسر الطالع أن النص الأدبى الماثل بين أيدينا "الطاعون والكوليرا" يتيح لنا مثل هذه القراءة: إنها سيرة العَالِم السويسري، الفرنسى الجنسية، يرسين ألكسندر (ت١٩٤٣) مُكتشف جرثومة الطاعون فى عام ١٨٩٤، والتى رواها لنا الكاتب باتريك دو فيل على نحو أدبى بديع بوصفها مغامرة علمية إنسانية تموج بالرحلات والاكتشافات والحروب والصراعات الدينية والاستعمارية فى نهاية القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، معتمدًا فى روايته تلك على الوثائق المحفوظة فى أرشيف معاهد باستور **Instituts de Pasteur** ، وعلى مُراسلات يرسين إلى ذويه: والدته وأخته، والمحفوظة فى منزل العائلة فى سويسرا مسقط رأسه. ومع أن سيرة يرسين على هذا النحو تعتمد على شخصية تاريخية واقعية، إلا أن صياغتها الأدبية تدنيها من روائع أدبية، تشاركها مغامرة الرحلة المعرفية، وتنفتح بها على "ما لا يقبل الحساب" السر الأدبي[١٥].

وهكذا تتراوح هذه الرواية "الطاعون والكوليرا" باتريك دو فيل (١٨٦٣-١٩٤٣)، ما بين أدب السيرة أو"السيرة الذاتية الاستعارية"[١٦] - أو أدب الرحلات والرواية التاريخية فى آن، مثل "روبنسون كروزو" دانييل دوفو(١٦٦٠- ١٧٣١) فى القرن السابع عشر، و رواية "حى بن يقظان" لابن طفيل (١١٠٦-١١٨٥) فى القرن الثانى عشر، والتى لم تعدم أصولاً لها فى

قصة سندباد بحرى وسندباد برى فى ألف ليلة وليلة [١٧] ، التى شاعت شفاهةً ثم كتابة فى الثقافة العربية منذ القرن العاشر الميلادي،

فى هذه الدراسة، نؤثر ضم هذه النصوص فى إطار "أدب الرحلة" ، والرحلة كلمة تنطبق على حياة المرء من الميلاد إلى الممات، كما تنطبق على الأسفار، أو حتى على "رحلة حول حجرتي" حيث يقوم البطل برحلة فى حجرته فيجتاز العادة العمياء إلى الاكتشاف المدهش لحجرته الأثاث والأوراق المكتب... الخ[١٨] أو رحلة الإنسانية قاطبة فى رواية نجيب محفوظ "رحلة ابن فطومة" الذى يجعل من سيرة ابن فطومة ورحلته سيرةً لتاريخ البشرية بأسرها من المجتمع البدائى حتى المجتمعات الشيوعية والرأسمالية الحديثة، بل إلى مجتمع مأمول مفتوح على التصوف والزهد، شاهدًا على كل الأديان والنظم السياسية والاقتصادية

يعتمد أدب الرحلة [١٩] على هذا النحو على عنصرين أساسيين (الازدواج والتحول) يهيمنان على مكوناته السردية: ١- الانتقال فى الأمكنة مع الاحتفاظ بمساحة ذكريات الموطن الأصلي، بالإضافة إلى ازدواج مسار الرحلة الخارجية على مستوى أفقى معرفى برحلة باطنية على مستوى رأسى معراج عقلى وروحى لبطل الرحلة ٢- أما حبكة الصراع فتقوم على اقتران لذة المغامرة بتفاقم المصاعب والعوائق، وصولاً إلى ذروة الوعى ومَقر غائى آمن. ٣- أما زمان الرحلة فيشمل سيرة البطل وتاريخ المجتمعات التى يرتادها البطل، وغالبًا ما تؤرخ روائع الرحلات الأدبية إلى مفاصل تاريخية للحضارات الإنسانية، ٤- مستخدمة أساليبها السردية البلاغية التى تتراوح ما بين الوثيقة والخيال ٥- أما الرحالة فهم صنفان: "إما تجار وإما رحالة" ينشدون الحكمة أو يبتغون الثروة[٢٠]، ومنهم من يجمع بين الغايتين.

ولدينا هنا رحلة لنصوص تتصل بعضها ببعض سواء بشكل مباشر تأثرًا، أو غير مباشر بانتمائها للنوع: نصوص تشترك شخصيات الرحالة الثلاثة فيها: يرسين ألكسندر وروبنسون كروزو وحى بن يقظان فى اجتياز رحلة فى البلدان ورحلة تراوح مكانها لتجوب دهاليز النفس، يحدوهم وهج المُغامرة للاكتشاف والمعرفة، وفى المقابل يؤثرون العزلة، طموحًا لحيازة ثروة ، تحصيل معرفة، إذكاء النفس.

"غياب الأب" عامل مشترك بين النصوص الثلاثة، روبنسون يتمرد على الأب ويهجر منزل العائلة توقًا إلى الرحلة، وحى بن يقظان يضع احتمالين لوجوده: ولادة من والدين ألقيا به فى النهر وتلقفته ظبية على جزيرة مهجورة وإما تخلُّق من طين الطبيعة. أما يرسين فيولد يتيم الأب، وعلى الرغم من حبه لمعلمه وأستاذه لويس باستور إلا أنه يتمرد على أبوَّة المؤسسة العلمية العريقة ومقتضياتها، هذا اليتم والتمرد على السلطة الأبوية يصبح سبيلاً أو مرتكزًا لبناء الشخصية الفردية للبطل ونضوجها، وغيابه يفسح المجال واسعًا لاستحضار الخبرة والمسئولية الشخصية، فى المقابل تظل شخصية الأم مناط الانتماء والتواصل الإنسانى الذى يعدل ميزان الفردية المطلقة لشخص البطل الذى عدم الأب خيارًا أو جبرًا فى الروايات الثلاث.

لكن الأم تلعب لدى بن يقظان الدور الأهم والأجلّ مقارنة بسواها فى النصين الآخرين، فالأم "الظبية" الطبيعة رمز الأمومة التى تطعمه، ثم تموت لتنضجه معرفيًا، وظلت حافزًا لرحلة حى لاكتشاف الطبيعة وما وراء الطبيعة، سر الموت والحياة، وهكذا تتحدد غاية الرحلة فلسفيًا بوصفها انشغالاً بالحياة والموت وخالقهما، وطالت جولات حى فى جزيرته المهجورة على اتساعها، ودامت فى رحابها تجاربه العلمية من ملاحظة وتشريح وتجريب ورصد للنبات والحيوان والسماء لتحصيل معارف علمية جمة على المستوى الأفقى، مما استلزم من بعد

معرفة تأملية على مستوى رأسى فى المغارة وكأنه الرحم الذى يستولد فيه ذاته عروجًا روحيًا حيث يتجلى الروح المطلق سر حياة الطبيعة والكائنات والأم الظبية . أما روبنسون الذى يولد فى رحاب عائلة ثرية فقد توسطت له الأم حتى يسمح له الأب بالرحيل، (روبنصون كروزي، ١٦٧) ولكنه وعلى نحو عكسى تمامًا لسلوكه المتمرد على والديه، راقه خضوع خادمه "وديعًا مطيعًا عاقلاً كمثل خادمى جمعة لا يعرف الغضب والمناكفة ولا الحقد بالكلية بل كان كامل الأوصاف مقبلاً على عمله طالما له فرصة، ومحبته تجاهى كانت أكثر من محبة الولد لوالديه (السابق، ص٢٤١).

أما يرسين فقد ظلت أمه ظلاً لسيرة حياته، يدون فى دفاتره كل ما يمر به من حوادث ويرسلها مكتوبة فى رسائله إلى أمه، وتشكل هذه الرسائل جزءا كبيرًا وثائقيًا لسيرة حياة يرسين ورحلاته وتفاصيلها أكثر مما تنبئ من أحوال الأم التى تظل طيلة النص على صورة واحدة متكررة أسيرة بهو المنزل المحاط بأشجار التين فى مورج تجتمع حولها الفتيات حيث تعلمهن أصول التربية المنزلية، فتيات يصفهن يرسين "بالنسانيس"، ويرى فى اهتمامهن بالأدب والفن ترفًا لا طائل من ورائه، وهنا أيضًا سنجد يرسين من بعد ينشئ حوله مجتمعًا من أبناء الصيادين يعلمهم الزراعة وتربية الدواجن وغيرها من الأعمال التى يباشرها فى ممتلكاته فى نها ترانج. وإذا كانت الأم لدى يرسين مستودع سيرته المُدونة فإن طيف المستقبل، وهى شخصية خيالية ابتدعها الراوي، يزدوج بشخصية الأم بوصفه قارئًا فضوليًا لمدونات يرسين ومتتبعًا له يقتفى آثاره وينبئ بما سيئول إليه، وكأن الأم والطيف وجهَا الماضى والمستقبل الحافظ لسيرة يرسين وإشعاعها الآتى عبر الكتابة. ويستعيض سندباد البحرى التاجر فى رحلاته البحرية العجائبية عن الوالدين بالصحبة من الزوجة والأصحاب

والخلان فى قصره فى بغداد، والذين سرعان ما يفارقهم للتجارة ليعود إليهم بعد كل سفرة من أسفاره السبع، وكأنهم رحم ضامٌّ ومحفز للرحلة فى آن، أو مقرّ ومنصة انطلاق معًا. ففى كل مرة يعود ليروى على مسامعهم مغامرته الظافرة يثير إعجابهم وسرورهم، يستجمع قواه بسحر الحكى الشهرزادى ليعاود الحكي / الرحلة.

الرحالة فى الروايات الثلاث الأولى يستبعدون الأب ليستلهموا الأم على نحو روحى أو عكسى أو مشابه، ومن بعدها يغيب أى حضور إيجابى للمرأة فى الروايات الثلاث، اللهم إلا شخصية فانى **Fanny** أخت يرسين التى تشاركه مشروعه فى تربية الدواجن، وكان من قبل قد تراجع عن مشروع خطبة هيأته له أمه، إذ رأى فى الزواج ما يعطل مسيرته العلمية والاستكشافية ويعوق طموحات مواهبه المتعددة، أما سندباد فيضطر فى بعض سفراته إلى الزواج بامرأة سرعان ما يتخلص منها عند نهاية السفرة وعودته ظافرًا غانمًا إلى بغداد.

فى المقابل لا نعدم رفيقًا للرحالة، إما طوعًا فى الجزيرة، مع حى بن يقظان، ففى نهاية المطاف يرافق آسال حى بن يقظان فى خلوته بعيدًا عن موطنه الأصلى حيث التدين ظاهري، ويتبادل الرفيقان المعارف آسال يعلِّم حى اللغة وحى بدوره يلقنه علمه اللدني؛ وإما كرهًا وطواعيةً فى الجزيرة المستعمرة مع روبنسون كروزو، فيلازمه الخادم جمعة بعدما طوقه بجميل إنقاذ حياته وبشره بالمسيحية ، ليظل جمعة مدينًا بالمعروف طوع أمر سيده؛ وإما طيفًا، فشخصية "طيف المستقبل" هى بمثابة قرين يرسين الشبحي، فالطيف يتتبع خطاه ويقرأ مدوناته خلسةً ويتنبأ بما سيئول إليه أمره. وفيما عداه انفردت رحلةُ يرسين بكونه وحيدًا ليس لديه علاقات اجتماعية وإن زخرت سيرته بالشخصيات وأسماء الأعلام التى شكلت معالم القرن وأغلبهم من معارف تتعدد وتتوارى، تومض وتنطفئ لتُستَحدث بمعارف أخرى مع كل رحلة، حتى قراره وحيدًا فى

بيته المربع على لسان الصيادين. ومع ذلك ثمة شخصان يتردد اسماهما فى سيرة يرسين إما فى إطار الوقائع أو الذكريات أو الحلم وهما: رو **Roux** زميل يرسين فى معهد باستور، وليفنجستون العالم القس المكتشف الذى يعتبره يرسين مثله الأعلى،

وإما نقيضًا ففى مقابل طيف يرسين نلقى سندباد البرى يشكل الواجهة المقابلة لسندباد البحري، بوصفه نقيضًا للبطل ومكملاً له معًا، سندباد البرى فقير ولكنه الضيف الأبرز والمُستمع الأهم لمغامرات سندباد البحري، ولعله الغاوى والنذير الذى يسمه سندباد بحرى ب: "أخي"، ففى كل سفرة يجنى سندباد البحرى مالاً وفيرًا سرعان ما يبدده على صحبته من الأهل والأصحاب و"أخيه" سندباد برى فى مجالسه العامرة الوثيرة ، فيعاود السفر لتجاوز رقة الحال، وهكذا تصبح كل سفرة عبارة عن تراوح بين الثراء الفاحش / الفقر المدقع، بين موقعى سندباد بحري / سندباد بري.

ونجح حى الفيلسوف فى اكتساب أخوَّة آسال (الذى اختار العزلة المتصوفة حتى قبل أن يلقى حي) فى معراجهما لحكمة الإشراق (صحبة / عزلة)، ونجح روبنسون التاجر فى استخدام جمعة وتبشيره (إنقاذ / استثمار)، ونجح باتريك العالم فى استنطاق طيفه فى المستقبل بما أنجزه من اكتشافات أفادت البشرية من بعد: اكتشافه لجرثومة الطاعون وصناعة المطاط واكتشافه لنبات الكوكاكولا...الخ (الغياب / الحضور). كما نجح سندباد البحرى فى استبطان أخوة سندباد البرى الذى يحثه على (المغامرة / القعود- الصمت / الكلام على النمط الشهرزادي).

لم تخلُ حياة كل من الرحالة الثلاثة، أيضًا، من مناوئ أو عدو. وحده حى الفيلسوف يتقبل اختلاف المناوئ "سلامان" وعامة الناس، بوصفه خلافًا من

طبيعة البشر، وأنه لن يستطيع هداية الناس لما يراه حقًا، وإنما لكلٍ خياره الحر، وما عليه إلا أن يمضى وحيدًا إلى سبيله. لكن يرسين الذى هجر أوروبا إلى الهند الصينية سأمًا من قاذورات السياسة والاستعمار واضطهاد الأديان وزئير الحروب العالمية والتنافس العدائى بين معاهد باستور ومعهد كوخ، ما لبث أن اكتوى بهذه النيران فطالت حياته الشخصية العلمية واكتشافه لجرثومة الطاعون، وهو ما خلف فى نفسه حسرات، ومرارة شعوره الحاد بجدارته بجائزة نوبل وزهده فيها فى آن. ولم يسلم يرسين فى سبيل اكتشافاته للطرق المجهولة والبلدان المغمورة من عدوان قاطعى الطرق والقراصنة، فسقط جريحًا بيد زعيمهم سوك **Thouk** ، لكنه لم ينتقم منه وارتضى حكم القانون الذى سامه سوء العقاب.

أما التجار فلهم شأن آخر مع مناوئيهم وأعدائهم : روبنسون التاجر محارب وسلاحه مشهر على الدوام لا يفارقه حتى فى منامه، ينثر دماء البرابرة من أَكَلة لحوم البشر والأتراك الغزاة، مع التحلى بنبل إنقاذ ضحاياهم ومن ثم يصبحون بعد ذلك رعايا له، أما آكلة لحوم البشر- نجدهم بسابقة على روبنسون ، فى رحلة سندباد البحرى التاجر المغامر، لكن سندباد يجابههم فى الأغلب بالحيلة والصدفة العجيبة للخلاص، وكل عدو يتربص بالسندباد يقابله فى الآن نفسه مُعينٌ له يؤاخيه ويشد من أزره.

مع اتساع مخاطر الرحلة وإذكاء الرحالة للنزعة الفردية يتشبث كلٌ منهم بالإيمان على أنحاء مختلفة، لكنهم يجتمعون على التمرد على السلطة الدينية، وعلى وصل المعرفة بالإيمان. ولعل شخصية حى بن يقظان هى خير تجسيد لذلك، فهو الفيلسوف المعلم لذاته **Le philosophe autodidacte** بلا وحي، وإنما بالفطرة "وهى قوة تقتضى معرفة إله واحد ، وإيثاره على ما سواه ، وذلك حاصل مركوز فيها"(٢٢). أما عائلة يرسين فتنتمى إلى الكنسية الإنجيلية الحرة

المنشقة فى مدينة لوزان **Lausanne**، عن البروتستانتية الفيدوازية فى مدينة فود. "هؤلاء رفضوا أن يكون للدولة الحق فى الإنفاق على قساوستهم والعناية بمعابدهم، فى فقرِهم المدقع وتشددهم، ينزف المُؤمنون حتى يلبوا مُتطلبات الواعظين، فضلاً على الإنفاق على كاهن حتى لو كان نهمًا محبًا للطعام".

المكان فى الرحلات الأربع تزدوج فيه الرحلة الخارجية بالرحلة الداخلية، خارجيًا : يذهب الرحالة ويجىء ما بين الطبيعة والمدينة، وداخليًا تجتاز النفس تأملاتها إلى منظور فلسفى للعالم: وهو ما يبرز بشكل رمزى حاد وقاطع فى قصة حى الذى ينتقل من جزيرته الطبيعة المهجورة (الفطرة) إلى جزيرة المجتمع، فى هذه الأخيرة تقتضى شهوات الناس وغرائزهم تنظيمًا دينيًا وسياسيًا للفطرة، ويختار حى فراق الجزيرة الثانية لحساب الأولى التى شهدت مولده محاطًا بالبحر هائمًا ما بين الطبيعة الأم التي عهدها بالتراحم والتكيف وبين مغارته حيث يتوسل فيض نور الخالق على نحو "صوفى مشرقي"، كذلك يفعل يرسين ولكن على نحو آخر فهو يهجر أوروبا وصراعاتها الدموية إلى نها ترانج حيث يستثمر الطبيعة ويساعد سكانها على حياةٍ أفضل يستوطنها ويوصى بدفنه فيها وفق طقوس سكانها ، بعد أن عاش طويلاً بينهم ، ووحيدًا فى منزله المربع المتقن التصميم المشرف على البحر والمشيد على لسان الصيادين ، هكذا يختار يرسين مكانًا وسطًا بين اليابسة والبحر، بين الطبيعة والمدينة، بين استثمار الطبيعة وعشقها وترويضها لصالح البشر والثروة أيضا فقد كان يرسين زاهدًا ومحبًا للرفاهة الموفرة للراحة فى آن، بعدما صال وجال فى رحلاته ما بين أوروبا وآسيا، وسئمَ الحج إلى باريس مدينة النور بين سفرة وأخرى، (وهو ما يذكرنا بابن بطوطة الذى اتخذ من الحج فى مكة المكرمة مرتكزًا يعاوده بين رحلة وأخرى) يقر يرسين فى المجتمع الذى أنشأه فى نها ترانج لا هو بالطبيعة ولا المدينة وإنما ما بينهما. وعلى عكس روبنسون، يستوطن يرسين نها ترانج

مجافيًا لموطنه الأوروبى وقد اشتعل بالحروب العسكرية بين دول الحلفاء ودول المحور، والحروب العلمية بين معهدى باستور الفرنسى و كوخ الألماني، وبما أسماه يرسين بقاذورات السياسة، ليظل بين أبناء الصيادين وإن ارتفع وحيدًا منشغلاً بالقراءة والبحر فى بيته المربع ومركز أبحاثه المشرف على لسان الصيادين ويصبو للموت بينهم ووفق طقوسهم وعلى نحو "لا أدرى".

من جهة أخرى تطول رحلات روبنسون محملة بتفاصيل الأماكن من سالى إلى البرازيل وسكناه للجزيرة المهجورة، حتى عودته المستقرة فى مدينة يورك، هنا يؤثر روبنسون المدينة مع حرص على استعماره للجزيرة التى لاذ بها، والسيطرة على الطبيعة فيها، وحشها وأليفها، واستخدام المستوطنين فيها لحساب ما يحصله منهم من ريع يصله آمنًا فى مدينته. أما سندباد فيعود إلى مدينة بغداد الترف والصحبة بعد كل سفرة يرتمى فيها فى أحضان البحر، متنقلاً من جزيرة إلى أخرى منذرة بالهلاك والنجاة، مما يورثه الندم بعد كل رحلة، واستفزازًا للمغامرة بلا نهاية، حتى مع قراره النهائى فى مدينة بغداد بعد الرحلة السابعة، الرقم السحرى لتمام الخلق وتمام الرحلة، وكأن سندباد على نحو "رواقي" لا يرى أن ثمة سيطرة تامة على الطبيعة أو ائتمانًا لغضبها، كل نجاة للإنسان من ويلاتها ينذر بالحذر، وكأن الطبيعة محط نزواته يطاوعها ويستبعدها ويحتال عليها، يخشاها ويغامر بتطويعها من دون رابح منهما أو سيطرة تامة لأحدهما على الآخر.

كل رحالة يستهدف متلقيًا : آخر بعينه أو الآخر مطلقًا، من خلال تدوينه للرحلة أو حكايتها: كان كلٌ من روبنسون ويرسين حريصًا على تدوين تفاصيل الرحلة، فمشاهد تعمد كتابة الرحلة لدى كل منهما تتناثر فى نصيهما، وقد صرح يرسين بحرصه على الكتابة وحدد قُراءه: الأجيال القادمة، يقدم يرسين نفسه بوصفه قدوة بما يغوى الشباب بإطلاق العنان لمواهبهم وفضولهم

المعرفى وللاستكشاف والابتكار لخدمة البشرية والعمل الخيري: فقد دأب يرسين على علاج أهالى القرى وتطعيم الأطفال. كما أراد من الأجيال القادمة أن تطيل من عمره بقراءتها لرحلته ،بما يضاعف حيواته لاسيما أنه خصص فصلاً كاملاً بعنوان "إلى الأجيال القادمة" قائلاً : "لو كتب كلُ واحدٍ منا عن عشر حيوات عاشها من خلال حياته، ما كنا قد نسينا أيًا منها. لن تُمحَى أية حياة. كل حياة سوف تُوَرث للأجيال القادمة، وسوف يكون هذا عدلاً" (٢٢). أراد يرسين بهذا المعنى أن يكون قسًا زاهدًا ينأى بنفسه عن الصراعات مخلصًا لابتكاراته المفيدة للبشرية.

وكتابة يرسين على هذا النحو لم تقتصر على تدوين وقائع حياته الخاصة، بل شملت قراءاته للعالم فهو يقدم لنا موسوعة كبرى لمعارف عصره من علوم طبية وتقنيات العلوم الحديثة والهندسة والعمارة والرواية والشعر والفن التشكيلى والنباتات والحيوانات والزراعة بل حتى اللغة اللاتينية ... الخ، هذا علاوة على الأحداث التاريخية الفارقة كالتوسع الاستعمارى والحروب الكبرى في١٨٧٠و١٩١٤و١٩٤٢ والأمراض والأوبئة ، بل وكشاف جغرافى وتاريخى للبلدان والقارات (ويرد اسم مصر أكثر من مرة فى إطار هذه الرحلة) وأبرز الشخصيات التى صنعت معارف العصر ، كل هذه العناصر ترسم فى مجموعها صورة متكاملة لثقافة وتاريخ قرن من الزمان يمتد من آواخر القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين.ولن ينافس يرسين فى هذا الاتساع الموسوعى الجامع لمعارف العصر إلا حى بن يقظان.

أما روبنسون فقد كان حريصًا، هو أيضًا، على تدوين ليس أحداث عصره بصفة عامة وإنما "يوميات" رحلته، استحضارًا لما يقرؤه على الدوام من آيات الكتاب المقدس، آيات يستنير بها وتحيطه بـ"العناية الإلهية" التى تتوج

انتصاراته وتنجيه من المخاطر، فى هذا الإطار تأتى رحلة روبنسون أشبه بالمانيفستو الذى ساهم فى الترويج" للسيرة الذاتية بوصفها أنسب الأنماط الأدبية لتوظيف السرد للإصلاح الروحى وفق الرؤية البيوريتانية، أى رؤية المتطهرين... التى استدعت تمحيص الذات ورأت فى تدوين اليوميات تجميعًا للواقع التاريخى للفرد، وبالتالى فقد سعت مطبوعات "جماعة الأُخُوَّة الروحية" **Spiritual BrotherHood** إلى هداية البشر للصلاح ، كما استثارت فيهم الرغبة فى قراءة الكتب التى تهدف للإصلاح"[٢٣]. كان روبنسون يستهدف تعليم قارئ وتبشيره بهذه العلاقة الخاصة بين الإنسان وربه بعيدًا عن الكهنوت ورجال الكنيسة ، وتحفيزا له على حياة كفاح وجهد أسست للرأسمالية وتراكم الثروة، وهو يستهدف قارئًا بعينه مبشرًا، ولا تخلو رحلته من استبعاد عنصرى وعدوانى للآخر البربرى العدو.

لكن سندباد وحده قد حظى بالأمرين ، الحكاية ، والكتابة عنه. فقد حرص سندباد بعد كل سفرة من سفراته السبع على حكاية مغامرات الرحلة وعجائبها على مسامع أصحابه وندمائه فى قصره فى بغداد فى كل مرة يعود فيها من سفرة من سفراته السبع المغامرة: "وحملت جميع ما كان معى وجئت مدينة بغداد دار السلام ودخلت حارتى وقبلت أهلى وجماعتى وأصحابى وهنونى بالسلامة وأخبرتهم بما جرى لى وأنا قطعت إياسى من الحياة والاجتماع عليهم وخزنت جميع مالى وما كان معى وعاشرت أهلى وأصحابى وعدت إلى ما كان عليه الزمان الأول من العشرة والصفا والمودة واللهو والطرب وشربت الشراب ونسيت جميع ما كنت قاسيته من التعب والمشقة"[٢٤]. الإخبار والحكى الشفاهى للأهل والأحباب يثير الانفعال والإعجاب ويعضد عرى التواصل وحضوره الآنى الذى يوحد الناس ويؤلف بينهم ويضعهم فى إطار من الدينامية والدفء والتفاعل الشخصي، فالنظام اللغوى الذى يسود فيه الصوت يفضى إلى التوحيد ويعجل

بلذة الإثارة الشعورية [٢٥]. استهدف سندباد مودة وعبرة الصحبة وشغفها بالحكى المثير للمشاعر الإنسانية. وهو ما استهدفته قصص ألف ليلة وليلة فى كليتها، فمنذ مفتتحها وهى تصرح بمخاطبة مستمع يستخلص العبرة : النصيحة العقلية وطيب الانفعال، وكأن هذه القصص "قد كتبت بالإبر على مآقى البصر"، بكل ما تومئ إليه هذه الغاية من إيلام و لذة، تخلف الشجن والعجب بل والضحك الذى تذرف معه الدموع مرحًا أو أسى، وهو ما استهدفته بنيتها العجائبية التى تتعقبها الأنفاس اللاهثة، والقلوب الشغوفة.

ولا تخلو قصص سندباد بدورها من استجلاب "للعناية الإلهية" على غرار روبنسون، ولكنهما إذ يشتركان فى الاستغاثة بالعناية الإلهية عند الخطر والحمد لها عند النجاة ، إلا أن العبارات الحامدة والمستعينة بالله والمقتطعة للسرد باستمرار، أصبحت بمثابة الإيقاع الذى يضبط السرد ، سواء لرحلة روبنسون أو رحلة سندباد، والتى تتمثل فى آيات من الكتاب المقدس لدى روبنسون، وصيغ للدعاء أو الحمد لدى سندباد، وهذه الأخيرة تحسب بالأحرى على صيغ لغوية تقليدية فى الثقافة العربية الإسلامية ولا تنم بحال عن التزام دينى من نوع خاص. إذ لم يقدم لنا سندباد بأى حال من الأحوال صورة للمسلم الملتزم ، بقدر ما مثل المسلم العادى فى إطار الثقافة العربية الإسلامية، الذى يعتمد على الله ويستمتع بكل ما تتيحه الحياة من مباهج، وينفق أمواله "وهبًا لأهله وأصحابه وإحسانًا للفقراء والمساكين"، ولكن الغريب فى قصة سندباد التى استهدفت حكيًا شفاهيًا يلتف حوله الأهل والأحباب ، سرعان ما وجدت من يحفظها كتابة ، فلما وصل إلى البصرة وقد سمع الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد بأخباره استقبله فى قصره واستمع إلى أخباره العجيبة ثم أمرَ "المباشرين والكتبة يكتبوا هذه القصة ويجعلوا لها تاريخًا ويضعوها فى خزنة الملك ليعتبر بها من يسمعها". والحق أن سندباد كان مرحبًا به فى كل جزيرة يطؤها وكل من قابلهم

يناديهم باسم أخي ، ويدهش من بربرية بعض من يلقاهم ، لكن لم يقتل ولم يواجه وإنما تخلص منهم بحيلة منه ونجدة من الله. يعلمهم صناعة السروج للأحصنة، ثم يرحل فلا يرجو جزاءً ولا شكورًا. وهنا يتحول المحكى إلى مكتوب بأمر الخليفة نفسه. ولا تخلو حكايات سندباد من استتباب لأواصر الأخوة والمودة بينه وبين متلقيه، وحتى الأعداء يثيرون لديه الدهشة وتستنقذه منهم الحيلة والعناية الإلهية.

- لكن حي ليس الرحالة المدون لسيرته أو يومياته ولا الراوى الحذق وإنما هو الرحالة القارئ بامتياز. وحده حي، يستهدف القراءة بوصفها رحلة شاقة يتحمل أعباءها هو شخصيًا، ويحث قارئه على تحمل مسئوليتها بدوره. سرد رحلة حي يحفزه السؤال، والرحلة كلها هى إجابة عن سؤال يطرحه القارئ العام على الكاتب، وبالقدر ذاته تطرحه قراءة الكاتب ذاته لمن سبقوه من الفلاسفة. ففى المقدمة يتوجه ابن طفيل إلى القارئ بأنه لا إجابة عنده قاطعة على سؤاله، وفى المقدمة الثانية يبين ابن طفيل للقارئ الذى طرح السؤال، أنه هو نفسه قارئ لمن سبقوه وأنه خاض رحلة قراءة للغزالى وابن سينا وابن باجة، ومن رحلة القراءة هذه اختط لنفسه رحلته الخاصة لقراءة الكون والنفس فى قصة حى بن يقظان مستعينًا فى هذه القراءة الكاتبة لرحلة ابن يقظان ليس فقط بما قرأه فى كتب الفلاسفة ولكن أيضًا بقراءة الطبيعة والنفس فى ضوء اطلاعه على معارف عصره الذهبى فى الأندلس وما ازدهر فيه من معارف رياضية وعلمية وفلكية وأدبية ودينية وفلسفية. قصة حى هى كلها من المبتدأ إلى المنتهى قصة قارئة لتاريخ الإنسان منذ ظهوره المُلغز على وجه الأرض حتى غايته النهائية من الوجود. ومن هنا تصبح رحلة حى هى رحلة قارئ للطبيعة وللنفس لا تنطوى فحسب على دعوة للقراءة بل على صناعة للقارئ وللقراءة بوصفها مسئولية فردية. لا يختص حى بها نفسه ولا يغرى قارئه بمحاكاته بقدر ما يحثه على

النهوض بأعبائها كرحالة قارئ للطبيعة وللنفس ، فهو لا يقدم قدوة بقدر ما يلح على صناعة الفرد المعلم لنفسه، ولا يكتفى برحلة الشاهد وإنما يتممها برحلة نحو الغائب عبر عملية تأمل ومعرفة علمية طويلة للطبيعة تستوجب استشرافًا لما بعدها: فيقول ابن طفيل: " غير أنا إن ألقينا إليك بغايات ما انتهينا إليه من ذلك، من قبل أن نحكم مبادئها معك، لم يفدك ذلك شيئا أكثر من أمر تقليدى مجمل. هذا إن أنت حسنت ظنك بنا بحسب المودة والمؤالفة، لا بمعنى أنا نستحق أن يقبل قولنا.... ونحن لا نرضى لك هذه المنزلة، ونحن لا نقنع لك بهذه الرتبة ولا نرضى لك إلا ما هو أعلى منها، إذ هى غير كفيلة بالنجاة، فضلاً عن الفوز بأعلى الدرجات وإنما نريد أن نحملك على المسالك التى قد تقدم عليها سلوكنا، ونسبح لك فى البحر الذى قد عبرناه أولاً، حتى يفضى بك إلى ما أفضى بنا إليه، فتشاهد من ذلك ما شاهدناه وتتحقق ببصيرة نفسك كل ما تحققناه وتستغنى عن ربط معرفتك بما عرفناه." وفى هذا الإطار يبدو أكثر النصوص تعقيدًا، وأكثرها تجسيدًا لمعارف الثقافة العربية الإسلامية فى العصر الأندلسى وما وصلت إليه من تقدم فى العلوم والدين والفقه والرياضيات والاجتماع ... إلخ.

- وبدا النص كله بوصفه قراءة للعالم وللذات واستجابة للقارئ وحثًا على صناعة قارئ لا يقتدى وإنما يشكل نفسه أكثر النصوص تعقيدًا من حيث البناء والغاية، وأكثرها اعتدادًا بالإنسان وحريته وفطرته وعقله ، وبذلك يسحب حى مشروع القراءة من السلطة الدينية إلى رحاب المسئولية الفردية.

كل الرحالة يبحثون عن السعادة وعن موقع الذات من العالم والآخر بل والآخر مطلقًا، وما عليك الآن أيها القارئ إلا أن تتأهب للرحلة للقراءة بحثًا عن السعادة[٢٧].

ثالثًا: البيت:

بعدما خلصنا إلى أن الترجمة تثرى اللغة العربية ذاتها وتمكنها من الوعى بذاتها: إمكاناتها وحوافز تطورها، وأن دراسة النصوص المترجمة على نحو مقارن أو حتى مستثمر فى إطار مقارنتها بنصوص أخرى، علينا الآن أن نرسى بيتًا للحكمة من خلال إلحاق مركز بحثى بكل مركز للترجمة: من مهامه التخطيط والتنفيذ لدورات لتدريب المترجمين، تدريب المصححين، صُناع الأغلفة والكتاب، صناعة المعاجم وخاصة معاجم المصطلحات، النهوض ببحوث ميدانية لقياس نسبة المتلقين للكتب المترجمة ومدى إسهامها فى تطور المجالات المعرفية المعنية، وبحوث مستقصية لمدى تأثيرها على تطور اللغة العربية أو اضمحلالها بالرجوع إلى جودة لغة الترجمة من عدمه، مدّ جسور وقنوات تعاون وتنسيق مع مراكز الترجمة فى البلدان العربية بما يتلافى تكرار الترجمات ويضاعف إنتاجها، إصدار نشرة سنوية مشتركة تخضع لعمليات إحصاء وتبويب للكتب المترجمة إلى العربية والدراسات التى أجريت فى مدارها، إنشاء مكتبة ملحقة بكل مركز تضم مجمل إنتاجه وإنتاج نظائره فى الوطن العربى فى عملية تبادل بين مراكز الترجمة فى الوطن العربي، من غير المعقول أن تضم مكتبة العالم العربى فى باريس مجمل المؤلفات العربية، ولا نجد مثيلاً لها فى أى عاصمة عربية! على هذا ترى هذه الدراسة أن إنشاء مركز أبحاث فى كل مركز للترجمة فى الوطن العربى مهمة أساسية لتؤتى صناعة الترجمة أكلها كل حين بوصفها بيوتًا للحكمة يعضد بعضها بعضًا على نحو تكاملى وليس تنافسيًا أو تسويقيًا فحسب.

فى هذا الإطار لا تحتاج مثل هذه المراكز البحثية إلى فيض أموال بقدر ما يعوزها التعاون والتنسيق فيما بينها ، وبقدر ما يعوز كل مركز على حدة

وضع خططه البحثية وإبرام اتفاقيات تعاون فى نطاقه مع الأقسام الجامعية المتخصصة فى مجال الترجمة لإجراء مثل هذه البحوث التى تحتاجها هذه المراكز سواء كانت بحوثًا ميدانية أو نظرية أو معاجم بما يفيد الخطة القومية و يفيد الطلاب ويصلهم بالمشكلات العملية الحيوية للترجمة بدلاً من استغراقهم فى بحوث لا طائل منها سواء فى مادة أعمال السنة أو الدراسات العليا أو بحوث الماجستير و الدكتوراه. فى المقابل يقوم مركز الترجمة بإجازة أصحاب أفضل هذه البحوث بشهادة تقديرية مع الالتزام بنشرها، كما يمكن لهذا المركز البحثى أن يفتح قنوات اتصال مع المبعوثين العائدين من الخارج لتلقى اقتراحاتهم لترجمة أهم المصادر العلمية التى اعتمدوا عليها فى بحوثهم فى الخارج. مع عرضها من بعد على اللجان المختصة فى المركز. لكن الاهتمام بالمواد المفيدة للترجمة والبحوث الدائرة حولها لا تكفى لإحداث نهضة معرفية حقيقية إذا لم يواكبه مركز بحثى يختص باللغة العربية ذاتها، فقد توازت حركة الترجمة فى العصر الذهبى للحضارة العربية الإسلامية بحركة جمع وتقعيد وفقه فى اللغة العربية، وكذلك فى عصر النهضة العربية الحديثة وكان إنشاء مدرسة الألسن فى القرن التاسع عشر موازيًا لمشروع الترجمة العربية وللبحث والتنظير للغة العربية الوسطى. ومن ثم ينبغى أن يضم المركز قطاعًا بحثيًا خاصًا باللغة العربية يتابع مدى استفادتها وتأثرها وتوسل سبل الحفاظ عليها والحد من تدهورها، فهذه مهمة لا تقل أهمية عن مهمة الترجمة، بل هى لها بمثابة القرين والمتمم لعملية التعارف، معرفة الذات. وفى هذا الإطار، أيضًا، تصبح إجازة أفضل مصححى اللغة العربية واجبة، ولم لا تُنشأ "إجازة علمية" خاصة بالتصحيح اللغوى تحت رعاية المركز القومى الترجمة؟!

حاولنا فى هذه الدراسة تتمة مهمة الترجمة من عرض الكلمة على الكلمة والجملة على الجملة وحتى عرض النص فى مجمله على غيره من النصوص بما يتمم أو بالأحرى ينفتح بعملية الترجمة على معرفة مزدوجة فى آن: معرفة الذات ومعرفة الآخر، ومن ثم الخروج من متاهة برج بابل إلى بيت للحكمة لم يُغلق له بابٌ قط.

الهوامش

1-George STEINER, *Après Babel: Une poétique du dire et de la traduction*, traduit de l'anglais par Lucienne Lotringer et Pierre Emmanuel Dauzat, Paris, ed. Albin Michel, 1998, p 635-636

2-Paul RICOEUR, *Sur la traduction*, Paris, éd. Bayard, 2004, p25-34

3-Jacques DERRIDA, Les Tours de Babel, in *Psychés.inventions de l'autre*, Paris, éd.Gallilee,1987, p220.

4- Jacques DERRIDA, Qu'est-ce qu'une traduction « relevante » ? Paris, éd. L'Herne, 2005, p34-35, 44-45 .

5- Etiemble, *Quelques essaies de littérature universelle*, Paris, Gallimard,1982, p220.

6- : Etiemble, Ibid, ch: Pour une maison de la sagesse ou une maison de tolérants, p217-220

– د.شوقي جلال، الترجمة في العالم العربي:الواقع والتحدي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩

– د.حسن البحراوي، الترجمة العربية من مدرسة بغداد إلى مدرسة طليطلة، الرياض، كتاب المجلة العربية ، عدد ٢٣٩، ١٤٣٩ هجرية.

٧- الجرجاني، التعريفات، القاهرة ، البابي الحلبي، ١٩٣٨، ص ٥٤-٥٧-٥٨

٨- انظر فيما يتعلق بمعاني الصيغة الصرفية "تفاعل" :

الشيخ أحمد الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف، القاهرة ، البابي الحلبي ص- ٤٥-٤٦ .

د.فتحي عبد الفتاح الدجني، في الصرف العربي: نشأة ودراسة، مكتبة الفلاح، الكويت ، ١٩٧٩، ص ٨٩-٩١.

٩- د.تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء٢٠١٦، ص١٥١

١٠- انظر: - لسان العرب لابن منظور، مادة ترج ومادة رجم.

١١- د.حسن البحراوي، الترجمة العربية من مدرسة بغداد إلى مدرسة طليطلة، ص ٨٤-٨٥.

١٢- انظر في المعنى اللغوي:

Martinet, Eléments de linguistique générale, Paris, Ed. Amond Calin, 1960,p.25

Marie Zimmerman, La Traduction , Actes du XXIII congrés de la société des Hispanistes français, Caen,1967,Ed. U. de Caen,1989.

١٣-المصطلحان لجاك دريدا، انظر:

-Charles Ramond, Le Vocabulaire de Derrida, Paris, ed.Ellipses, 2001, p 20-21.

انظر أيضاً تحليلاً لهذين المصطلحين في:

. Mona Tolba , Le Discours littéraire de Jacques Derrida , in Logos, A refereed journal of language and translation, n° 5, Ed : L'Université du Caire, 2009.

١٤- د. عبد السلام المسدي، في ما لا يقبل الترجمة، أعمال مؤتمر الرباط : الترجمة العلوم الإنسانية والاجتماعية في العالم العربي المعاصر، إشراف ريشارد جاكمون، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، ٢٠٠٨

١٥ - انظر في مفهوم "السر الأدبي" عند دريدا

Mona Tolba , Le Discours littéraire de Jacques Derrida ,p67.

Parce que la littérature effectue ce processus de l'incalculable à travers « le beau », *« le poétique » qui nous tente et nous libère. Rien d'esthétique dans l'écriture de Derrida, pourtant il capte l'essence philosophique du littéraire et en formule sa propre philosophie qui dérange et émerveille. Il atteste les contradictions et les apories de la religion, ses détours, ses dissimulations, son axiome logique, les engendrements de ses suppléments. Ceux-ci résistent et défient l'esprit humain, le mettant ainsi face à son histoire, ses valeurs, ses crimes, ses responsabilités, et avant tout, face aux secrets du littéraire :*

Jacques Derrida, dit du secret du littéraire dans son livre: Passions, p67

« Il y' a dans la littérature, dans le secret exemplaire de la littérature, une chance de tout dire sans toucher au secret. Quand tous les hypothèses sont permises sans fond et à l'infini ... quand c'est l'appel de ce secret qui pourtant renvoie à l'autre ou à autre chose, quand ce cela même qui tient notre passion en haleine et nous tient à l'autre, alors le secret nous passionne, même s'il n'y en a pas... même s'il n'y a jamais eu un secret, un seul secret, Pas un ».

Mais soyons vigilants, parce que le « Pas un » derridien peut vouloir dire aussi ,qu'il y'en a plusieurs.

١٦- مصطلح السيرة الذاتية الاستعارية صكته:

د. ماري تريز عبد المسيح ، قراءة الأدب عبر الثقافات، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٧، الفصل الثامن: حي بن يقظان وروبنسون كروزو: نصان في السيرة الذاتية الاستعارية، ص ٧٠- ١١٣

١٧- انظر في تاريخ تحول نص ألف ليلة وليلة من الشفاهة إلى الكتابة :

د.أحمد كمال زكي، عن ألف ليلة وليلة!، مجلة فصول، مجلد١٢،العدد٤، ١٩٩١، **ألف ليلة وليلة (الجزء** الأول)، ص١٣-٢٩.

18- Maister Xavier,<u>Voyage autour de ma chambre</u>, In Methodologie du recit du voyage, **Sorbonne** nouvelle, Paris III, 1991, p59-64 .& .DEA , Universite de la Sorbonne **Paris** III, **session** 1992-1993, 1993-1994.p64-68.

٢٠- تقسيم هواة السفر ما بين تجار يطمحون للثروة والرحالة الذين ينشدون الحكمة: انظر:

نجيب محفوظ، رحلة ابن فطومة ، مكتبة مصر،١٩٨٨، ص ٢٢

21- Léon Gautier, <u>Hayy Ben Yaqdhan :Roman philosophique d`Ibn Thofail</u>, Beyrouth, Imprimerie Catholique,2éme édition, 1936. Introduction, p XV.

22- Patrick Deville, <u>Peste et Cholera</u>, Paris, Seuil,2012

٢٣- د. ماري تريز عبد المسيح، السابق، ص ١٠٧

٢٤- ألف ليلة وليلة ، المجلد الرابع، طبعة مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة

٢٥- منى طلبة، قراءة القرآن بين الوعي الشفاهي والكتابي، في النزعة الإنسانية في الفكر العربي، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ١٩٩٩، مترجم إلى الإنجليزية:

: History of philosophy and Islamic thought:, Reciting Quran Between Verbal and Scriptural Perception: Outlooks on the emergence of Humanism In Arabic Culture. HYPERLINK "http://www.scienceislam.net/article.php3?id_article=697&lang=en" http://www.scienceislam.net/article.php3?id_article=697&lang=en

٢٦- انظر النصوص التى تمت المقارنة بينها في :

-Patrick Deville, *Peste et Cholera*, Paris, Seuil,2012

- دانيال ديفو، ترجمة مجهول، دراسة محمد سيد عبد التواب، تقديم خيري دومة، قصة روبنصون كروزي، أول رواية معربة(مالطة ١٨٢٥)، القاهرة المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥

- ألف ليلة وليلة : من المبتدا إلى المنتهى، طبعة مُصورة عن طبعة برسلاو(١٨٣٧)بتصحيح مكسيميليانوس بن هابخط، القاهرة، مطبعة دار الكتب والوثائق، ٢٠٠٣، المجلد الثالث والرابع.

- ابن طفيل الأندلسي، قصة حي بن يقظان ، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة تونس، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨.

٢٧- إلكسندر أغناتنكو، بحثاً عن السعادة ، الأفكار الاجتماعية السياسية في الفلسفة العربية الاسلامية، دار التقدم ، موسكو، الترجمة إلى اللغة العربية، دار التقدم، ١٩٩٠.

شكـــر

الشكر أولاً موجه إلى البروفسيرة آليس دوترى Alice Dautry المديرة العامة لمعهد باستور ، التى يسرت لي، عن طيب خاطر، الاطلاع على الأرشيف الموجود فى شارع إميل رو Emile-Roux. كما أشكر آنياس ريمون دونيس Agnés Raymond-Denis أمينة الأرشيف، ودانيال ديميلييه Daniel Demellier للدعم الذى قدمه لهذه البحوث ولنصائحه الثمينة. وفى باريس، أيضًا، أشكر هوا تران هوى Hoa Tran Huy، وهوان تران هوى Hoan Tran Huy ، ومينه تران هوي Minh Tran Huy. وفى مورج Morges أشكر جيوم دولمان Guillaume Dollmann لبحثه الذى أجراه عن مصنع البارود، وأيضًا لرحلتنا معًا إلى خط الاستواء من كيتو Quito حتى ماتيد ديل موندو Mitad del Mundo على خطى لا كوندامين La Condamine . وفى سايجون Saigon أشكر أصدقائى فيليب باسكيه Philippe Pasquet ، وتران تهيم مونج هونج Trãn Thi Mông Höng. وفى دالات Dalat أشكر نجويين دين بونج Nguyĕn Dinh Böng مدير معهد باستور، ونائبة المدير داو تى فى هوا Dào Thi Vi Hoa، وفى نها ترانج أشكر ترونج تى توى نجا Truong Thi Thúy Nga أمينة متحف يرسين فى معهد باستور. وأشكر كذلك تران دين تو كوى Trãn Dinh Tho Khôi الذى كان تلميذًا فى مدرسة يرسين فى دالات، وهو الآن أستاذ، فقد تكفل بالترجمة لى فى هذه المناطق، أما خفراء هون با Hon Ba، فأتوجه بالشكر لهم، هم أيضًا، لحسن استقبالهم، والشاى الذى قدموه لنا، ومسيرتنا معًا فى الغابة تحت الأمطار نتقصى آثار يرسين.

ثانيًا

الطاعون والكوليرا

الرحلة الأخيرة

أزاحت اليد العجوز بأصابعها المُجَعَدة ستارة النافذة. أشرق الفجر القرمزى بموسيقاه المجيدة بعد ليلةٍ من الأرق. غرفة الفندق بيضاء بلون الثلج والذهب الباهت. من بعيد، يَسْطع ضوءٌ من خلف الغيوم نافذٌ عبر العوارض الحديدية للبرج العالي. فى الأسفل، أشجارٌ نضرة شديدة الاخضرار تزين ميدان بوسيكو **Boucicault**. المدينة هادئة فى فصل الربيع زمن الحرب. يجتاح اللاجئون المدينة، كل هؤلاء الذين ظنوا أن حياتهم تكمن فى السكون. تركت اليدُ العجوز مقبضَ النافذة وأمسكت بحقيبتها. بعد نزوله ستة طوابق سفلية، يَعْبُر يرسين **Yersin** رواقًا أسطوانيًا ذا أبواب مصنوعة من الخشب المبرنق والنحاس الأصفر. يغلق السائق باب السيارة الأجرة وفى داخلها يرسين. لم يهرب يرسين. لم يهرب أبدًا. لقد حجز تذكرة رحلة الطيران هذه باكرًا، منذ شهور، فى وكالة طيران سايجون **Saigon**.

الآن، هو رجلُ شبه أصلع، ذو لحية بيضاء وعيون زرقاء، يرتدى سترةَ نبيل مزارع، بنطلونًا بُنيا وقميصًا أبيض ذا ياقة مفتوحة. تطل النوافذ على الساحة التى تحطُّ عليها عجلات طائرة مائية، أشبه بحوتٍ أبيض ذى بطنٍ دائرى يتسع لاثنى عشر راكبًا. ندفع بعبارة قُبالة كبينة الطيار من الجهة اليسرى، لأن الطيارين الأوائل، ومنهم يرسين، كانوا فرسانًا، يتجه إليها ليلاقى أحصنته الصغيرة الآنامية. (نسبة إلى بلاد آنام **Annam**). على مقاعد فى البهو، يجلس

عددٌ قليل من الجنود الفارين. فى جوف حقائبهم، تحت القمصان وفساتين السهرة، أكوامٌ من الأموال والمجوهرات. الجيوش الألمانية على أبواب باريس، لكن هؤلاء الجنود كانوا من الثراء بحيث لم يعوزوهم التعاون مع العدو، إنهم يراقبون ساعة الحائط وساعة اليد فحسب.

يكفى أن توجد دراجة نارية مُشتراة، من طراز ويرماتش **Wehrmacht**، مُسندة على مقعد جانبى على مركبة الحوت الأبيض هذه، حتى تُغْرِقَها. مَرّت ساعةٌ من الزمن، يتجاهل يرسين المُحادثات القلقة الدائرة من حوله، يكتب جملة أو جملتين فى دفتره، نرى مراوح الطائرة وهى تدور أسفل مقصورة الطيار، يَجتاز الطيارُ مَمَر الإقلاع. يريد الهاربون إجباره على الإسراع، كلهم جالسون على الحافة، ثمة من يساعده على تسلق السلم، إنه اليوم الأخير من شهر مايو من عام أربعين. شدة الحرارة تُرينا بركة تتراقص على ممر الإقلاع. تهتز الطائرة ثم تنطلق. يجفف الجنود الهاربون عرقهم، إنها رحلة الطيران الأخيرة للخطوط الجوية الفرنسية منذ عدة سنوات مضت. حينها لم نكن نعلم بعد أنها الرحلة الأخيرة.

هى ،أيضًا، آخر رحلة طيران ليرسين، فهو لن يعود أبدًا إلى باريس، ولن يوجد قط مرة أخرى فى غرفته فى الدور السادس من فندق لوتسيا **Lutetia**. لقد تشكك قليلاً وهو يلحظ طوابير الهجرة الجماعية فى بوس **Beauce**، الدراجات وعربات النقل الزاخرة بالأثاث والمراتب، والشاحنات التى تُزاحم المَارّة. كل هذا تُبَلله عواصف الربيع. تفرُّ طوابيرُ الحشرات المذعورة من أحذية الجموع. كل جيرانه فى لوتسيا قد تركوا الفندق. ها هو جويس **Joyce** الأيرلندى الكبير ذو النظارتين الطبيتين والسترة المُكونة من ثلاث قطع، فى أليه **Allier**. أما ماتيس **Matisse** فقد وصل إلى مدينة بوردو **Bordeaux**، ومن بعده، وصل إليها سان جان دو لوز **Saint-Jean-de-Luz**. حَطَّت الطائرة فى مارسيليا

Marseille فيما بين فكى الكماشة الضاغطتين: النزعة الفاشية fascisme والنزعة الفرانكية franquisme (نسبة إلى ديكتاتورية الجنرال فرانكو)، بينما فى الشمال، ينتصب ذيل العقرب قبل أن يلدغ. لقد تفشى الطاعون.

يعرف يرسين اللغتين والثقافتين الألمانية والفرنسية ومعركتهما القديمة، كما يعرف جرثومة الطاعون أيضًا، إنها،بالفعل، تحمل اسمه. منذ ستة وأربعين عامًا مضت، فى هذا اليوم الأخير من شهر مايو من عام أربعين، كانت المرة الأخيرة التى حلق فيها يرسين فى الأجواء الفرنسية وسماواتها العاصفة.

طاعون يرسينيا

حشــرات

يتصفح الرجل العجوز الدفتر، ثم يغفو رغم الطنين. لم يستطع النوم منذ عدة أيام. كان الفندق قد غزاه المتطوعون للدفاع السلمى من أصحاب الشارات الصفراء. تدقُّ أجراس الإنذار ليلاً. الأرائك موضوعة تحت الأرض فى آخر القبو حيث تتراص الزجاجات. من وراء جفونهِ المُغمضة، تلهو الشمس على سطح البحر. يتراءى لهُ وجه فانى **Fanny** ، رحلة الزوجين الشابين معًا من بروفنس **Provence** حتى مارسيليا ليصطادا الحشرات. كيف يمكن كتابة قصة الابن بدون ذكرٍ لقصة الأب، كانت هذه الأخيرة قصة مختصرة، إذ لم يعرف الابنُ الأبَ أبدًا.

فى مورج **Morges** فى مقاطعة فود **Vaud** فى سويسرا، حيث تقطن عائلة يرسين وجيرانها، لم تعانِ العائلة من فقرِمدقع ولكن من اقتصادِ قاسٍ. الفِلْس هو الفِلْس. تنورات الأمهات البالية تُعْطَى للخادمات. لقد نجح الأب، من جراء عمله بالدروس الخصوصية، فى أن يحصل على شهادة متوسطة فى جنيف **Genève**، ومن ثم صار،لحقبةٍ ما، مُعلمًا فى مدرسة. كان الأب شغوفًا بعلم النباتات والحشرات، وحتى يستطيع أن يكسب عيشه بطريقة أفضل، عمل فى إدارة مخزن البارود والمتفجرات. يرتدى سترة طويلة سوداء وقبعة عالية ، مثل العلماء،. يعلم كل شىء عن الخنافس، ولكنه تخصص فى الحشرات المُستقيمة الجناح والجراد.

يرسم حشرة الجراد وحشرة الجداجد، يقتلها، يضع تحت الميكروسكوب أشباه الخنافس والحشرات الهوائية، ويرسل بحوثه إلى المنظمة الفودوازية السويسرية للعلوم الطبيعية، بل إلى منظمة علم الحشرات فى فرنسا. ثم ها هو ذا، يصبح أمينًا لمخزن البارود، مهمة ليست بالهينة، ومع ذلك استكمل دراسته للنظام العصبى لحشرة الجداجد فى الحقول، كما استطاع أن يُحَدِّث صناعة البارود. هرس بجبينه حشرة الجداجد الأخيرة المُتبقية لديه، شعر بشدٍ عضلى شديد فى ذراعِه جعله يطيح بالأوعية الزجاجية أرضًا، مات ألكسندر يرسين وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره. عبرت خنفسةٌ خضراء على خدهِ، وقعت جرادةُ فى شِرَاك شَعْرِه، ودخلت خنفساءُ البطاطس فى فمه المفتوح. وقتها كانت زوجته الشابة فانى حاملاً، الآن، ينبغى على أرملة المدير أن ترحل بعيدًا عن نطاق مخزن البارود. بعد صلاة الجنازة، وسط بالات القماش وأكوام الأواني، وُلِدَ طفلٌ، أُطلِق عليه اسمُ الزوج المُتوفَي.

على شط البحيرة ذات المياه الصافية الباردة، حَوَّلت الأمُ البيتَ المُحاط بأشجار التين، والذى يقع فى حوزتها فى مورج Morges ،إلى فندقٍ للشابات. فانى سيدة أنيقة خبيرة بأمور اللياقة والأدب. راحت تُلقن الفتيات الشابات سبلَ العناية بالنفس والطبخ وبعض فنون الرسم والموسيقى، أما الابن فسوف يزدري، طيلة حياته، مثل هذه الأنشطة، يخلط بين الفن والتسلية. كل هذه التُرهات من الرسم والأدب تذكره بسطحية من سوف يُسَميهنَّ فى خطاباته بالنسانيس الصغيرة.

هذا يعطيك فكرةً عن هذا الصبى البَرّي، الذى يصنع فخاخًا، يُخَرب أعشاش العصافير، يشعل النيران باستخدام العدسة، ثم يعود إلى المنزل ملطخًا بالطين وكأنه عائدٌ من حرب أو انفجار فى الأدغال. هو ولدٌ وحيد ، كاره للصُحبة، يسبح فى البحيرة أو يصنع الطائرات الورقية، يصطاد الحشرات، يرسمها، يَغْرُز فيها الإبر، ويثبتها على ورق الكارتون. طقسُ القُربان يُحيى الموتى. ورث من الأب

– كما هو الحال لدى قبيلة المتحاربين بالرماح والدروع – رموزًا: يستخرج من حقيبة موضوعة على تسقيفة البيت ميكروسكوبًا ومشرطًا. ها هو ألكسندر يرسين الثاني، عالمُ حشرات ثانٍ. مازالت مقتنيات المتوفى هذه موجودة فى متحف جنيف. ربما كان هدفه فى الحياة أن يستنفد أيامَه فى الدراسة الصارمة، منتظرًا بدورهِ انفجار وريدٍ فى رأسه.

من جيلٍ لجيل، وفيما عدا تعذيب الحشرات، كانت سبل الترفيه الفودوازية، نسبةً إلى مدينة فود **Vaud** السويسرية، محدودة. التفكير فى الترفيه يبدو أمرًا مريبًا، فالحياة فى هذه الأماكن عبارة عن فرصة للتوبة من خطيئة الحياة. تُكفِّر عائلة يرسين عن نفسها فى ظل الكنسية الإنجيلية الحرة المنحدرة، فى مدينة لوزان **Lausanne**، من البروتستانتية الفيدوازية فى مدينة فود **Vaud**. هؤلاء رفضوا أن يكون للدولة الحق فى الإنفاق على قساوستهم والعناية بمعابدهم، فى فقرِهم المدقع وتشددهم، ينزف المُؤمنون حتى يلبوا مُتطلبات الواعظين، فضلاً على الإنفاق على كاهن حتى لو كان نهمًا محبًا للطعام. يقول الكاهن لإرضاء الرب – تناسلوا تكاثروا، وها هو نوع يتضاعف بسرعة رهيبة. مريدو الكاهن هم عائلات غفيرة تعيش فى قلب عشٍّ ومناقيرُها لأعلى. هنا لن تذهب تنورات الأمهات البالية إلى الخادمات. يتستر المؤمنون وراء عباءة نخبويتهم واستقامتهم. إنهم الأكثر نقاءً والأبعد عن الحياة المادية، إنهم أرستقراطيو الإيمان.

إزاء هذه البرودة المُتعجرفة فى أيام الآحاد الشديدة التجمد، يمكن القول بأن الشاب سوف يحتفظ بصراحته الفجة واحتقاره لثروات هذا العالم. لقد أصبح التلميذ النجيب، من فرط الضجر مما حوله، مراهقًا مُولعًا بالدراسة. الرجال الوحيدون المُرَحَب بهم فى منزل أشجار التين، وفى الصالون الصغير المليء بالورود، هم أصدقاء الأم من الأطباء. ينبغي، إذن، الاختيار ما بين نموذجى فرنسا وألمانيا الجامعيين. شرق نهر الرين **Rhin**، المحاضرة الرئيسية

النظرية، يُقدمها أساتذة من العلماء يرتدون سترات سوداء وياقات مُنْشَاة. أما فى باريس، فالدراسة الإكلينيكية تجرى عند سرير المريض وبواسطة دارس ذى معطف أبيض، هذا ما يُعرف بنموذج العمل الإكلينيكي، الذى اخترعهُ لايناك Laennec.

سوف يسافر للدراسة فى ماربورج Marburg إرضاءً للأم وأصدقائها، وإن كان يرسين يُفضل برلين، وها هو يقيم فى الريف. استأجرت فانى لابنها غرفةً عند أستاذ مرموق، قُطب كبير يُحاضر فى الجامعة ولكنهُ يتولى، أيضًا، الإدارة. أذعن يرسين لنصيحة الابتعاد عن النساء، فهن يؤثرن على الحركة والعمل، وأحلامهُ أحلام طفل. إنها بداية المُراسلات مع فاني، مراسلات لن تنتهى إلا بوفاتها: "حين أصبحُ طبيبًا، سوف أصحبُكِ معى ونرحل لنستقر فى جنوب فرنسا أو إيطاليا، أليس كذلك؟".

أصبحت الفرنسية لغة سرية، إنها اللغة الأم، كنزٌ، لغة المساء، لغة الخطابات إلى فاني.

بلغ من العمر العشرين ربيعًا، وحياتهُ منذ ذلك الحين سوف تتحدث كُليةً باللغة الألمانية.

فى برلين

ولكنه، أولاً، عامٌ طويل هذا الذى يجب أن يصبر عليه. يقول فى خطابٍ، حرره فى شهر يوليو: "بما أن السماء تُمطر دائمًا، والجوَ صقيعٌ، فمن المؤكد أن ماربورج Marburg ليست بلد الشمس". لقد أصابته الدراسات العليا للدكتوراه، أسوةً بأحوال المناخ، بالسأم. طريقة تفكير يرسين برجماتية عملية وتجريبية، فهو فى حاجة لأن يرى، يلمس، يُمارس، ويصنع طائرات ورقية. العَالِم المرموق الذى سوف يستقبله، له وجه صارم يُزين الأوراق النقدية. للأمريكان كلمة شهيرة تصف هذا الوضع هى dwem: أى الحكماء البيض العجائز، النُخب والعلماء ذوو اللحى والعدسات.

فى ماربورج أربع جامعات ومسرح وحديقة نباتات ومحكمة ومستشفى. كل هذا على عتبة قصر لاندجراف دو لا هيس Landgraves de la Hesse. قاضٍ وكاتب، فى يده دفترٌ، غلافُه من الفرو الثمين. إنه طيف خيالى مستقبلى سوف يتتبع خطوات يرسين. نزيلاً فى فُندق زور سون Zur Sonne، مُترَجِّلاً فى الشوارع المُنحدرة، وعلى امتداد نهر لان Lahn، يتقفى الطيفُ آثارَ شباب البطل، ويعثر، دون عناء، على المنزل الشاهق الذى شُيدَ بألواح خشبية وطوب الآجر، وسط هذه الجزيرة الهادئة التى تظللها سماء رمادية خفيضة، حيث يشعر الشاب ذو العيون الزرقاء الصارمة واللحية النابتة بالضجر.

يعبر الطيفُ الأسوار أسوةً بعبوره للزمن، يرى خلف واجهة المنزل المُغطاة بالألواح الخشبية المُعشَّقة، أثاثًا خشبيًا مُعتِمًا وأرائك جلدية غامقة اللون وأغلفة كتب مرصوصة فى المكتبة. اللون الأسود والبنى يطغيان على لوحة هولندية

فلمنكية Flamand. فى الليل، يضوى ذهب المصابيح ويضيء التمتمة المُبَارِكة للعشاء الصامت. يُثَبِّت بندول الساعة انعكاس الضوء. فى الأعلى، يبرز ترس الساعة الذى يطقطق. عند واجهة الساعة الراسوس **Rathaus**، يعود الموت، بعد كل ساعة، إلى ساعته الرملية. هذا الموت حاضرٌ أبدي، لكننا نتجاهله، ولن يكسب العالمُ شيئًا إذا ما تطور أكثر، هذه الحضارة قد وصلت إلى ذروتها، ربما يجب فقط ضبط التفاصيل، ولكن، بلا شك، ثمة أدوية ينبغى تحسينها.

عند حافة المنضدة ، يجلس حازمًا مرموقًا وساكنًا، البروفسير يوليوس فيلهلم فيجناد **Julius Wilhelm Wignad**، دكتور فى الفلسفة، ومدير معهد الصيدلة، أمين حديقة النباتات، وعميد الكلية. فى المساء، فى حجرة مكتبه، يستقبل الشاب السويسري، يحيطه بعناية أبوية، يود أن يرشد الشاب فى معراجه الأكاديمى وأن يجنبه العثرات. على هذا النحو، يلومه على تردده على زيارة هذا المدعو سترنبرج **Sternberg** ، وينصحه بأن ينضم إلى زملاء المهنة. لكن ها هو يرسين، هذا الطالب الخجول الجالس أمامه على المقعد، والذى لم يكن لديه أبٌ أبدًا، يعيش مستغنيًا عن الأب حتى هذه اللحظة.

وسواء سجل طلاب ماربورج أنفسهم فى كلية الطب أو الحقوق أو الزراعة أو علم اللاهوت، فتسعة أعشارهم ينتمون إلى الجمعية المهنية. بعد مراسم القبول، والنطق بقسم الولاء، نرى نشاطًا كل مساء، عُصبة منهم يتوجهون إلى الحانة ذاتها التى تكتسى حوائطُها بشعارات النسب إلى الجمعية، وسرعان ما ستجرى هذه الشعارات بحدة على الألسنة، تُذْكى التقاتل الثنائي، قد نذود عن العنق بوشاح، وعن القلب بواقية الصدر، ثم نُخرِج السيوف من غمدها، ونتوقف عن النزال عند أول قطرة دم. وهكذا تنشأ صداقات خالدة، وهكذا نتباهى أيضًا بالجرح والشجة على الجبين كما سنتباهى، فيما بعد، بالأوسمة على السترة. وعلى الرغم من ذلك، فواحدٌ من كل عشرة أصدقاء يتم إقصاؤه من هذه الصداقة، إنه العدد المميز المسموح به وفق القانون الجامعي.

اختار الشاب الصغير المَكْسُوّ بالسواد هدوءَ الدراسة، التنزه فى الريف والمناقشات مع سترنبرج. أما محاضرات التشريح والطب الإكلينيكى فهى متوفرة فى المدرج الجامعي، والذى يلوذ به هذان الشابان عندما يرغبان فى التعرف على المستشفى والاستفادة من الشرح والدخول فى صلب الموضوع. فى برلين، حيث يقيم يرسين أخيرًا، استطاع أن يشهد، فى أسبوع واحد، إجراء عمليتين لبتر الورِك، فى حين لم تُجْر هذه العملية إلا مرة واحدة فقط خلال عام كامل فى ماربورج. أخيرًا، يستطيع يرسين أن يسير فى شوارع عاصمة كبيرة. فى هذا العام، كانت الفنادق مكتظة بالدبلوماسيين والمكتشفين. لقد أصبحت برلين عاصمة العالم.

بمبادرة من بسمارك **Bismark**، اجتمعت كل الدول الاستعمارية حول الخريطة لتتقاسم إفريقيا. إنه مؤتمر برلين **Congrès de Berlin**، الرجل الأسطورى ستانلي **Stanley** الذى استطاع قبل أربعة عشر عامًا، أن يلتقى ليفنجستون **Livingstone**، وأن يقدم له ملك البلجيك المُستحوذ على الكونغو. يقرأ يرسين الجرائد، ويكتشف حياة ليفينجستون، لقد أصبح ليفينجستون نموذجًا بالنسبة له: هذا الأسكتلندى الذى كان، فى آن، مُكتشفًا وناشطًا وعالمًا وقسيسًا وطبيبًا ومكتشفًا لزمبابوي، قد تشرد لسنوات طويلة فى غياهب أراضٍ مجهولة فى إفريقيا الوسطى، وحين عثر ستانلى عليه أخيرًا، آثر ليفنجستون أن يظل فى مكانه حتى الموت.

يومًا ما سوف يصبح يرسين هو ليفنجستون الجديد.

كتب ذلك فى رسالة إلى فاني.

ألمانيا، مثل فرنسا وإنجلترا، تحوز بضربات السيف والرشاش إمبراطورية، فهى تحتل الكاميرون وناميبيا الحالية وتنزانيا الحالية وحتى

زنجيبار. في هذا العام، عام مؤتمر برلين ، أرسل آرثر رامبو Arthur Rimbaud، مؤلف" حلم بسمارك Rêve de Bismarck، ألفي بندقية وستين ألف شحنة بارود، مُحَمَّلة على ظهور الجمال، إلى الملك مينيليك Ménélik في الحبشة. كان هذا الكاتب شاعرًا فرنسيًا يُرَوِّج للنفوذ الفرنسي ويعارض الأهداف الإقليمية للإنجليز والمصريين الذين كان يقودهم جوردون Gordon، "جوردونهم هذا أحمق، و ولسيلي Wolseley حمار، وكل مشروعاتهم عبارة عن متوالية لا معنى لها من السخافات والاختلاسات". لقد كان هو أول من أكد على الأهمية الاستراتيجية لهذا الميناء، والذى كتب اسمه على هذا النحو: جيبوتي Dhjibouti، وكتبه بودلير Baudelaire صحارى Saharah، كما أنه قد كتب تقريرًا عن هذا الاكتشاف للجمعية الجغرافية، وأرسل مقالات جيوسياسية إلى جريدة البوسفور المصرية، لاقت صدى واسعًا فى ألمانيا والنمسا وإيطاليا، كما تحدث أيضًا عن دمار الحرب فقال: لقد التهم الإثيوبيون فى عدة أشهر مخزون الذرة الذى تركه المصريون والذى كان مقدرًا له أن يكفى البلاد لعدة سنوات قادمة. المجاعة والطاعون على وشك مداهمة البلاد."

إنها حشرة، تلك التى تنشر الطاعون: البرغوث، والتى ما زلنا نجهلها.

من برلين، ذهب يرسين إلى إيينا Iéna، قام بشراء ميكروسكوب من طراز كارل زيس Carl Zeiss الأكثر كفاءة، والذى لن يتخلى عنه أبدًا، فهو يصطحبه معه فى حقائبه الجوالة حول العالم أجمع. إنه الميكروسكوب الذى سوف يكتشف به ، بعد عشر سنوات، بكتيريا الطاعون ، كارل زيس، أيضًا، هى طريقة سبينوزا Spinoza، إذ كان صقل الزجاج لدى هذين العالمين، أمرًا مُناظرًا للتفكير ولصناعة اليوتوبيا. وباروخ سبينوزا هو أيضًا يهودي، كما يقول سترنبرج. ها هما الطالبان يرسين وسترنبرج من جديد فى ماربورج، عاكفين الواحد تلو الآخر على عدسات الميكروسكوب الجديد، يلعبان بالمقبض الذى

يديرانه للتركيز على هندسة جناح حشرة اليعسوب (المفترسة الشفافة الجناح). لكن يرسين استطاع أن يرى، أيضًا، انتهاكات ضد السامية، واجهات زجاجية مكسورة ولكمات. ربما تتسلل كلمة "طاعون" ، قريبًا، إلى أطروحات الطالبين.

غالبًا ما نخلط بين الطاعون والجذام، ما دمنا لم نمسك بواحد منهما أو بالآخر. الطاعون المريع فى العصور الوسطى، الطاعون الأسود، وفاة خمسة وعشرين مليون شخص، وفاة ينبغى أن يُنْظَر إليها من خلال إحصاءٍ لعدد البشر فى هذه الآونة. نصف سكان أوروبا قد أبيدوا. ما من حرب قط تسببت فى مثل هذه المجزرة. يبدو حجم هذه الكارثة ميتافيزيقيًا، فهى تعبر عن الغضب الإلهي، عن العقاب. لم يتسم السويسريون، دائمًا، بالتدين المنحاز للسماحة والوسطية. منذ خمسة قرون مضت قام سكان فيلنوف **Villeneuve** على شاطئ البحيرة بحرق اليهود وهم أحياء، إذ اتهموهم بنشر وباء الطاعون عن طريق تسميم الآبار. خمسة قرون من بعد ، تراجعت الظلامية، ولكن الكراهية ظلت كما هي، ولم نعرف بعد المزيد عن وباء الطاعون، كيف يظهر، يُبيد ثم يختفي. ربما، يختفى يومًا ما، يثق الطالبان فى العلم. بالتقدم سوف يكون علاج الطاعون بمثابة ضرب عصفورين بحجر واحد، كما يقول سترنبرج. هاَ هو يرسين يخبره بأنه سوف يرحل إلى فرنسا.

فى العام التالي، سوف يواصل دراسته فى باريس. أما فى هذا العام حيث يُعقَد مؤتمر برلين، بينما كان آرثر رامبو يجوب الصحارى ممتطيًا الإبل، كان لويس باستور **Louis Pasteur** قد قام لتوه بإنقاذ الطفل جوزيف ميستر **Joseph Meister**، عن طريق علاجه الصرع بالتطعيم: وها هو بابٌ يُفتَح. قريبًا لن يكون ثمة خيار للموت ما بين الطاعون والكوليرا، وإنما ثمة علاج. يتميز يرسين بأنه مزدوج اللغة، كذلك سوف يكون سترنبرج مزدوج اللغة، حتى إنه سيتردد فى الرحيل إلى برلين أو باريس، مثله مثل من يحاول أن يتلافى خطرًا

حتى يقع فى خطرِ أعظم منه. بوضوح، هو بالأحرى متشائم ، إن لم يكن يشعر بأنه شخص لا أهمية له. عشر سنوات فيما بعد ، فى بدايات قضية دريفوس Dreyfus، لم نعثر على اسم يرسين فى أى مكان كان ، ولا حتى فى أدنى أى عريضة. حقًا، سرعان ما كانت كل هذه الفظائع فى أوروبا، تجعلك تجنح إلى الفرار صوب الجهة المقابلة من العالم. لقد كان يرسين ، أثناء هذه القضية، فى نهاترانج Nha Trang أو فى هونج كونج Hong Kong.

فى باريس

عندما اكتشف يرسين للعاصمة الأخرى، عرف نزعة مُضادة للتعصب الألماني. ففى باريس، نُفَضل بالأحرى أن نغنى اليوديل **le yodel** وأن نرتدى القبعة السويسرية العجيبة، لا أن نرتدى القبعة المدببة ونترنم بالأنغام البافارية (نسبة إلى مدينة بافاريا **Bavaria**).

منذ خمسة عشر عامًا، كانت مساحة فرنسا أصغر من مساحة ألمانيا، وكانت مدينة سيدان **Sedan** مساحة مقتطعة من منطقة الألزاس ولوران **Alsace et Lorraine**، وهو أمرٌ لن يمر مرور الكرام، إذ سوف تنتقم فرنسا بغزوها لإمبراطورية كبرى فيما وراء البحار أكبر بكثير من إمبراطورية الألمان، وسوف تمتد امبراطوريتها من جزر الكاريبى **Caraïbes** حتى جزر بولينيزيا **Polynésie**، ومن إفريقيا إلى آسيا، ما من إمبراطورية أكبر منها اللهم إلا الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس بعلمها الثلاثى الألوان. فى هذا العام، تقابل السيد بافى **Pavie** مكتشف لاوس **Laos**، مع برازا **Brazza** مكتشف الكونغو. كذلك سوف تجتمع، أيضًا، العصبة الصغيرة للصحراويين فى شارع مازارين **Mazarine** . لقد استولت البحرية الفرنسية ، منذ عامين، على بلاد كوشينشين **Cochinechine** حتى إقليم آنام وتونكين **l'Annam , Tonkin**. يقرأ يرسين الوقائع ويجوب الخرائط المُصَوَّرة. ها هم الرجال، هؤلاء لن يعيشوا خاملين فى ماربورج، كان مقتنعًا بصحة اختياره، ينبغى أن يعيش هنا.

ربما للمرة الأخيرة فى تاريخها، ستصبح باريس مدينة حديثة. فقد أنجزت أعمال التجديد التى صممها المهندس الفرنسى هوسمان **Haussman**، ثم التخطيط لمسار المترو." سوف أذهب إلى متحف اللوفر **Louvre**، اليوم، سأرى الآثار المصرية." يقرأ يرسين الصحف فى مقهى بون مارشيه **Le Bon Marché**، عائلة بوسيكو **Boucicaut** صاحبة المحل سوف تُشيد فندق لوتسيا فى الجهة المقابلة للمحل بعد خمسة وعشرين عامًا من إنشائها للمحل. فى أواخر حياته سوف يعتاد على الإقامة فى هذا الفندق لعدة أسابيع من كل عام، بعدما يقطع الكوكب ذهابًا وإيابًا، سيقطن دائمًا فى الغرفة ذاتها والتى تقع فى زاوية الدور السادس. يقع الفندق على بعد بضع مئات الأمتار من عنوان سكنه القديم حين كان طالبًا، كان عبارة عن غرفة فى أعلى عمارة، غرفة لها سقف مائل مُطل على شارع مادام **Madame**، من هنا كان يرسين يُخبر فانى كيف يمكن له أن يلوى عنقه حتى يرى برج كنيسة سان سوبليس **Saint-Suplice**.

فى شارع أولم **Ulm**، كان باستور قد نجح لتوه فى إجراء تطعيم ثانٍ مضاد لسُعَار الكلب، بعدما قام بتطعيم الطفل الصغير الألزاسى **Alsacien** واسمه جوزيف ميستر **Joseph Meister** من قبل ، قام بتطعيم جان باتيست جوبيل **Jean-Baptiste Jupille** الجورانى **Le Jurassien** (الذى يقطن جبال الجورا **Juras** فى فرنسا). وسرعان ما بادرنا بهذا التطعيم فى كل مكان. كان القضاء على هذا المرض حتى هذه الآونة، فى فرنسا كما فى روسيا، مقصورًا على القرى والغابات التى تسكنها الذئاب تحت الثلوج ، وغالبًا ما كان يتم ذلك عن طريق تقييد المسعورين وقتلهم قبل أن يعضوا الآخرين بدورهم. جرت المغامرة الجديدة فى ركن من شارع أولم **Ulm** ، وناحية تلال الرمال الصحراوية أيضًا. إنها الحدود الجديدة لعلم الجراثيم **microbiologie**. يجلس الطالب الأجنبى الذى يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاما وأمامه الجرائد، يعيش على نفقة والدته. ولكنه مثل

كل الرجال لديه لحية قصيرة وسترة غامقة اللون، يتردد على الحانات الحقيرة حيث كان العمال يلقون بأكواب البيرة الواحد تلو الآخر وقد أدركوا أنها قد فرغت. البيرة التى لن يحصل عليها الألمان، وسوف يكون صاحب الحانة غبيًا إذا مَكَّنَهم من البرميل. "لقد كنتُ شاهدًا على معركة عنيفة بين العمال وشخص من أصل ألماني، وأظن أنه قد تحدث بلغته الأم، فكاد أن يُقتل."

فى هذه الآونة، كان صبورًا يتحمل شظف العيش، سجل نفسه فى الدرس الأول لعلم البكتريا **bactériologie** الذى يلقيه البروفسير كورنيل **Cornil**،إنه علم جديد، سوف يختار يرسين، طيلة حياته، كل ما هو جديد وحديث على الإطلاق.

عند باستور، فى بضعة شهور، سيتم التطعيم بقوة، ستة وثمانون تطعيمًا فى شهر يناير: من كل ألف حوالى ستة أشخاص يتوفون، أربعة عضهم ذئب واثنان عضهم كلب. فى شهر يونيو: نحن على وشك الوصول إلى ألفى حالة تطعيم ناجحة، وفشل عشر حالات لا أكثر. يتم نقل جثامين المتوفين إلى مشرحة الجثث المجهولة الهوية فى المستشفى الرئيسي، ويكلف البروفسير كورنيل تلميذه يرسين بتشريح الجثث. نتيجة الفحص بواسطة ميكروسكوب كارل زيس هى نتيجة بلا مُجيب: فحص النخاع الشوكى يؤكد عدم ضرر التطعيم. لقد عانى هؤلاء المتوفون من العلاج المتأخر جدًا لحالاتهم. أعاد يرسين نتائج التشريح إلى مساعد باستور: إميل رو **Emile Roux**. إنه لقاء اليتيمين بأرديتهما البيضاء، فى مشرحة المستشفى، وسط جثامين المصابين بالسعار، وقد انقلبت حياتهما رأسًا على عقب.

يتيم مورج **Morges** ويتيم كونفولين **Confolens** .

قام رو **Roux** بتقديم يرسين لأستاذه باستور. اكتشف الشاب الخجول المكان والرجل، كتب يرسين فى رسالته إلى فانى يقول: " مكتب باستور صغير،

مربع، نوافذه كبيرة. بجوار إحدى النافذتين توجد منضدة عليها أوانٍ زجاجية تحتوى على فيروسات للتطعيم".

وسرعان ما سيستقر يرسين، بالقرب منهما، فى شارع أولم Ulm. كل صباح، يتراص صفٌ طويل من المرضى المصابين بالسعار فى الفناء. يقوم باستور بالفحص، ويقوم رو وجرانشيه Grancher بالتطعيم، أما يرسين فيهيئ المرضى لذلك، ويتقاضى راتبًا زهيدًا فى المقابل. لم يعد مدينًا لأى شخص. لقد وجد كلٌ من يتيم مورج ويتيم كونفولين والدًا لهما فى شخص هذا العَالِم الزاهد الآتى من جورا Jura. بدا لهما الرجل ذو السترة الطويلة السوداء والاسم الإنجيلى Pasteur، وكأنه كاهن يقود رَعيتَه نحو المراعي، والأرواح صوب الخلاص.

أمام أكاديمية العلوم، قدم لويس باستور، وهو مريض ومدير للمدرسة العليا أيضًا، أطروحته. ثمة داعٍ، إذن، لإقامة مُنشأة للتطعيم ضد السعار. وضعت مدينة باريس تحت تصرفه، بصفة مؤقتة، مبنى متهاويًا، قوالب قرميد وألواح خشبية لثلاثة طوابق فى شارع فوكيلين Vauquelin. أقامت العُصبَة فى هذا المبنى بصفة نهائية. إنها بداية حياتهم الجماعية فى فناء الإصطبلات، وِجار الكلب، وقاعة التطعيم. وضعت عصبة الباستوريين - نسبة إلى باستور- يدها على الحجرات فى مختلف طوابق المبنى: رو Roux ، لوارLoir، جرانشيه Grancher ، فيالا Viala، واسيرزوج Wasserzug، ميتشانيكوف Metchnikoff، هافكين Haffkine، يرسين Yersin ، هذا الأخير يبدو نفورًا وهو يقطب الحاجبين عندما نناديه بيرسين Yersine مثل هافكين Hafkine بسبب اللكنة. يغادر منزله كل صباح ليلحق بدروس الطب فى شارع سان بير Saint Pierre. فى الظهيرة، يتناول الغذاء فى مقهى صغير فى شارع جى لوزاك Guy Lussac، اختار موضوعًا لأطروحته: مرض الدفتريا والسل الذى كان يُطلق

عليه فى القصائد الشعرية السل الرئوي. يقوم بفحوصات إكلينيكية فى عيادة مستشفى الأطفال- المرضى، يأخذ عينات من عمق الحناجر المتورمة، مقطعًا من الغشاء، يحاول أن يعزل سُمية الدفتريا ، يقرأ فى المجلات قصص المكتشفين.

تم اعتماد اكتتاب دولى فى بنك فرنسا لصالح لويس باستور. تدفقت الأموال: قيصر روسيا، إمبراطور البرازيل، سلطان إسطنبول أرسلوا مساهماتهم، وأيضًا الناس البسطاء الذين كانت أسماؤهم تنشر كل صباح فى الجريدة الرسمية. يجول باستور العجوز بناظريه بين أسماء اللائحة الطويلة للمساهمين، ويبكى عندما يرى أن جوزيف ميستر قد أرسل له ثلاثة فرنكات. حصلنا على أرض فى الدائرة الخامسة عشرة فى باريس. كل أسبوع رو ويرسين يراقبان الأشغال فى شارع دوتو Duto، ثم يذهبان إلى شارع أولم ليلتقيا بالعصبة الصغيرة فى شقة لويس باستور وزوجته حيث توضع الخطط. لقد أصيب الرجل العجوز ذو السترة السوداء الطويلة مرتين بالسكتة الدماغية، أصبح كلامه عسيرًا، وذراعه اليسرى مشلولة، يجر ساقيه جرًا. رسم رو و يرسين مع المهندس المعمارى سُلما داخليًا للمعهد المقبل بحيث تكون المسافات بين الدرج منخفضة، والدرجات متعددة.

بالنسبة لباستور العجوز، انتهى أمر الاكتشافات، بعده سيكون رو هو المُختار، فهو الأفضل بين أبنائه وهو الوريث الواعد. منذ أكثر من عشرين عامًا، وباستور أشبه بفارس يدعو للحلقة كل من يريد مصارعته، برز حاملو اللقب من هذا الجيل العفوى كالمعجزة. كان يؤكد على أنه ما من شيء يولد من لا شيء، ولكن الله إذن. لماذا إذن كل هذه الجراثيم، ولماذا خفيت علينا طيلة قرونٍ من الزمان؟ لماذا مات الأطفال ولاسيما أطفال الفقراء؟ تشعر فانى بالقلق. باستور مثل داروين. أصل الأنواع والتطور البيولوجي، من الجرثومة حتى الإنسان، كل هذا يناقض النصوص المقدسة. إزاء ذلك يبتسم يرسين ومعه كل العصبة

الصغيرة. وسرعان ما سيصبح كل ذلك واضحًا جدًا، يكفى أن تشرح، أن تعلم، أن تعاود إجراء التجارب. كيف يمكن لهم أن يتخيلوا أنه بعد قرن ونصف سيظل نصف سكان الكرة الأرضية يدافعون دائمًا عن نظرية خلق العالم المستمدة حرفيًا من سفر التكوين؟

خلال هذه السنوات التى تشكلت فيها هذه العصبة الصغيرة من "الباستوريين **Pasteuriens**"، ظلت العصبة الصغيرة للصحراويين تتلاقى فى شارع مازارين **Mazarine**، بينما انطفأت شمعة العصبة الصغيرة للبرناسيين **Parnassiens**. ومع ذلك سيُتاح الوقت للعصابات الثلاث الصغيرة ليتعايشوا معًا فى المدينة نفسها والشوارع نفسها. مازال الشاعر الرقيق بانفيل **Banville** يسكن فى شارع بوسي **Buci**، وقد أعار حجرته لرامبو قبل أن يسكن هذا الأخير مع فيرلين **Verlaine** فى شارع راسين **Racine**، ومنذ رحيل هذا العبقرى نافذ العقل والبصيرة، شارفت عصبة البرناسيين الصغيرة على الانزواء والذبول. وإن ظلت تتردد، كالعادة على معاملها، التى هى عبارة عن حانات وخمارات، حيث تتفاعل فى قعر المقطرة مواد إكسير من نوع آخر، فتتراقص ساحرات متعددة الألوان فى دماغ البرناسيين الذين أصبحوا شاحبى اللون شائخين يشدون بالبيت الشعرى من البحر السكندرى الذى يتردد إلى ما لا نهاية فى الأبيات المزدوجة، أبيات شعرية ما لبثت أن ازدادت، شيئا فشيئًا، وهنًا وشحوبًا. فى اللحظة التى برز فيها الميكروسكوب والسرنجة بوصفها أشياءً حديثة للغاية، انطفأ بريق البحر السكندري، وقُضِيَ عليه بالضربة القاضية بعدما راح الشاعر الشاب يبيع البنادق لملك كوا مينليك الثانى **Choa Menelik II**، الإمبراطور المستقبلى لإثيوبيا.

أما يرسين، فكان يقرأ كل شيء عن العلوم وقصص المكتشفين، يعمل فى هدوء و عزلة، على نحو ساخر، على طريقة من ليس لديه شيء يفعله ، وهكذا

هى الكياسة. فى الليل، يغلى طبخته من الجراثيم ويراقب تفاعلات المواد. كا
هذه المواد التى فى حوزته مدهشة. و أخيرًا، مهارات تطبيقية، يصنع طائرا
ورقية، يفتح عشش الدجاج والفئران، يسحب عينة، ثم يتحقق منها، وبضرب
عبقري، يفحص أرنبًا، وعلى نحو عَمَلى يُشخص مرض السل من نمط جديد
يُسمى **typho-bacillaire** أو **Typhobacillose** عُصية بكتريا التيفوس.

يعود الشاب ذو الرداء الأسود إلى المعمل، يمد يده بالعَيِّنة إلى رو، كمن يُخْرِ
الأرنب الأبيض من القبعة، يمسكه من أذنيه ويضعه على فراشٍ من القش، عث
على شيء. يُعَدّل رو من وضع مقبض الميكروسكوب ما بين الإبهام و الخنصر
يرفع عينيه، يدير رأسه، ليلقي، وهو مقطب الحاجبين، نظرة فاحصة من أسفل
لأعلى على الطالب الخجول. تبدأ عبارة "مرض السل نمط يرسين **Tuberculose**
type Yersin" فى الظهور فى مؤلفات التعليم الطبي، وهكذا سوف يصل اسمُ
إلى الأجيال التالية من الأطباء ومؤرخى الطب. ولكن سرعان ما سيُنْسَى اسمُ
لدى الجمهور العام، بل مازال حتى اليوم غير معروف تمامًا، على الرغم من
الإحاطة الحالية بمرض الطاعون. يسعل الأرنب المسكين المسلول ويبصق
رئتيه، يزفر أنفاسه الأخيرة على فراشه المصنوع من القش. قطراتٌ من الد
الأحمر تلطخ فروته البيضاء. هذا الشهيد المسكين ألهم الشاب المُكتشف مَقال
الأول المنشور فى حوليات معهد باستور **Annales de l'Institut Pasteur**
بتوقيع رو ويرسين، مع أن هذا الأخير لم يكن طبيبًا بعد، بل لم يكن حتى فرنسي
الجنسية.

بعد ثلاث سنوات من وصوله إلى باريس، أنجز يرسين أطروحته وهو في
الخامسة والعشرين من عمره، ناقشها، تلقى وسامًا برونزيًا وضعه فى جيبه
ليهديه إلى فاني. فى الصباح، أُعْلِن عن حصوله على لقب دكتور فى الطب، وفي
المساء استقل القطار المتوجه إلى ألمانيا. طلب منه باستور أن يسجل اسمه

لحضور دروس علم الجراثيم المعملية **microbie technique** وهو العلم الذى ابتكره روبير كوخ **Robert Koch** العَالِم الذى اكتشف بكتريا عصوية الشكل، جرثومة السل **bacille de la tuberculose** فى معهد الصحة فى برلين. يرسين سويسرى الجنسية ومزدوج اللغة. لسنا بعيدين عن الجاسوسية. سوف يهاجم باستور، بعنف شديد فى كتاباته، من أطلق عليه " الكاهن الكبير كوخ **Koch**".

حضر يرسين الأربعة وعشرين درسًا، سوَّد كراساته، ترجم محاضرات كوخ من أجل باستور، رسم خطة للمعمل، كتب تقريرًا، وانتهى إلى أنه ليس من العسير أن نصنع ما هو أفضل فى باريس.

عند عودته، نشر المقال الثانى المُوقع باسم رو ويرسين. **تم تدشين مبنى** معهد باستور المستقبلى فى حفلٍ مهيب بحضور رئيس **الجمهورية سادى كارنو** **Sadi Carnot** وضيوفه من مختلف أنحاء العالم. مازال **يرسين سويسريًا**. القانون يقصر ممارسة مهنة الطب على مواطنى الجمهورية. **اتخذ إجراءات**، أرسل خطابًا إلى فاني. جدوده من الأم فرنسيون، بروتستانتيون **فروا من** الصراعات الدينية، وسرعان ما أُغلِقَ المَلَف، فرنسا تستقبل ابنها الضال.

فى شارع فوكيلان **Vauquelin**، لدى الرجلين ما يشغلهما، علقا معطفيهما الأبيضين على المِشجب فى الرواق. عصرًا، ارتديا سترتيهما. اصطحب رو مساعده إلى الدائرة الخامسة عند ساحة البانتيون **Panthéon** التى تقع على بعد خطوتين من المعمل. وَقَّعَ الرجلان فى السجل. جفف الموظف الحبر بالنشاف وسلمهما الشهادة. ما من وقت حتى للاحتفال بهذه المناسبة السعيدة فى حانة صغيرة كما لو كانا برناسيَين. أخذا الأردية البيضاء من على المشجب، أوقدا سخان البنس فى المختبر، عاودا العمل على البكتيريا. يرسين،الآن، عَالِمٌ فرنسى الجنسية.

المطرود

ولكن ما الحال إذا ما ظل سويسريًا أو أصبح ألمانيًا؟ هذا الرجل العجوز الذى يغفو فى الطائرة، ذو لحية بيضاء وعيون زرقاء وروح ساكنة، ما المصير الذى كان ينتظره إذا ما اختار كوخ بدلاً من باستور للعمل معه؟ وأين كان يمكن لهذا الرجل، البالغ من العمر سبعين عامًا، الحائز على جواز سفر من ألمانيا، أن يوجد اليوم؟ نعلم أن العباقرة، غالبًا، ما يتعرضون للاستغلال والإفساد. نعرف سذاجتهم. هؤلاء لا يؤذون ذبابة، يخترعون فقط - من أجل متعة حل اللغز- أسلحة دمار شامل. كيف سيكون حاله إذا ما كان فى بداية هذه الحرب طبيبًا مُسِنًا على المعاش فى برلين؟ أو كان متزوجًا بألمانية من ماربورج؟ أين سيتواجد أبناؤه وأحفاده اليوم، وبأى لباس عسكري؟

ينبغى أن نكون الآن فوق نهر الرون **Rhône**، نحلق فوق الأرض المزروعة كرمًا وعنبًا أخضر تحت شمس مايو، هل سيعود من تم تعبئتهم للحرب لقِطاف العنب؟ وضع خطير بالنسبة ليرسين الذى أراد دومًا أن يغسل يديه من السياسة. تجاهل التاريخَ و أحداثَه المُقززة، كان يرسين ذا نزعة فردية كما هو حال الغيريين **altruistes** فى الغالب. بعد حين، من كثرة محبة البشر نصبح كارهين للبشر.

لأمرٍ غامض أقوى منه، ينبغى ليرسين، دائمًا، أن يعرف كل شيء. يفتح دفتره، يسأل ملاحى الحوت الأبيض المعدنى الصغير، الطائرة المائية للخطوط الجوية الفرنسية. الباخرة الطائرة التى تقطع الطريق إلى مارسيليا، أُطلِقَ عليها

اسم الـ **LeO** نسبةً لاسم الاثنين اللذين صنعاها : ليوريه وأوليفيه **et Lloré Olivier**، وهى الـ **O H-242**. جسم الطائرة مصنوع من الدورالمين **duralumin anodizé** (مزيج من الألومنيوم والنحاس والمنجنيز ...الخ المؤكسد أكسدة أنودية)، يسجل كل هذا فى دفتره. الدورالمين المؤكسد مادة جديدة. يتساءل يرسين ما الذى يمكن أن يصنعه من جديد بالدورالمين المؤكسد فى آسيا. يجلس الأحد عشر مسافرًا المحيطون به فى مقاعد مريحة ذات مساند عالية، المشروبات الكحولية مُتاحة حسب الرغبة.

وسط هؤلاء الأثرياء الجبناء الفارين، هؤلاء الموسرين المحظوظين، هؤلاء الأنذال الذين يختارون مهابط وصول تصلح لأن تكون مصايف حيث يسترخون ويختبئون هم و أموالهم المدفونة. وسط كل هذا يطرد يرسين أى تشويش يعبث برأسه ويلوذ بدفاتره، يتظاهر بالتركيز. اسمه ووجهه معروفان، هو الوحيد الباقى على قيد الحياة من عصبة الباستوريين. نعرف أنه سيذهب إلى سايجون **Saigon** ، سيصل إلى نهاية الخط بعد ثمانية أيام، ثم عن طريق الباخرة وعبر رحلة تستغرق شهرًا سوف يصل إلى سايجون. كل سفرة تسمح له بأن يجلب صناديق كبيرة زاخرة بالمواد: آنية زجاجية للاختبارات وبذور لحدائقه. مع الحرب سوف تنقطع الاتصالات مرة أخرى، إنها الفوضى التامة بعد عام ١٩١٤.

منذ خمسين عامًا، قرر يرسين أن يغادر أوروبا. قضى فترة الحرب العالمية الأولى فى آسيا ، وتهيأ ليقضى فيها فترة الحرب العالمية الثانية. وحيدًا كما اعتاد أن يعيش دائمًا، أو بالأحرى،اعتاد أن يعيش وسط عصبته الصغيرة فى نهاترانج، فى قرية الصيادين، عصبة يرسين. على مر السنين، كشف المُتَوَحد عن وجهه القيادى للرجال. فقد أنشأ هناك شيئًا أشبه بجماعة أو بصومعة مدنية نائية عن العالم. ولما كان قد نذر نفسه للزهد والعزوبية، وللأخوة أيضًا،

أمكن لجماعته العلمية والزراعية فى نهاترانج أن تكون أشبه بجماعة سيسيليا Cecilia الفوضوية، أو بتجمع إنتاجى إشتراكى على مذهب فورييه Fourier، وهو، بلحيته البيضاء، الراعى الأبوى لها. يرفع يرسين منكبيه إذا ما استحضر الفكرة أمام عينيه مُجسدة، لأنه، هكذا، بقليل من الحظ، و دون أن يرغب فى ذلك حقيقةً، مع انشغاله بكل ما سوى ذلك، أصبح اليوم حائزًا لثروة شبه هائلة.

مرة واحدة فقط، اجتهد ليكون مُنضبطًا ومُمْتثلاً لتقاليد كلية الطب، فهو طبيب شاب وفرنسى شاب وباحث شاب، ومن ثم قال لنفسه إن عليه أيضًا أن يكون زوجًا شابًا. بعد كل شيء، هذا هو حال لويس باستور الذى لم يمنعه الزواج عن العمل. يحب يرسين أن يتناول العشاء فى شارع أولم Ulm فى الشقة الصغيرة التى يقيم فيها الزوجان، كان الرجلان يتبادلان الاحترام والتقدير، رجال أشداء أمناء ذوو عيون زرقاء باردة. هو، أيضًا، سيصبح عجوزًا حكيمًا مُحَاطا بحب زوجته العجوز الحنون. لقد اتخذ فى هذا الاتجاه إجراءات، ووفقًا للنهج العقلانى ذاته الذى اتخذه لإثبات جنسيته، كما هو الحال دائمًا : أرسل خطابًا إلى والدته، رسالة إلى فاني.

هى التى قد عثرت على أجدادٍ له، ومن ثم عثرت، أيضًا، لساعتها على العروس الموعودة: مينا شوارزنباخ Mina Schwarzenbach ، وهى بنت أخت صديقة لها، مينا جميلة، نتخيلها عذراء ذات رداء مزرر حتى الياقة الدانتيل البيضاء، ولكن ربما تحت التنورة السوداء تتأجج النار كل مساء. شرع يرسين فى الكتابة إليها، وهو أمرٌ أصعب من كتابة بحثٍ عن الدفتريا. عدة محاولات انتهت إلى سلة القمامة. عزيزتى مينا... عظَّمَ من شأن الزوجين الوديعين المسنين باستور وحرمه، وتباهى بمناقشات العلماء فى حضرتهما مع بيرو Perrot مدير كلية الدراسات العليا، الذى راح يحكى قصة مهامه الأركيولوجية فى آسيا الصغرى.

يا لها من حماقة، توقعت مينا شوارزنباخ أن تقرأ أبياتًا شعرية عاطفية حارة من البحر السكندرى مُهداة إليها، عاودت قراءة الخطاب مرة أخرى فى المساء. بدا الأمر بالنسبة ليرسين مخيفًا تمامًا، لم يعد يتحدث فى هذا الموضوع قط، وشعر جديًا أن الزوجة التى ستتعلق به سرعان ما ستعرقله، أو أنه سوف يقدم على هذه الخطوة فيما بعد، بعد أن أطوف العالم وأفكر مليًا فى هذا الموضوع .

أما الآن فسوف أذهب لمشاهدة البحر.

فى نورماندى Normandie .

بالنسبة لرو ، تبدو فكرة الذهاب لمشاهدة البحر، عجيبة تمامًا. أطفأ سخان بنسن، جفف يديه فى ردائه الأبيض، رفع ذراعيه إلى السماء. وكأننا نحلم، رؤية البحر. لماذا لا نقضى آخر أيامنا فى قرية الصيادين؟ قال يرسين: فعلاً،... إذن، لنبقَ هنا،. لديه فكرة، النافع للجميل، مستثمرًا الوجاهة البسيطة التى حازها بوصفه أخصائيًا فى مرض السل، استطاع الطبيب الشاب يرسين أن يحصل على توصية من المراقبة الأكاديمية للقيام بمهمة علمية فى منطقة جرانكان Grandcamp فى كلفدوس Calvados . يتمنى أن يفحص الجراثيم فى أفواه الأطفال الذين يعيشون فى أماكن صحية وفى الهواء الطلق، ليقارنها بالجراثيم التى نجدها فى أفواه أطفال المدارس فى باريس. يريد أن يعرف إن كانت السماء الملوثة بدخان المصانع تشكل عاملاً يؤدى إلى تفاقم المرض. راح يشترى دراجة من هذه الدراجات الجديدة ماركة أرمون بيجو Armand Peugeot .

أغلق يرسين حقيبته، غلف ميكروسكوبه واستقل القطار المتجه إلى دياب Dieppe، ركب الدراجة إلى لو هافر Le Harve، استقل المعدية ليصل إلى هونفلور Honfleur ، ثم استقل الدراجة حتى يصل إلى جرانكان. فى الصباح، قام بجولة فى الفصول والأطفال أمامه يفتحون أفواههم عن آخرها. فى المساء يسير على شاطئ البحر، يقابل الصيادين الذين يصطحبونه للإبحار معهم. فى المساء، فى الفندق، يقرأ "صيادو إيسلندا" Pêcheurs d`Islande لبيير لوتى

Pierre Loti، هما الاثنان يشتركان فى الوحدة منذ نعومة أظافرهما، وفى انحدارهما من عائلات بسيطة ونزيهة فى الريف، وفى الديانة البروتستانتية المتزمتة والآباء الغائبين أيضًا، ومثل هؤلاء الأولاد يكبرون فى كنف النساء، يستوعبون بغضًا كامنًا لدى النساء، وميولاً جنسية ملتبسة، وحلمًا لركوب البحار والمحيطات. مع ذلك، تواتيك الأفكار فى روشفور - سور- مير **Rochefort-sur-Mer** وسط عائلة من البحارين، بوتيرة أسرع مما تواتيك فى مورج **Morges** فى كانتون دو فو **Canton de Vaud** .

يرى يرسين البحر لأول مرة فى حياته وهو فى السادسة والعشرين من عمره. يراه مباشرةً و ليس من أعلى ، يتطاير شعره فى الهواء كشاعر برناسي، ولكن يرسين يقف، هنا، على جسر الصياد الجَيَّاب راؤول **Raoul**،الذى تكنسه زخات من ماء البحر، يرتدى يرسين حذاءً لامعًا، ويمضى إلى مصنع الأشرعة الكبير حيث يدور العمل بإتقان.

فى غمرة حماسه، كتب إلى فاني، قارئته الوحيدة، رسالة يعارض فيها بيير لوتى والملاحين مكتشفى الأقوام والشعوب. ذلك أن يرسين إنما يصف عالم الرجال بوصفه عالمًا أخويًا، على نحوٍ يقع فى الوسط بين ما كتبه لوتى وما كتبه فيكتور هوجو **Victor Hugo** فى "عمال البحر" **Trvailleurs de la mer** ، حتى وإن كان يرسين ما زال يجهل تجهيزات الباخرة وعاداتها، مثل أننا لا نشير أبدًا على ظهر الباخرة إلى الحبل، تمامًا كما لا نفعل ذلك فى بيت المشنوق: "فجأةً يقف المركب، نشُد حبل الشبكة حتى يكاد يُقطع، بسرعة نطوى القلوع، لقد صادفنا صخرة ضخمة مزقت عدة أمتار مربعة من الشبكة، وبسرعة أيضًا، نُطلق المراكب الصغيرة ونشد الخيط لسد الثقوب. فقط، حين اقتربت الساعة من السابعة استطعنا أن نعيد للشبكة صلاحيتها من جديد، ولكن سمك التوربو **turbot*** لا يمكن صيده إلا فى النهار؟. فى المساء، نأكل سمك موسى

وهو نوع نادر جدًا، ولكن ينبغى الاقتراب أكثر من الأرض لصيده: يعيش سمك موسى فى عمق البحر الخالى من الصخور والمكسو بالرمال. فى المساء، على ظهر الباخرة، نشوى سمك البربوني، ثم ينام الجميع ، ما عدا رجلين من نوبة الحراسة وأحد المسافرين، على أسرتهم المصنوعة من القماش والمُعَلقة فى السفن". لقراءة هذه الرسائل، تجلس فانى فى الصالون الصغير المُزهِر فى بيتها ذى أشجار التين، تشعر بالخيبة إلى حد ما، شيءٌ ما ليس على ما يرام.

بوصفه يتيمًا صالحًا، لَبَّى يرسين كل رغبات أمه، لقد صار طبيبًا. "ابنى دكتور": هذا ما تقوله الأمهات، ولكنه وصل لما هو أرفع من ذلك، إنه عَالِم. يعمل مع باستور. تقول إنه ذراعها اليمنى. وهذا يكفى الآن. عليه ،إذن، أن يعود إلى مورج ليعيش بجوارها متوجًا كملك، يفتح عيادة على شاطئ البحيرة، ويعلق على بابها لوحة تحمل اسمه. فانى قلقة. تشعر الأمهات بالقلق دائمًا. ثمة شيء فى رأسه ليس على ما يرام. مثلُه مثل أبيه، رأينا النتيجة، هذا الابن نَهِم، ما الذى سوف يخترعه أكثر من ذلك. يريد أن يرحل إلى بلاد البرابرة، كما لو أنه لم يكتف ببلاد الفرنسيين. أعادت قراءة الخطاب الذى تلقته للتو: "لن أكون غاضبًا عند مغادرتى لباريس، لأن المسرح يشعرنى بالملل، والعالم الجميل يفزعني، ليست حياة تلك التى لا حركة فيها".

بعد إقامته فى نورماندى Normandie ، تشابكت كل الأمور كما لو كانت عُقدة بحرية (١ / ١٢ من الميل)، لن يقضى يرسين بقية حياته أمام عينات الاختبار، عيناه مُسلطتان على الميكروسكوب بدلاً من الأفق، يحتاج إلى الهواء،الهدوء والعزلة، ومع ذلك ها هو رو ، الذى – بالتأكيد– يفهم أنواع البكتريا عصوية الشكل أكثر مما يفهم الرجال، يكلف يرسين بإلقاء محاضرات فى علم الجرائيم عند عودته، مُعتقدًا أنه بذلك يُكرِّمه ويحسن إليه صنعًا.

بالنسبة ليرسين، الذى يتبنى منهج سقراط فى المعرفة، ما من شيء يتم تدريسه يستحق أن يُعرف، حتى لو كان الجهل خطيئة. طيلة حياته، ظل مُعلمًا فذًا لنفسه ، لا يُضمر إلا الاحتقار للمعوزين. حسبك أن تعرف كيف تلاحظ، وإذا لم تكن تعرف كيف تلاحظ، فلن تعرف شيئًا البتة. يتعاظم اللا تفاهم بين الزميلين "وهو ما أدى إلى تبادل السباب بينهما لأكثر من ساعتين".

يوبخ يتيمُ كونفولن Confolens يتيمَ مورج Morges ، فى استدعاء للواجب الباستورى "ولكن فى النهاية، بحق الرب، يمكن للآلاف أن يبيعوا أخواتهم حتى يحظوا بمقامك هذا، وأنت يا يرسين... تعوزه الكلمات أمام هذا الشاب الخجول الواعد ذى النظرة الحادة الزرقاء، والذى ينتظره مستقبل مشرق، البحث العلمي، عنده، مَثلُه مثل العزف على الكَمَان. هو مُولع بالفنون، عبقري، حظى بالنعم، بالأذن أو العين المثاليتين، وبالحظ، أيضًا، الذى بدونه تصير الموهبة هباءً. موزار Mozart هو الذى اختار أن يكون حَطَّابًا، كما اختار رامبو Rimbaud أن يكون بائعًا لقهوة الموكا أو لبنادق لياج Liège. أما هذا الشاب يرسين فهو يثير الضجر هو وقصة أسفاره على الدراجة ورحلاته لصيد السمك بشبكة صيد جيبية" يقول رو Roux لنفسه، إنه ربما راهن عليه رهانًا خاسرًا، وإن يرسين أصبح وهمًا كالنجم المُذنب، وإنه فى السادسة والعشرين من عمره، مثله مثل علماء الرياضيات والشعراء أحيانًا ، قد خبا نوره وانطفأ بالفعل.

برج حديدى هائل وسط العالم

ومع ذلك، أحرزت المحاضرات نجاحًا، يقول يرسين الكلمات الضرورية، أما الباقي، فيُفترض أن الطالب يعرف كيفية ملاحظته. كل شخص، أمامه مُساعد، له سمت الحاوى أو النادل الذى يقدم صينية من الزنك ويرفع إناء زجاجيا، بعدها نعالج باليد المغطاة بالقفازات قارضًا من القوارض التى ماتت من جراء أحد الأمراض المعدية التى تضمنها المنهج. تخترق الحقنة الفرو، نبسط قطرات الدم الملوث على الرقائق المجْهَرية التى توضع تحت الميكروسكوب .

جهز رو المحاضرتين الأوليتين فى علم الجراثيم، وتكفل يرسين بالمحاضرتين التاليتين. ذاع الخبر فى المجلات الطبية وجرائد العالم كله لعدة شهور. إنه العهد الجديد للكابل البحرى : مجموعة الأسلاك تحت البحر. يستعين الأطباء بسُلَّم فى فتحة البواخر، يركبون البحر للوصول إلى موانئ المحيط الأطلسى : بوردو **Bordeaux**، سانت نازار **Saint-Nazaire** ، وشيربورج **Cherbourg**. من هذه المحطات البحرية سوف يستقلان القطار إلى باريس. تتزامن هذه المحاضرات الصيفية مع المعرض العالمى والذكرى المئوية للثورة الفرنسية التى كانت ذروة عصر الأنوار.

أصبحت باريس عاصمة عالمية للطب، فى قلبها يقع معهد باستور الجديد ، الذى شُيد لتوه بالقرميد الأحمر، وأصبح منارةً للتقدم. كل شيء جديد، الأرضية الخشبية المصقولة اللامعة، الخزف المتلألئ ممسحة للأحذية، حجر صوان

لواجهة المبنى من طراز لويس الثالث عشر. بعد ذلك، فكرنا فى إنشاء معاهد باستور فى الخارج، وإطلاق حملات للتطعيم الوقائى والعلاجي. أمام يرسين، فى الساحة الكبرى المنيرة بواسطة النوافذ الزجاجية العالية، اجتمع أطباء المستشفى الفرنسيون ومعهم أيضًا طبيب بلجيكى وسويدى وكوبى وثلاثة أطباء روس، وثلاثة مكسيكيين، وطبيب هولندي، وثلاثة إيطاليين، وطبيب إنجليزي، وروماني، ومصري، وأمريكي. فإذا ما أحصيناهم عددًا : اثنتا عشرة جنسية، ما من ألمانى واحد، وهذا لا ينبئ بخير.

نلمح، أحيانًا، فى الفناء المُغَطى بالحصى والمزروع بشجر الكستناء، العجوز المفلوج ذا السترة الطويلة السوداء والبابيون، مثله مثل أسطورة حية، يتبوأ مقعدًا على الشمس. نحاول أن نلتقط صورًا معه، لنعلقها بجوار الشهادة المَمْنُوحة من باستور فى باحة الانتظار. كل هذا كان بالنسبة ليرسين مصدرًا للألم "كل هذا مُمل جدًا ويستغرق وقتًا مهولاً. فى محاضرتى الأولى، كان السيد باستور حاضرًا هو والسيد شامبرلان **Chamberland** وأناس آخرون كثيرون ذوو هيبة، ولكن السيد باستور كان، فيما يبدو، مسرورًا".

بعد المحاضرات، ذهب الشاب ليسير وحده على شاطئ نهر السين **Seine**، بلحيته السوداء وعيونه الزرقاء. فى الربيع، ظهر للتو إصداره الثالث المنشور عن مرض الدفتريا. لم تغرب عبقرية يرسين، و لم يخبُ نوره. كان أول من سكن المعهد، اختار أجمل الحجرات فى الزاوية، حجرة يشع فيها الضوء، فهو يحب رغد العيش كلما أمكن ذلك. رمى فرن التجفيف وأجهزة التعقيم وتسلم بعد التدقيق واردات الأوانى الزجاجية. فى هذا الصيف، تم تدشين تمثال لدانتون **Danton** فى ميدان أوديون **Odeon** بمناسبة الاحتفال المئوى بالثورة الفرنسية. فى شانِ دو مارس **Champ-de-Mars** ، وعلى طول كيه دورسيه **Quai d`Orsay**، أُقيم معرضٌ لتطورات العلوم والتكنيك، وها هى الحضارة

المرموقة لفرنسا تبسط أجنحة عبقريتها البيضاء الهائلة على العالم. فى ساحة ليزانفاليد Les Invalides ، قام وزراء الحرب والمستعمرات بتمويل إعادة بناء قرى السنغال و قرى تاهيتى Tahiti، وتونس وكامبوديا، وذلك لأنه قد تم ترحيل أهلها منها من أجل تأسيسها على النحو الذى يؤهل هذه البقاع النائية لتكون حدودًا للإمبراطورية. كان يُرَاد لمشروع إعادة التأسيس هذا أن يكون عموميًا وأن يبرهن على نزعة قومية كبرى. إنه التناقض الدائم الكامن فى النزعة العالمية الفرنسية ، كما يرى السويسري، وهو ما يكشف عنه فى قوله المُعْلَن: تبدو هذه الأيديولوجية الفرنسية دوما، عند هذه النقطة، مثيرة لفضول الأجانب، حيث تبرهن تمامًا، من خلال هذا المسلك نفسه، على أنها ليست عالمية إلى هذا الحدّ.

فى معرض الآلات ، يفتح يرسين دفتره، كل ما فى المعرض، شأنه شأن علوم الطب، يأسره: المناجم وصناعة استخراج المعادن وتنقيتها، الأجهزة الآلية، ملء قنانى المياه المعدنية، العبقرية المدنية والأشغال العامة. هذا الفضول هو ما يشكل مفهوم الدراسة لدى يرسين، حسبك فى الدراسة أن تلاحظ، ويرسين كثير الملاحظة. مؤخرًا، سوف يعتنى بالآلات كما لو كانت طائرات ورقية، سوف يفككها ويركبها ويحسِّنها، ودائمًا ما تكون هذه الطريقة أفضل من قراءة كُتَيب إرشادات التشغيل. العصر هو عصر التصميم على التفاؤل، عصر جوستاف إيفل Gustave Eiffel وجول فيرن Jules Verne أيضًا. كانت أول رواية له باريس فى القرن العشرين Paris au XXéme siècle. بمثابة إدانة للتقدم، رواية تتنبأ بقرب يوم القيامة، سوف يتم تدمير الفن والأدب وتحقيرهما من قبل العلم والتكنيك. فشل تام ، كُنْ أكثر إيجابية، هذه هى النصيحة التى يقدمها له هيرتزيل Hertzel الخبيث ، لقد انتهى عصر الرومانسية السوداء. تغنوا بالعلم والآلات. جول فيرى Jules Ferry والتعليم العام. خرافة الديكارتية العقلانية

carténisme. إنه الرابع عشر من شهر يوليو العيد المئوى للثورة الفرنسية. بعد قرن من اقتحام سجن الباستيل Bastille، وإضاءة سماء باريس بالطلقات المدفعية. يستقل الفرنسيون البارزون المصعد، يصعدون لتأمل باريس من أعلى البرج العظيم المصنوع من الحديد لافتتاحه والتصفيق للألعاب النارية.

يعود أطباء العالم إلى بلادهم ، صوب السهول أو الأدغال، وهم يحملون برج إيفل صغيرًا مصنوعًا من النحاس وصورة مهداة من باستور Pasteur ، وربما، أيضاً، رابطة ساق، كذكرى من ملهى المولان روج Moulin –Rouge أو الفولى بيرجير Folies - Bergére. أغلق يرسين دفتره: "أنهيتُ محاضرتي بالأمس بزفرة طويلة معبرة عن الرضا. بعدها يمكن للطلاب أن يتقدموا ليرتبوا أوانيهم المعملية، ومن ثم يصبح المعمل هادئًا تمامًا". تسلم باستور نيابة عنه وسام السعفة الأكاديمية ، غير أنه لم يأبه بهذا الوسام الفخري، دسه فى جيبه ليهديه إلى فاني.

لن يوجد فى العالم بأسره معاهد كوخ. ما من جولة كبرى بالقطار إلى برلين ولا صوب أى معرض عالمي. بيسمارك مشوش بسبب إخفاقات جولاته الإفريقية. يزداد الحنق درجة تحت الخوذات المزودة بالكاد بمنفس، حتى إننا نتساءل إذا ما كان يجدينا عناءً أننا كسبنا الحرب ونجحنا فى أسر إمبراطور هؤلاء المتمردين فى مدينة سيدان Sedan ، لأن بين باريس وبرلين ، فى مكان ما بين باستور وكوخ ، توجد مدينة سيدان.

عند عودته إلى مورج، فى نهاية الصيف أصبح يرسين بطلاً قوميًا، ليس فقط لإنجازاته فى مجال السل والدفتريا – وهى موضوعات لا نتحدث عنها على، كما تقول فانى للفتيات الصغيرات، إلا بمناسبة حضورنا افتتاحين باريسيين المساندة، نالا شهرة واسعة فى سويسرا الروماندية Swisse romande

(مقاطعة فى سويسرا يتكلمون فيها الفرنسية)، وهما افتتاح معهد باستور وافتتاح المعرض العالمي. تدعو فانى الصحفيين إلى منزلها الذى يقع وسط أشجار التين على شاطئ البحيرة. نتناول الشاى فى الصالون الصغير المزهر. على الحائط نوط برونزى وأوسمة، تنتهز فانى الفرصة لإلقاء درس على مسامع الشابات عن كيفية صيانة المنزل، و على سبيل الثرثرة، يتحدث يرسين عن قرى العالم كله، عن الآلات، وعن المطاعم الأربعة المُعَلقة: مطعمٌ فى كل طابق محاطٌ بعوارض تم تثبيتها بالمِحزقة، وعن أنه قد صعد إلى الدور الثالث من البرج الحديدى السامق مقابل خمسة فرنكات. ماذا عن الموضة؟ هل أحضر كُتَيبات عنها؟ وضع يرسين فنجانه على المفرش الصغير المُطرَّز، واستطرد بصوتٍ هادئ غامض قائلاً:

– ثم شاهدت، خاصةً، البحر.

رفعت فانى منكبيها .

– البحر.

طبيب الباخرة

يجب على باستور ورو أن يرضخا للأمر الواقع، فهما لن يقيدا يرسين في سريره، من الأفضل الوصول إلى حل مُرْضٍ والاحتفاظ بالباحث المفعم بالحماسة في قلب البيت الباستوري مع استمتاعه بالبراح، حتى تمر فترة الشباب، ثم إنه في يوم ما، سوف يصبح مثل عوليس **Ulysse**. يُملي باستور خطاب التوصية: "أقرُّ أنا مدير معهد باستور، عضو المعهد، والحاصل على وسام جوقة الشرف، بأن الدكتور يرسين (ألكسندر) يشغل وظيفة مساعد باحث في معمل الكيمياء الفسيولوجية في مدرسة الدراسات العليا، ثم في معهد باستور منذ شهر يوليو ١٨٨٦ حتى يومنا هذا. ويسعدني أن أؤكد أن السيد يرسين كان دائمًا ما ينجز مهام وظيفته بحماس بالغ، وأنه قد نشر، أثناء إقامته في معملي، عدة تجارب لاقت قبولاً إيجابيًا من قبل العلماء المختصين". هذا الخطاب مُوجه إلى هيئة النقل البحري في بوردو **Bordeaux**، ومرفق به استمارة ترشيح يرسين لوظيفة طبيب بحري.

جاءت إجابة الهيئة حارة وتلقائية، ومع إمكانية إعادة توزيع الأطباء، نطرح عليه أن يختار الإقليم الذي يناسبه من أقاليم العالم. يختار يرسين آسيا. تنوي الهيئة أن تستغل توظيفه هناك كعلامة تجارية لها.

– هل تعلم يا صديقي العزيز، أنه أثناء هذه الرحلة البحرية فحصني أحد هؤلاء الشباب الباستوريين، وكنا نتحدث عن هذا الشيخ العزيز باستور؟....

في غضون عدة أسابيع، تردد يرسين من جديد على مستشفيات باريس حتى يهيئ نفسه، فلا يترك شيئًا للصدفة، وليكتسب مهارات كان قد أهملها حتى ذلك الحين، مثل الأمراض الجلدية، الجراحات الصغيرة، وطب العيون. راح يشترى عُدة الطبيب العام، وحقيبة مصنوعة من غصون الصفصاف ليحشر فيها كتبه وميكروسكوب كارل زيس **Carl Zeiss**، زوج عدسات البحارة وكل لوازم التصوير، سطلاً خشبيًا، مُكَبِّر للصور، قوارير تحوى منتجات كاشفة ومثبتة للصورة. استقل القطار المتجه إلى مارسيليا **Marseille** حيث تمتد المتاريس القديمة بطول أرصفة المحطة.

محاضرات الجراثيم سيتولاها هافكين **Haffkin**، الذى ظل حتى هذه الآونة أمينًا لمكتبة المعهد، وهو يتيم آخر أوكرانى يهودي، تبنته عصبة الباستوريين. سوف نقابله مرة أخرى فى بومباى حيث سيكون مثيرًا للجدل الذى يروق للمجتمع العلمي. جلس يرسين فى القطار المُتجه إلى مارسليا. كان قد أمضى، للتو، خمس سنوات فى باريس، سوف يعاود زيارتها من حين لآخر، ولكنه لن يقيم أبدًا فى هذه المدينة من بعد.

فــى مارسيليا

المجال الجوى ليس آمنًا، فى هذا اليوم الأخير من شهر مايو من عام أربعين، بعد الظهر، كانت قاذفات القنابل الألمانية تحلق مُسرعةً فى مجال أعلى من الحوت الأبيض الصغير، متباهيةً باستعراض انقضاضى و صفارات مُدَوية، قبل أن تستدير لتحلق فوق البحر المتوسط عائدةً إلى قاعدتها الجوية. هنا بعد أربع سنوات من نهاية الحرب، فى السماء الزرقاء لشهر يوليو، سوف يختفى سانت إجزوبيري **Saint Exupery** وهو يقود طائرته من طراز **Lightning**، كان هو، أيضًا ، من المترددين على فندق لوتسيا... وآخر الباقين من العصبة فى ميرموز **Mermoz**.

يرسم الحوت الأبيض الصغير قوسًا قبل أن يرسو على بركة بير **Berre**. تهز العوامة ذات الأجنحة سطح الماء وترفع صوب السماء باقات من الزَّبَد المُتَلألئ، تترجرج حجرة الطيار ثم تستقر، ترسو على الجسر العائم. ثمة أنباء غير سعيدة. فى باريس، المطار مغلق، طائرة من طراز لوفتواف **Lufftwaff** تحلق فوق الطرق والكباري. يشعر طاقم الطائرة بالقلق، نتحدث عن المعتقلات المُحصنة. سوف يغادر بعض الملاحين عند نهاية الخط، أكثرهم شجاعة سوف يصبحون طيارى مطاردة، حتى يلتحقوا بالفرق المناظرة لهم فى الجزائر أو برازافيل **Brazzaville**. بعد التزود بالوقود، سوف تقلع الطائرة صوب كورفو **Corfou** وهى المحطة الأقرب فى الطريق إلى آسيا. يحلق الحوت الأبيض

الصغير فوق ميناء مارسيليا عند الغروب. أسفل أجنحة الطائرة، يرى يرسين السفن على أرصفة الميناء وكأنها أسماك كبيرة. منذ خمسين عامًا مضت، يومًا بعد يوم تقريبًا، ظل يمشى بطول هذه الأرصفة الحاجزة فى الميناء هنالك، و منها أبحر يرسين على الباخرة أوكسوس **Oxus** .

لم نستطع بعد أن نتخيل فى هذا العام التسعيني، وبعد أربع وعشرين سنة من نشوب هذا الصراع وانفجاره، أننا سوف نطلق عليه اسم "الحرب الكبرى"، وأننا سرعان ما سنطلق عليه "الحرب العالمية"، ومنذ بضعة أيام، سميناه بالحرب العالمية الأولى. كما أننا لم نستطع أن نتصور قط، أيضًا، تحليق طائرات. إنه اختراع مدهش يسمح باختزال المسافات و قصف الشعوب. قبل الحرب العالمية الأولى، تردد يرسين فى شراء طائرة. تقدم إلى مطار شارتر **Chartres**، بصفة خاصة، ليقوم برحلته الجوية الأولى ويتفاوض بشأن الأسعار، مستهدفًا محطة الهبوط فى نهاترانج **Nha Trang**، ولكنه تخلى عن الفكرة فى نهاية الأمر، غالبًا ما يكون مزاجه هكذا، متنقلاً من فكرة لأخرى. لن يكون بحارًا لأمدٍ طويل.

بينما كان كليمان آدير **Clement Ader** يحلق بأول طائرة فى العالم ويبدع الكلمة، كان يرسين يهبط من القطار القادم من باريس إلى محطة سان شارل **Saint Charles**. فى السابعة والعشرين من عمره، يسير من شارع كانوبيار **Canebière** حتى الميناء القديم الفيو بور **Vieux Port** ليرى البحر للمرة الثانية. المياه هنا أكثر صفاءً وزُرقةً مما هى عليه فى دياب **Dieppe** والأمواج أكثر لينًا ونعومة. يتجول فى ميناء مارسيليا، باب العالم الرحب، وهذا ليس أمرًا يسيرًا. منذ خمسة عشر عامًا مضت، بدأ كونراد **Conrad** هنا مهنته كبحار. ومنذ عشر سنوات مضت أبحر رامبو **Rimbaud** صوب البحر الأحمر والجزيرة العربية، كما غادر برازا **Brazza** إلى الكونغو منذ عدة أشهر. يدفع يرسين

للحَمَّال الذى يقلُّ حقيبته المصنوعة من السعف حيث حشر حافظة أدواته الطبية والميكروسكوب وعدسات البَحَّار وغيرها من المواد اللازمة للتصوير. صعد يرسين على سفينة أوكسوس **Oxus** المتجهة إلى الشرق الأقصى. زودناه بالإرشادات الخاصة بالرحلة على متنها.

على كل باخرة إرساليات بحرية. يتم الإعلان عن الفحص الطبى اليومى بواسطة جرس، لا يتلقى الطبيب أوامر إلا من قبطان الباخرة ويشاطره مائدته عند تناول الغذاء، وهو من يدير الصيدلية ويجدد مخزونها عند كل محطة إرساء للباخرة. ويُناط به، كذلك، مراقبة المطابخ ونظافتها وطزاجة المواد الغذائية. يقوم بخدمة الطبيب مُمرضٌ، يفتح له مقصورته المصنوعة من النحاس والخشب اللامع فى الدرجة الأولى، يُعِينُه على ارتداء زيِّه الأبيض ذى الشرائط الخمسة الذهبية ، يُسوى ثناياها أمام المرآة. يرسين يُحب النظام والرفاهية، لأن الرفاهية هى الهدوء، و لكن الأسوأ فى هذه المأساة التى تجرى كل يوم هو الإزعاج، الذى لا تستطيع معه أن تبقى وحدك أبدًا.

تُقل الباخرة عدة مئات من المسافرين، هذه المرة تُقل، أيضًا، فى قعر الباخرة، دفعةً من الجنود المُرَحَّلين إلى حامية الجند فى تونكين **Tonkin**، والتى تخضع للوصاية الفرنسية منذ سبع سنوات. فى المقام الثاني، يأتى الرهبان البندكتيون **Bénédictins** الكاثوليك وراهبات المحبة اللاتى يناديهن الربُّ فى الصين. تتكون الحصة المعتادة، فى الذهاب فقط، من الرءوس المحترقة، أى من المحتالين، المستثمرين المفلسين، من القوادين وأبناء كبرى العائلات، الذين يذهبون إلى هناك ليروا ما إذا كانت حياتهم سوف تكون محتملة أكثر فى المستعمرات. على الرصيف، يضع يرسين من جديد يدًا على جبهته ليقى وجهه من أشعة الأسطح الهائلة العاكسة للضوء. حواف الباخرة الحديدية العالية المثبتة على الرصيف بواسطة حبال ضخمة، يبلغ طولُها مائة وخمسة وعشرين مترًا.

يُشعل الملاحون المراجلَ ويرفعون ضغط البخار، يجلس الضباط البحريون، الهابطون إلى الأرض للأمسية الأخيرة، فى الشرفات المُشمسة. على مرابط الباخرة، بعيدًا وعلى انفراد، يقف شابٌ لامعٌ فى زيِّه الأبيض بشرائطه الخمسة الذهبية، مستنشقًا ملء رئتيه هواءَ الفضاء والمغامرة. شابٌ أنيقٌ جدًا قد تدعوه إحدى المازحات، بلا شك، إلى حجرة السلم حتى يكتشف آفاقًا أخرى لم يألفها من قبل. يتساءل يرسين إذا ما كانت مينا شوارزينباخ **Mina Schwarzenbach** يمكن لها أن تتخيل كل هذا أصلاً.

فــى البحــر

مناديل بيضاء ترفرف بين أيادى بعض الزوجات المهجورات المثقلات بالصبية والأولاد. نحاسيات الإيقاع وأناشيد الكورال فى وداع المبشرين. تبتعد الباخرة الكبيرة - ذات الرايات الملونة الممتدة من مقدمة الباخرة حتى مؤخرتها- عن الرصيف وتدور فى الرسوّ. للمرة الأولى يعرف يرسين المعنى البحرى لكلمتى الإقلاع والتوغل فى البحر.

نصل إلى عرض البحر عند نهاية العصاري. بدت كنيسة نوتردام وكأنها تتصاغر خلف آثار سير الباخرة. تُضفى أضواءُ المساء لونًا ورديًا على جسم الباخرة التى تتهادى متسكعة، ويخيم اللون الأصفر على ريش طيور النورس، يستعيد الهواء عنفوانه، يغضب البحر، يلوذ المسافرون بقاعات الاستقبال، لعبة الدومينو فى المقدمة ولعبة الورق بيلوت **Belot** ما بين السطحين. يستغرق الإبحار من مارسيليا إلى سايجون ثلاثين يومًا.

أول مَرسى للباخرة فى ميسين **Messine** ثم كريت **Crète**. حتى هذه الآونة، نحن بصدد الإبحار بين مرفأين فى بحر واحد، ولكننا، أخيرًا، نشرع فى اجتياز جنوب البحر الأبيض المتوسط صوب الإسكندرية، حيث توفى منذ سبع سنوات مضت الشاب الباستورى توييه **Thuillier** أثناء دراسته لوباء الكوليرا. يُؤمِّن يرسين مكتبته الصغيرة الضامة للكتب الطبية ومعجم اللغة الإنجليزية فى مقصورته من خلال وضعها فى صناديق شحن خشبية براقة الطلاء. يفتح

يرسين دفتره، يكتب رسائل لفاني. ذات صباح، من على الطبقة العليا للسفينة، راح يراقب اقتراب الرمال الذهبية والنخيل الذاوي، وسرعان ما ميَّز أول مئذنة ثم أول جمل: هكذا استطاع كما فعل فلوبير **Flaubert** فى مصر و"أن يملأ ناظريه بالألوان، مثل حمار أُتْرع بالشوفان"

تمضى الباخرة أوكسوس فى لعبة الأهوسة. لما وصل يرسين إلى قناة السويس فى ربيع عام ١٨٩٠، كان المكتشف الإنجليزى هنرى ستانلى **Henry Stanly**– بطل مؤتمر برلين الذى عُقد منذ خمس سنوات مضت، و هوالرجل الذى عثر على ليفنجستون **Livingston** وعبر إفريقيا من أقصاها إلى أقصاها– محبوسًا منذ ثلاثة أشهر فى فيلا فى القاهرة، يكتب قصة رحلته الاستكشافية من عند خط الاستواء بحثًا عن أمين باشا و حتى عودته عبر زنجبار **Zanzibar**، ووضع عنوانًا لهذه القصة "فى غياهب إفريقيا" **Dans les ténèbres de l`Afrique**.

ملايين الكيلومترات فى الجنوب، برازا **Brazza** وكونراد **Conrad**، كلٌ على متن باخرة تبحر صوب أعالى نهر الكونغو. أما القبطان الإنجليزى، الذى كان بولنديًا قبل أن يصبح مارسيليًا فرنسيا، فسوف يكتب أحداث رواية فى قلب الظلمات **Au Coeur des ténèbres**، تقع عند أقصى شمال النهر، وتحديدًا عند شلالات ستانلى **Stanley Falls**. منذ ثلاث سنوات مضت، من مدينة القاهرة، كتب أرثر رامبو **Arthur Rimbaud** المارق من عصبة البرناسيين، والذى انعزل هو وخادمه جامى وداى **Djami Wadaï** فى حجرة فى فندق أوروبا، كتب إلى أخته يقول: "مصر ليست سوى محطة، ربما أذهب إلى زنجبار، حيث نستطيع أن نقوم بأسفار طويلة فى إفريقيا، وربما فى الصين ، اليابان ، من يعلم إلى أين سنذهب؟" .

عند مخارج الضفاف الرتيبة للقناة، تلقى الباخرة بشحومها اللزجة فى المياه الملساء الشفافة للبحر الأحمر. هنا نكتشف الحرارة الرهيبة، المعدن الساخن تحت الشمس البيضاء، جبال اليمن الأرجوانية، وفى المساء، تلوح بعض المنارات عند الاقتراب من عدن. نخرج ليلاً على الجسر بحثًا عن طراوة نسائم الجو العليل تحت النجوم المُشعة. امتلأ دفتر يرسين بالعبارات التى نقرؤها عند لورى Lowry فى كتابه Ultramarine أعالى البحار : "نرى كتلاً صخرية ضخمة معتمة تنفصل عن الشاطئ. تنيرها، على نحو شاحب، عدة مشاعل بلهيبها الأحمر. من هذا الطيف الذى يقطره البخار يتصاعد إيقاع أغنية مؤلفة من عدة أنغام موسيقية. هاهم الفحامون يتقدمون ليملئوا مخزن الفحم فى الباخرة أوكسوس". ختم رسالته إلى فاني: "كم نشعر أننا بعيدون عن أوروبا!".

ارتدى الجنود "الشورت" الخاص بالمستعمرين، يغطون الرأس بقبعات ريفية، يمارسون رياضة الصباح ويصطفون للعرض العسكرى على المرسَى. بعد ثلاثة أيام سيبدأ رحيل الباخرة إلى المرحلة الأطول. سوف نرفع الهلب لتهبط بطيئة فى المحيط الهندي، مقدمة الباخرة فى اتجاهها نحو الجنوب فى اتجاه كولمبو Colombo. عنابر الفحم مملوءة بالماء النقى والفحم. المخازن زاخرة بكل ما لم يُنْتَج بعد فى سايجون Saigon: آلات ، أسلحة إطلاق النار، فساتين سهرة، مئة لتر من الخمر الخفيفة والبستيس المشروب المعطر بالينسون، وماكينات مكعبات الثلج. مُثقلاً بكل هذا الخليط، تحت الدخان الأسود للمدفأة، يطفو جسمُ الباخرة الذى يزن ثلاثة آلاف وثمانمائة طن. على سطح المياه الخضراء، أحيانًا، ينهمر المطر شديدًا، ولكنه لا يمكث إلا قليلا. وسرعان ما تعيد الشمس للخشب المبلول بريقَه من جديد.

نعبر خط الاستواء، ومن بعيد نرى جزيرة بِكْرًا وسط لاشيء، ذؤابتُها ثمار جوز الهند، وها هو الزمن الذى كان يضوى فيه شِعْرُ بودلير على وزن

البحر السكندرى Alexandrin ويشع فى الأذهان. جزيرة خاملة، تهبها الطبيعةُ أشجارًا فريدة وثمارًا حلوة المذاق. لقد قَدَّر يرسين المسافات ووظيفته: مئات الأمتار من الجسور، عدة كيلومترات من الممرات والسلالم، وعدد رنات الجرس النحاسى المُنَبِهَة لموعد الفحوصات وقت العصر. أما بارنابوس Barnabooth المُتأنق فى زيه الأبيض، فهو حريص، صباحًا، على حضور تقرير ضباط صف بحرى فى مطعم البحارة.

فى المساء، يعاود قراءة كتبه الطبية، يدرس الإنجليزية. بعض البريطانيين الذين يلتقيهم فى قاعة الاستقبال هم أول من يهبطون من الباخرة فى محطة الهند أو سنغافورة Singapour، يعودون إلى مزارعهم فى ماليزيا Malaisie أو سيام Siam. لقد أخذ من الإنجليز عادة صياغة النعوت من الحروف الأولى للأسماء. فى هذا العام اخترعنا على الخطوط البحرية كلمة "بوش Posh" ومعناها على وجه التقريب (محترفو السفر) والكلمة مشتقة من: " Starboard Port out home," و"bâbord ذهاب" و"tribord عودة"، فمن باب الأناقة واحتراف السفر أن تغير مكان الحجز فى الباخرة حسب اتجاهها، حتى تتمكن، دومًا، من الاستمتاع بنافذة الباخرة فى الذهاب والإياب، وبالمناظر التى تتغير على الجانبين ، فى حين أن الآخرين الذين لا يحملون لقب بوش Posh ، لم يتخذوا كل أهبتهم للرحلة، ولا يرون إلا مياه البحر.

أثناء نزهاته ما بين قاعة الاستقبال ومقصورته، وصلت الباخرة إلى بحار الجنوب. شاهدنا الغابة فى سيلان Ceylan، والأمطار الحارة تتساقط على الأوراق العريضة الزمردية اللون. فى الطريق إلى سنغافورة Singapour، سوف نرى المستعمرين القدامى، مساءً، فى قاعة الاستقبال، أمامهم شراب الأبسنت absinthe يحتسونه، يحكون ليرسين حكاية مايرنا Mayrena وهو الملك مارى الأول Marie 1er، فارس تركى قديم من فيلق حملة عسكرية قد

تحول إلى مغامر هارب فى الغابات ، اقتطع لنفسه مملكة لانعرف كثيرًا أين هى، كل ما نعرفه أنها منطقة ما فى آنام Annam، ثم توَّج نفسه ملكًا على سيدان Sedangs المدينة الفرنسية قبل أن يطرده الفرنسيون. ويُقال إنه يعيش اليوم مُنعَزِلاً فى جزيرة تيومان Tioman وسط بلاطه المتهاوى وحراسه المحاربين الذين جعل منهم نبلاء، وملهاه الزاخر بالراقصات الشائخات المتبرجات المتزينات بورود جُلبت من بروكسل Bruxelles فى عصر ازدهارها. بعد سنغافورة Singapour، سلكت الباخرة طريقًا نحو الشمال الشرقي، بموازاة خليج سيام Siam، وفى عرض البحر وصلت إلى بانكوك Bangkok، ثم دارت حول دلتا ميكونج Mékong لتصل، عند أقصى الشمال، إلى لسان البحر فى سان جاكSaint Jacques .

تمضى الباخرة ، بحوافها العالية، فى نهر سايجون Saigon، سامقةً فوق الأمواج العالية، حتى تبدو السماء منخفضة ثقيلة، بعقدتين أوثلاث. تبدو مسيرة الباخرة أشبه بمسيرة إنسان يتحاشى الإطاحة بالسفن الخيزرانية والزوارق الصينية والأكواخ القائمة على أوتاد فوق سطح الماء و مصايد السمك المُقامة على الشواطئ وسط شجيرات الشَوْرى. يتكئ المهاجرون الذين يتسمون بالفضول والقلق، على دَرْبَزين الباخرة. ملابسهم مُلطخة بالزِّفت، يرقبون طيور الغاق التى تحلق فى السماء ثم تدنو لتلتقط طعامها وهى تغطس فى رغوة البحر البُنِّيَة المُنتَفِشَة بأغصان الأسل العشبية. نتساءل إذا ما كنا، فى النهاية، سنجد الثروة هنا، أم سنفنى حيواتنا فى حقول الأُرز المغمورة بالمياه. يرى واحدٌ منهم، ربما أكثرهم ثقافة، بما أنه قارئ لأعمال فولتير Voltaire، أننا نرحل إلى المستعمرات مثلما نتطوع فى الجندية، بسبب عذابات الحب أو الإخفاق فى الحصول على شهادة الأستاذية. يتساءل: لماذا سفينة "أكسوس Oxus"، لماذا أطْلِقَ على الباخرة اسم بلاد ما وراء النهر Transoxiane التى صبغها جنكيز خان بدماء الفرس و ملأها بالرءوس المقطوعة؟

"شيئًا فشيئًا نرى النخيل ناميًا، ونلمح الغابات الصغيرة لشجيرات جوز الهند حيث تلهو القرود. وأخيرًا، ها هى بعض المراعى الشاسعة تلوح فى الأفق. نصل أمام المنازل الأوروبية. تطلق الباخرة أُكسوس طلقة مدفع، تلقى بالهلب: "لقد وصلنا" . من بعيد نرى المستودعات، مخازن الفحم والقطن، مصفوفة براميل. تحتل المركبات الرصيف، تتبختر الحناطير المكشوفة التى تجرها الخيول الصغيرة التى جُلِبَت من بلاد آنام. يصطف الجنود فى طوابير، يتوجهون، اثنين اثنين، صوب ثكنة مؤقتة قبل أن يتوجهوا إلى تونكين على حدود الصين الشمالية. من جهة أخرى، سيمضى الآباء والأخوات الراهبات إلى شارع كاتينا **Catinat** الذى يصعد يمينًا من عند النهر وحتى ساحة فرنسيس جارنييه **Francis-Garnier** التى يعلوها جرسان جديدان لكنيسة نوتر دام **Notre-Dame** ومكتب البريد الجديد جوستاف إيفل **Gustave Eiffel** .

فى زاوية بعيدة، يجلس القوادون على حُزَم البضائع، فى جيوبهم أوراق اللعب (الكوتشينة) وأسلحة بيضاء، يراقبون المترددين المتباطئين الذين لن يستقبلهم أحد، كما يراقبون القادمين الجدد من مارسيليا مثلهم مثل فرخ الحجل الذى سوف يُنْتَف ريشه فى بيوت البغاء و غرز الحشيش فى المدينة الصينية. بصحبة ضباط الشاطئ، يزور يرسين ترسانة السفن الحربية، يجلس على أرصفة المقاهى فى ريكس **Rex** أو ماجستيك **Majestic**. فى المساء، التجار، بزيهم الأبيض، يرشفون النبيذ الأبيض مع مزة ثمرة الكشمشة. لا يتعدى عمر مدينة سايجون الثلاثين عاما، إنها مدينة بيضاء شوارعها مخططة على النمط الهوسماني، مظللة بأشجار الخُرْنوب. فى وكالة السفريات، نعيد إلى الطبيب الشاب أوراقه المُوشاة بأختام الجمارك البحرية والهيئات الصحية: يجب على يرسين أن يُبحر فى ظرف أربعة أيام على سفينة الفولجا **Volga**.

يشعر بالاكتئاب وهو على خط سايجون– مانيليه –**Manille Saigon**.

حيوات متوازية

السفينة فولجا Volga هى عبارة عن آلة قديمة تجمع ما بين الشراع والبخار، مُجَهَزة بثلاثة سواري- زوارق، مدفأة مركزية وحيدة، منشأة متواضعة تتسع لسبعة وستين مسافرًا وبضعة أطنان من حمولة الشحن.

كل شهر فى رحلة الذهاب، انطلاقًا من سايجون، يراقب تجار الجملة المعتادون على هذا الخط، المنتجات الأوروبية المتجهة إلى الأثرياء الفلبينيين: الملابس من باريس والخزف الصينى من ليموج Limoges، دوارق كريستال، ونبيذ فاخر. فى المقابل، فى رحلة العودة يجلبون منتجات صُنعت بعرق الفلبينيين الفقراء: أرغفة السكر، سيجار مانيليه Manilles الفاخر، وثمرة الكاكاو. ننتقل من ميناء لآخر، طيلة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ نبحر فى البحر الأصفر الهادئ ذى الأمواج الصاخبة والمنسابة التى تدفعها مقدمةُ الباخرة أمامها مثل من يمط شفتيه غضبًا واشمئزازًا. يبحر البخار الهادئ بانتظام كالمخرطة. فى الطبقة العليا للسفينة، يقف القبطان فرنسوا نيجر François Nègre وهو سائق مُحَنَّك للسفن الرديئة فى آسيا. منذئذ وحياة يرسين، ولمدة عام كامل، سوف تنتظم كالميزان.

يمضى يرسين ثلث الوقت على سطح سفينة، والثلث الثانى يسترخى فى سايجون الجديدة، أما الثلث الأخير فيقضيه فى مانيليه القديمة، وهى إحدى المدن الإسبانية الراعية، منذ قرون، للمذهب الكاثوليكى المتوهج بالذهب الخالص

وتماثيل القديسين الدامية ونذور العذارى المتعددة الألوان المُزوَّدة بالزهور والفواكه والحلوى. يبدو كل هذا غريبًا بالنسبة لهذا السويسرى المُتزمت بنفس القدر الذى تبدو عليه تمائمه الفودوازية غريبة بالنسبة لزنوج هايتي. فوق البحر، تقع مدينة مُحصَّنة شبيهة بتلك المدن التى نراها فى بورتو ريكو **Porto Rico** أو هافانا **Havana**، شوارعها مبلطة ومنحدرة، وكاتدرائية بيضاء يعلوها جرسان، مدخلُها تكسوه الطحالب السندسية وعفن الكرم الأسود. انتهى الفرنسيون من تشييدها بالقرميد الأحمر الجديد الذى جلبوه من مدينة تولوز **Toulouse**، إنها كاتدرائية نوتر دام دو سايجون **Notre Dame de Saigon**.

لكن يرسين يقوم بجولة سريعة فى المدينتين، ويمضى بعيدًا بعيدًا عنهما إلى كل مرسى. إنه شاب منضبط ومنظم، يرسين، وهذا أمرٌ معروفٌ لنا. كل شهر ، يعود إلى الفلبينيين لدراسة علم الفلك لدى الآباء اليسوعيين فى المرصد، حيث يتدرب على كيفية استخدام البارومتر **baromètre** لقياس الارتفاعات، ومدى تصاعد بركان تال **Taal**. هنا يستغرق فى مشاغله العملية كما يستغرق فى صناعة طائرة ورقية. يرسم بالريشة فوهة البركان. "فى العمق، مجريان من سائل أخضر مُصفر يتصاعد منهما بخار كثيف ناصع البياض. من هنا وهناك ترتفع أعمدة الدخان عبر الشقوق الملتهبة". اقتنى مركبًا من هذه المرافئ التى نطلق عليها هنا بانكا **Banca**، استأجر ملاحًا، جاب الأنهار، وشهد مصارعة الديوك فى قرى تاجال الفلبينية **Tagalogs**.

كل شهر، يخوض اللورد جيم أو يرسين أبعد وأبعد فى" قناة ضيقة متعرجة تجرى وسط غابة استوائية كثيفة". سوف يرسل إلى فانى، القارئة الوحيدة له، نصوصه الأولى بوصفه مكتشفًا. "نتقدم تحت قبة من الخضرة، مزينة بنور القمر، وسكون الليل، وزوارق الصيادين الصغيرة – المصنوعة من تجويف جذوع الشجر – والتى تتخذ من الأركان المظلمة للقناة مرسى لها، بما يُضفى

سحرًا مدهشًا على المشهد بأسره". دَعَوْنَا القائد لركوب الباخرة هو وابنيه الرضيعين ورقيبًا أول إسبانيًا. عند الواحدة صباحًا وصلنا إلى جالا-جالا Jala-Jala"، ثم عدنا على أعقابنا عند الفجر. فى الغد، أنزلت مركب البانكا banca الشراع ورست على ضفة نهر الفولجا بجوار القوارب، نحينا الروافع، وأطلقنا البخار. ارتدى يرسين زِيَّه الأبيض ذا الأشرطة الخمسة الذهبية. رنّ الجرس. فى المساء، فى مطعم الضباط، سوف يحكى عن يومياته للقبطان الزنجى وتجار الجملة الجالسين على منضدة الطعام وأمامهم شراب الأبسنت المُسْكِر. وها هو البخار يترنح من جديد ويتسكع على بساط البحر الزيتي. أحيانًا، نستخدم الشراع لتوفير الفحم أو إحياء ذكرى القدماء. وحدَه المركب الخفيف الذى يقل، أيضًا، المسافرين إلى المرفأ، معروفٌ بصفته المزدوجة هذه. بعد ثلاثة أيام، يتم إنزالها للعودة إلى سايجون، ووضعها فى الماء عند الميناء.

فى كوشينشين Cochinchine ، تحولت مركب البانكا الفلبينية إلى زورق فيتنامى يسير بالمجداف. يكرس يرسين وقتًا أيضًا للإبحار فى الأنهار. المرشدان شون Choun وتيو Tiou يشحنان أغطية ومصابيح، ناموسيات وفلتر المياه ماركة شامبرلان Chamberland، أرزًا وبطًا. "تقترب الجبال، ويتوارى النهر رويدًا رويدًا". فى المساء، يجتمعون على شط النهر، يوقدون النار، يأكلون البط باستمتاع، أذهانهم صافية خالية من أية هموم، سوف يسافرون قريبًا إلى مدينة بيان هوا Biên Hòa فى فيتنام، بل حتى إلى أماكن أبعد من ذلك. قابل يرسين، هنا، مزارعًا دنماركيًا منعزلاً عن الناس، اسمه جورجنسين Jorgensen، اعتاد على استضافته بوصفه صديقًا قديمًا. عند رحيله، أوصاه بقائمة من المشتريات سوف ينتظر وصولها خلال شهر. من شرفة المنزل الخشبى على ضفاف النهر، يُطلق عنان مشاعره الفياضة وهو يتأمل مزارع الفلفل، ويشاهد عند قدميه

"المياه الصادمة للصخور". فى الأفق، يشرق الصباح على الجبال الزرقاء، تشرب الأفيال من النهر، تتعالى صيحات القرود وزقزقة الطيور. يجب أن يعيش ها هنا، أن ينعزل عن العالم. يتقدم سيرًا على الأقدام مع جورجنسين لمدة يومين حتى يصلا إلى أولى قرى الهند الصينية.

فى رسائله، التى تقرأها فانى وهى قلقة ، تحاول أن تواريها عن نظرات الفتيات اللاتى يسكنَّ معها فى منزل أشجار التين، كتب يرسين أولى ملاحظاته الإثنولوجية عن سكان قرى مواس **Moïs**: "طوال القامة، أقوياء، يرتدون، ببساطة، أقمشة تطوقهم، وجوههم تختلف عن وجوه سكان آنام، إذ إن سكان آنام ملتحون ذوو شوارب، فخورون بأنفسهم وأكثر وحشية. تتكون القرية من منزل واحد ولكنه ضخم يرتكز على قوائم خشبية. تسكن كل عائلة فى جزء مستقل بدون حواجز. إنها الحياة الحقيقية المشتركة. لا قيمة للمال قط عند سكان مواس. إنهم يفضلون اللالئ الزجاجية أو خاتمًا من نحاس.

يبدو على يرسين انبهارَ محبى العزلة إزاء الحياة الجماعية وعدالة الشيوعية البدائية التى لا تعرف عملة نقدية. من هنا يجب التقدم للأمام أكثر، مغادرة البحر، الجرى فى وحل الغابات، تسلق سلاسل الجبال الآنامية، عبورها، بل والانطلاق إلى ما هو أبعد ، إلى سكان مملكة سيدان أو جاريس **Jaraïs** فى إندونيسيا، وهى مناطق ما من شخص حتى الآن، ولا حتى جورجنسين **Jorgensen**، وصل إليها قط. ربما يكون مايرينا **Mayrena** هذا هو **Marie Ier**. قد وصل أو حاول الوصول، ولكن مايرينا هذا كان يبحث عن الذهب أو الشهرة. فى الأغلب الأعم لن يذهب يرسين إلى مدينة سايجون إلا عشية رحيل الباخرة فولجا **Volga** كى يركب الزورق، الذى سيصبح بعد ثلاثة أيام، مركبه البانكا **banca**. سوف يلتقى بالقبطان الزنجى والسماسرة. أما طاقم المركب "فهم من جنسيات مختلفة، منهم صينيون وماليزيون وكونشينشينيون". لم يتخيل نفسه

مثلهم، فهم يقضون حياتهم على الزواق منتقلين من مكان لآخر. يشعر بالملل، ولكنه أيضًا لا يعرف ما يمكن أن يفعله غير ذلك. لقد وصل سريعًا لأقصى الحدود الجغرافية عبرهذه الرحلات. كل هذا ربما يكون مرهقًا بقدر إعداد محاضرة عن علم الجراثيم.

ليس يرسين، بعد، مكتشفًا، لم يمضِ أبدًا إلى الأمام دون عودة، لم يواجه المخاوف، ولم يزج بحياتهِ إلى خطر كبير. ولكن فى القريب العاجل، فى صراعه مع سوك **Thouk**، سوف يخترق الرمحُ جسدَه، لكن معارفهُ الطبية سوف تنقذ حياته.

هذا العام، سوف يقضيه يرسين فى رحلات مكوكية فى البحر الأصفر ما بين مانيليه وسايجون. كانت العودة الأخيرة لآرثر رامبو إلى ميناء مرسيليا فى الربيع. منشارُ الجراح يعمل على الساق، بعد أسابيع من مسيرة ناقلات الجرحى والمرضى على الحصى، بلا رعاية طبية ولا عقاقير باستورية. على متن الباخرة، طبيب الإرساليات البحرية، بالزى الأبيض، يشعر بالعجز وهو ساهر على المريض. العبارات الأخيرة التى يقولها وهو يهذي، صيحات الألم: الصكيك الهائل لأنياب الفيل أشبه بقرع طبول الأدغال. قبل إجراء عملية البتر، كتب إلى الأخت إيزابيل: "لماذا لا نتعلم الطب فى المدرسة ، ولو القليل مما يجب معرفته من هذا العلم حتى لا نقترف مثل هذه الحماقات ؟ ".

ألبير وألكسندر

كان وصول ألبير كالميت Albert Calmette إلى سايجون بمثابة مفاجأة ليرسين. الرجلان يلتقيان لأول مرة. لقد كان رو من باريس، ووفق نصيحة باستور، هو من أعدَّ هذا اللقاء بينهما.

وُلِد الرجلان في العام نفسه، لكن مسارهما كان مختلفًا. بعدما درس الطب في مدرسة الصحة البحرية في بريست Brest، تابع ألبير كالميت الحملة الصينية التي قام بها الأميرال كوربيه Courbet، والتي شارك فيها بيير لوتي Pierre Loti أيضًا. أقام طبيب البحري في هونج كونج، ثم أقام ستة شهور في الجابون Gabon حيث قابل برازا Brazza، ثم أقام لمدة عامين في تير- نوف -Terre Neuve، ثم في جزيرة سان بيير وميكلون Saint-Pierre et Miquelon. لقد قام لتوه بمتابعة محاضرات في علم الجراثيم في معهد باستور. أرسله المعهد إلى كوشينشين، إنه عضو شاب جديد في عصبة الباستوريين.

قبل يرسين الدعوة في أدب وفضول. كل هذا كان جزءًا من حياتهِ القديمة، مثل استراحة مناوبة ما بين أسفارهِ وأبحاثه. عندما كان كالميت في عامه العشرين والتحق بالخدمة في قسم الصحة البحرية، كان يرسين في ماربورج ولم يكن قد رأى البحر أبدًا. اليوم، هو البَحَّار. قضى عامًا كاملاً وهو يتجول على نهر فولجا. يجلس الرجلان في صالون طراز ماجستيك Majestic، هذا القصر الأبيض الكائن أسفل شارع كاتينا Catinat والمعروف اليوم باسم دونج خوا Dong Khoi.

مقاعد من الطراز الإمبراطورى مُذهبة مَكْسُوَة بجلد الحيوانات. يطل القصر على النهر والسفن الشراعية التى مازالت حتى اليوم فى عام ٢٠١٢ على حالها الذى كانت عليه منذ مائة وعشرين عامًا. لنختر مقعدًا من أجل طيف المستقبل المجهول، هذا الكاتب الذى يكتب فى الدفتر المُجَلد بفروة حيوان الطوبين، يسير الطيف على أثر يرسين فى مدينة ماربوج بألمانيا. يرهف السمع، يتجسس ويسجل المحادثة بين الرجلين وهما من ذوى الثمانية والعشرين ربيعًا واللحى السوداء المنمقة، مع التحلى بالحذر فى متابعة هذين المتواطئين الخجولين، يستدعى الرجلان ميلهما المشترك للجغرافيا، تكلما عن لوتى **Loti** وعن صيد سمك القد. كان يتحدثان عن سايجون، الطقس البارد، وعن الثلوج فى مدينة ميكلون **Miquelon**. إنه ضابط الجيش الذى يلبس الآن ملابس مدنية، هو مدنى يلبس زيًا أبيض تعلوه خمس نجوم. تحلق هامة القائد الكبير فوق الطبيبين الشابين، ثمة هامة أخلاقية هائلة تلوح من خلال السترة السوداء ورابطة العنق وتقطيب الحاجبين، قامة تفرض نفسها على حديث كل الباستوريين. كلٌ منهما يتذكر يوم أن التقى بالعَالِم المُسن باستور، ويحكى عنه طُرفة. يعلم الجميع كل شيء عن أعمال وحياة هذا العالم الذى لم يكن طبيبًا أبدًا ، ولكنه قام بتغيير تاريخ الطب، والكيمياء وعالم البلورات ، ويحكيان عن مراحل نجاحه منذ اكتشافه لمرض فراشة دودة القز، وتخمر البيرة، وبسترة النبيذ واللبن، واكتشافه لفصيلة العصويات الخاصة بحصبة الخنازير والجمرة الخبيثة التى تصيب الأغنام، وحتى التطعيم ضد السعار. إنه باستور المخترع لواقعة جديدة، لم يتوقعها أحد مشكوك فيه فى كل لغات العالم ، حتى لزم التوجه إلى القاموس ليتريه **Dictionnaire Littrè**، والانكباب على هذا المعجم الكبير، الذى حكم وأكد على أن " ميكروب جرثومة **microbe**، وعلم الجراثيم **mlcroble** هى كلمات ملائمة لتسمية هذه الكائنات الحية الصغيرة **Animalcules**، وأنا أفضل

استخدام كلمة جراثيم **microbes**، أولاً، لأنها كلمة قصيرة، وثانيًا، لأنه يشتق منها ميكروبية جرثومية، وهو المصدر المؤنث، للدلالة على الحالة".

برؤيتهما هكذا وكلٌ يَميل ناحية الآخر، سوف نقول إنهما مناضلان سرِّيان فى جماعة ثورية ما، يتهامسان، وفق لغتهما المُشفرة الخاصة، يُسِرٌ كلُ منهما للآخر بأحلامه بغدٍ أفضل، وهو ما يجب أن يُحسَب على ما بينهما من الأخوة. الأكثر تأثرًا هو، بلا شك، كالميت، أمامهُ يرسين الذى اكتشف سُمّين جرثومة الدفتريا **Diphtheria**، مما أهله لأن يكون فى الصف الأول من العلماء. لقد نبهه رو فى باريس. يرسين شخصٌ متفرد ووحيد، رحل على متن المراكب والبواخر ليكون بحارًا أو مُغامرًا. لقد أسرَّ كالميت ليرسين بأنه قد تم إرساله إلى هنا ليُنشئ معهد باستور، وعرض عليه أن يعمل معه. لم يفطن يرسين للمقلب، وأصابه التوتر، وها هى عصبة باستور تلحق به، لم يكن لكالميت مكانٌ بعد فى سايجون. ينوى أن يفتح معملهُ البحثى فى ركنٍ ما من المستشفى.

لكى ينجز هذا، قام لتوه بالانضمام إلى هيئة الصحة الاستعمارية التى تخضع للسلطة العسكرية. إنها مؤامرة صغيرة مُدَبرة من قِبل باستور ورو فى باريس. يتردد يرسين، لأنه خشى من أن يخضع، فى يوم من الأيام، لضوابط السلطات الفرنسية. لقد طلب الحصول على الجنسية، ومنذ ذلك الحين لم يخضع للتجنيد فى الجيش. ولكن بالنسبة له هذا أمرٌ قد انتهى، إنها حياته القديمة. نهض يرسين وتصافح الرجلان بالأيدي. من الجائز ألا يلتقيا بعد ذلك أبدًا، ومع ذلك يمكن لأمرٍ ما، أن يصيرا صديقين، نشعر بذلك تمامًا. "لقد بذل قُصَارَى جهده ليقنعنى بالالتحاق بالهيئة التى يعمل بها، هى هى حجج الأمس التى مازالت قائمة اليوم، وأنا، أيضًا، لم أقرر بعد".

غادر يرسين صالون ماجستيك **Majestic**، وسار بمحاذاة النهر صوب مكتب الإرساليات ويَدُه فى جيبه. إنه على بعد خطوتين. يتجاوز عمود الإشارات **Thu Ngu** ، يمتد كابل الأعمدة عابرًا لجسر صغير على نهر آرويو **Arroyo**. يركب يرسين الباخرة من على ضفة نهر فولجا ويعاود عمله، يرن الجرس. يعود كالميت إلى غرفته فى الطابق الأول. هذان الرجلان لم يعرفا بعد إلى أى مدى سترتبط حياتهما بعضهما ببعض، وأنهما سوف يتراسلان لأكثر من أربعين عامًا قادمة. رفع القبطان الزنجى شعار الباخرة، إيذانًا بالتحرك. استعاد يرسين حياته المُغامرة وآمال البحار.

يخيم الليل على البحر، ربما مازال يرسين مترددًا، يتذكر المشاريع التى عرضها عليه كالميت: دراسة التخمر الكحولى للأرز، فاعلية المُسَكِّن للأفيون، أهمية السموم لعلاج لدغات الثعابين المميتة. سوف يحظى كالميت بالنجاح الذى نعرفه. فيما بعد سيعمل مصل **BCG**، وحرف الـ **C** الموجود بين الحرفين هو الحرف الأول من اسمه. ونعرف اليوم مستشفى كالميت فى بنوم بنه **Phnom Penh** ، وهى ليست بعيدة عن فات بنوم **Vat Phnom** وعن معهد باستور. لقد عمل على نشر هذه المَشافى فى كل مكان على كوكب الأرض كما هو الحال فى عملية التناسل بالانقسام أو الانشطار. قبل أن يفتح مَعهده فى مدينة ليل **Lille** الفرنسية، فتح معهدين خارج فرنسا، أو بالأحرى خارج فرنسا بالنسبة لمستعمراتها، بما أن مدينة سايجون أو ليل **Lille** أو الجزائر، هى أيضًا فرنسا.

فى رحلة الطيران

كذا هو الحال دائمًا فى الأربعينيات. حتى لو كنا نشعر تمامًا بأن هزيمة الأيام الثمانية هذه أمام الجيوش النازية، كانت بمثابة نذير شؤم لبقاء الإمبراطورية الفرنسية، فقد تم غزو فرنسا للمرة الثالثة فى أقل من قرن من الزمان. أما العجوزالذى بلغ السابعة والستين من عمره، بلحيته البيضاء وعيونه الزرقاء، فسوف يغالبه النعاس فى الطائرة التى تحلق فوق البحر الأبيض المتوسط. يومان بعد رحلة مرسيليا، تُقلع الطائرة **OH-242**، من مطار أثينا. الحوت الأبيض الصغير يهتز وسط السماء الزرقاء الرحبة، قبرص تحت جناحها الأيسر، نسمع طنين المحركات الأربعة الجديدة من طراز جنوم ورون **Gnôme & Rhône**، هذه المحركات المُجتمعة أعلى مدخنة هوائية خلف مقصورة القيادة.

سجل يرسين المعلومة: جنوم ورون **Gnôme & Rhône**.

لقد وصل لتوه لحضور المؤتمر الأخير لمعاهد باستور فى باريس. تَلَقّى تحيات الوداع من قبل الباحثين فى باحة الفناء المَكسُو بالحصى حيث توجد مقبرة رو. كالميت ورو، وافتهما المنية منذ سبع سنوات. لقد قدم العزاء فى المفقودين، وصافح بحرارة حارس العقار العجوز جوزيف ميستر **Joseph Meister**، أول رجل تم إنقاذه من السُعَار **Rage**، عمره، الآن، أربعة وستون عامًا.

بلا شك، مازال يرسين يتساءل لماذا هو حي حتى الآن؟ وكم حربًا ضد الأمراض يجب عليه أن يخوضها ويعانيها؟. إنه يتذكر الأخوين كالميت، الأكبر جاستون **Gaston**، الصحفي، الذى أهداه بروست **Proust** الجزء الأول من روايته "البحث عن الزمن المفقود". ويتذكر، أيضًا، والأصغر ألبير **Albert**الذى رآه لأول مرة فى فندق ماجستيك بمدينة سايجون. بعد عشرة أعوام لاحقة، كاتبه رو قائلاً: "يجب على كالميت أن يدبر لنا مقابلة مع ساروت **Sarraut** عند أخيه". حينها كنا نفكر فى ترشيح الوزير ساروت ليكون الحاكم العام القادم للهند الصينية. فى هذه الرسالة نفسها، كتب رو يقول: "لا جديد فى المعهد. والناس هنا مشغولون بالمحادثات الفرنسية الألمانية بخصوص المغرب".

الأخ الأكبر، جاستون كالميت **Gaston Calmette**، هو رئيس تحرير مجلة الفيجارو **Figaro**، وقد تم اغتياله فى مكتبه بمسدس على يد زوجة وزير آخر اسمه كايو **Caillaux**. وقع هذا الحادث فى ربيع عام ١٤، بالكاد قبل مَقْتَل جوريس **Jaurés**، و بداية الحرب. مرة أخرى، يحاول يرسين الفرار من كل هذه الأحقاد السياسية، وأن ينأى بنفسه بعيدًا عنها. وحيدًا، حتى لو لم يستطع أبدًا، طيلة حياته، الابتعاد عن معهد باستور وأصدقائه الباستوريين. يرنو، من نافذة الطائرة، إلى السحب البيضاء فى أفق السماء المُمتد، ويشاهد أسفلها جبال لبنان.

فى عصر موهوت **Mouhot**، مُكتشف معابد أنجكور **Angkor**، فى عام ستين من القرن الماضي، وهو العام الذى كان فيه باستور يباشر معركته الكبرى ضد أصحاب نظرية التوالد الذاتى **la génération spontanée**، حينها ركب باستور البحر من قرية شامونى **Chamonix**، حيث البحر متجمد، لكى يحصل فيها على عينات فى الهواء النقي، وأيضًا، لكى يصل إلى قارة آسيا. ولذلك قام

بدورة هائلة عبر رأس الرجاء الصالح. استغرقت رحلتُه ثلاثة أشهر من الإبحار على متن مركب شراعي. وبعد ثلاثين عامًا، بدأت الرحلة الأولى ليرسين من على ضفاف نهر أوكسوس **Oxus** على متن مركب بخارى واجتاز قناة السويس، لم تدم الرحلة أكثر من ثلاثين يومًا. فى هذا الربيع من عام أربعين، استغرقت هذه الرحلة نفسها ثمانية أيام بالطائرة. على مدار عمر الإنسان وحيزه، الحياة تتطور، القرع أصبح شمامًا ثم صار يوسفي.

منذ اعتاد على السفر على الخطوط الفرنسية للطيران لستة أعوام، عرف مسار الرحلة التى يستقلها: من أثينا إلى بيروت ثم دمشق، ثم بغداد، ثم بوشير **Bouchir** ثم دجسك **Djask**، ثم كراتشى**Karachi**، ثم جودبور **Jodpur**، ثم الله آباد **Allahabad**، ثم كالكوتا **Calcutta**، ثم رانجون **Rangoon**، ثم بانكوك **Bangok**، ثم أنجكور **Angkor**، حتى سايجون **Saigon**. العشرات من رحلات الإقلاع والهبوط فى مطار باريس. تسير إجراءات الإقلاع ببطء شديد. ينطلق الحوت الأبيض الصغير، المصنوع من الصاج المؤكسد، بالمسافرين بكامل طاقته، وبسرعة مائتى كيلومتر فى الساعة. وهى سرعة أبطأ من سرعة القطار فى يومنا هذا، ولكنها سرعة رهيبة لمحركات الطائرة ،المتواجدة أسفل جسم الطائرة، عندما تكون قريبة من الأرض حتى تبدو وكأنها تدير الكرة الأرضية بأسرها.

يجب على يرسين، دومًا، أن يعلم كل شيء. تذكره للأماكن والأسماء والأرقام ينم عن ذاكرة فولاذية. ذاكرة تسجل ساعات الإقلاع ، اسم الطيار **Couret** كوريه والضابط الميكانيكى **Pouliquen** بولينكان، وحالة السماء والطقس. يعيد قراءة مذكراته القديمة، وبداعٍ من الضجر، يسجل ملاحظاته على نحو آلي، مسكونًا بهوس المكتشف والباحث، حرر مئات الدفاتر. لنحاول نحن من جانبنا أن نسترق النظر إلى هذا الطيف الذى يمسك بقلم المستقبل، ولنختلس قراءة

للسطور من فوق منكبيه، لننسخ ما كتبه فى دفتره المُجَلّد بفرو الطوبين الفخم. هذه الصفحة، مثلاً، التى تبدو وكأنها مسار جاسوس تمهيدًا لغزو إيران:

دجسك **Djask**: الإقلاع فى الساعة ٠و٥٥ – **0h55**. الطيران على ارتفاع **1000** متر.

1h50: مناطق القراصنة؟ مدخل إلى الخليج الفارسي.

2h: قرى صغيرة ساحلية على الصخور على شاطئ البحر. ماء البحر أخضر زمردي. كل هذا فى مواجهة الشاطئ: بستان النخيل، القوارب، صخور رمادية اللون.

3h: شبه جزيرة صحراوية مع قرى وبساتين نخيل، مراكب على البحر.

3h40: سهل أقل تصحرًا. تقع قرى تشيرا **Chira** تقريبًا فى منتصف الطريق ما بين دجسك **Djask** وبوشير **Bouchir**.

5h: الطيران على ارتفاع ١٠٠٠ متر من السهول والجبال المتقاربة. قرى عديدة. نهر شبه جاف شمال غرب وجنوب شرق. طريق اتصالات.

5h30: وادٍ عريض فى اتجاه جنوب شرق، مع نهر كبير. مربعات منسقة للزراعة.

6h30: الوصول إلى بوشير، الحرارة ٢٧ درجة مئوية.

فى هذه الأيام الأولى من شهر يوليو من عام أربعين، عند كل محطة هبوط، نبحث عن الأخبار الجديدة ونشعر بالقلق إزاء الوضع العسكري. نعلم أن الحلفاء قد رَحّلوا جنودهم المهزومين بحرًا إلى دونكيرك **Dunkerque**، وأنه قد تم قصف الموانئ الفرنسية. أما فى سانت نازار **Saint Nazaire**، فقد لقى

الآلاف من القوات المغادرة حتفهم فى حريق الباخرة العابرة للقارات لكونار Lancastria de la Cunard. وهكذا وجدت إنجلترا نفسها بمفردها فى مواجهة ألمانيا. دخلت إيطاليا الحرب. يومًا بعد يوم ينأى يرسين بنفسه أكثر فأكثر عن حرائق أوروبا. فى كالكوتا Calcutta، يومٌ دموى على ضفاف نهر غانج Gange. يرى اختلاط الحمرة الأرجوانية بالاصفرار الذهبى للدلتا عند الغروب. ينتظر بصبر نافد الوصول إلى نهاترانج. يمكنه أن يموت أثناء رحلة الطيران، وأن يُدفَن، جزافًا، عند أى محطة هبوط، وعندها سيُشيد على شرفه معهدٌ لباستور بدلا من كاتدرائية كاثوليكية. راح يحسب الأيام ورحلات الطيران مثل تلميذ يحلم بإجازة الصيف. ها هو، ولقرابة الخمسين عامًا، يعود دائمًا إلى نهاترانج، فهذا هوالمكان الذى يريد أن يموت فيه. ننطقها نياترانج Nia Trang كما يقول تحديدًا فى خطاباته. يشرح لمراسليه أن ألكسندر دو رود Alexandre de`Rhodes، مؤلف القاموس البرتغالى – الآنامى – اللاتينى -Dictionnaire portugais annamite-Latin فى القرن السابع عشر، وهو يسوعى من أفينيون Avignon بفرنسا، كان يستخدم اللغة القسطانية، وينطق حرف H نطقًا مختلفًا عن المعتاد فيقول: نياترانج Nia Trang. يجب على يرسين دائمًا أن يعلم كل شيء.

بفضل صداقته لقائد آخر من ضابط الإرساليات البحرية، القبطان فلوت Flotte، وهو من سانت نزار Saint-Nazaire، استطاع يرسين أن يكتشف نهاترانج Nha Trang. وأن يضع قدمًا على أرض الجنة.

فـــى هيبونج Haiphong

فى البحرية، لا نختار الوظيفة التى نقوم بها. بالنسبة للشركة، خدمة سكان الفلبين لم تعد مُربحة. بعد مرور عام على متن الباخرة فولجا التى تبحر إلى مدينة مانيلا، نُقل يرسين من منصبه، وتم إرساله كطبيب على الخط الجديد للسفينة سايجون التى تبحر إلى هيبونج Haiphong. سفينة سايجون أصغر مرتين من سفينة فولجا.

هى سفينة شحن عادية مختلطة، تتسع لستة وثلاثين راكبًا، تُبحر بطيئةً فى بحر الصين، لا تقضى أبدًا أكثر من يوم أو ليلة فى البحر. وظيفة يرسين على هذه الباخرة هى وظيفة براتب وبلا عملٍ، شأنها شان العمل على سطح السفن العملاقة فى البحار العاتية، إذ يحتم القانون البحرى تواجد طبيب بزى رسمى أبيض بخمس نجوم على متنها، ونادرًا ما يأتيه مُصابٌ بالتهاب فى الأطراف أو صداع نصفي. يمكن للقبطان فلوت Flotte وحده، صاحب الوجه الشمعى الشاحب خلف دخان غليونه الكبير، أن يثير قلق يرسين. يرفع القبطان منكبيه منذ اللحظة الأولى التى يبدأ فيها بمغامرة الإبحار الصعب فى هذه المناطق، لا يكل ولا يمل من العمل، يتحرك دون توقف. أما يرسين فهو عاطل عن العمل. "نبحر بموازاة الساحل بمقدار ميلين أو ثلاثة أميال فى المتوسط، بحيث تَمْثُل لناظرينا مشاهد طبيعية تتغير باستمرار. لقد قمتُ، من باب التسلية، بتخطيط لمنظر الجبال التى نمر عليها، يمكننا التعرف على هذا الساحل فى الرحلة القادمة. القبطان هو من طلب منى أن أقوم بهذا العمل البسيط، ورجانى أن أدع له نسخة منه، لأن الخرائط البحرية المتوفرة لهذه السواحل سيئة ".

منذ عشرة أعوام، وبأمرٍ من جول فيرى **Jules Ferry**، استولى أسطول الأميرال كوربيه **L'amiral Courbet**، ومن بين طاقم ضباطه لوتى **Loti**، على آنام و تونكين. لا يعرف الفرنسيون سوى هذا الشريط الساحلي. لقد قام جول فيرى بذلك ليصل عن طريق البر بين هذين الإقليمين وبين كوشينشين، يجب فى يوم ما أن تُرسَم خريطة الإقليم. هذا الخط التجارى البحرى الذى تم تدشينه للتوّ هو، أيضًا، الوسيلة الوحيدة للربط ما بين العاصمتين المستعمرتين سايجون وهانوى **Hanoi**. فى كل صباح، يضعُ الطبيب النظارات المُكبرة البحرية حول عنقه، يخرج أقلامه وأوراق الرسم. وبما أن الركاب أيضًا متفرغون، فقد تطبعوا بطباع الإنجليز، وراح أكثرهم ثراءً يلبسون ملابسِ أنيقة ويستأجرون كبائن على يسار الباخرة تطل على الميناء عند انطلاق الباخرة من سايجون، وعلى ميمنة الباخرة عند انطلاقها من هيبونج **Haiphong**. وحدهما القبطان فلوت ويرسين يستمتعان بالمنظر الخلاب للبحر من موقعهما على العبارة بين الباخرة والأرض.

فى الذهاب مثل العودة، ألقيْنَا الهلب إلى أعماق خليج صغير هادئ ومشمس. أدرنا مُحرك المرساة، نزج بقوارب طويلة ضيقة تسير بالمجداف فى المياه،نضع أطواق النجاة، ونُسَلِّم بعض الصناديق إلى قرية الصيادين: "النقطة الأولى التى سنقف عندها بعد سايجون هى نهاترانج، يلزمنا ثمانٍ وعشرون ساعة حتى نصل إليها". يرسم يرسين ثمار جوز الهند شديدة الاخضرار، فى تأرجحها، والرمال التى تتلألأ تحت أشعة الشمس". سفينتنا هى الباخرة الوحيدة التى تتوقف فى هذا الخليج البديع".

من نهاترانج، صعدنا صوب الشمال والسماء الرمادية، وحتى مصب النهر الأحمر وميناء هيبونج. هنا، تقل السفن الخيرزانية الرُكاب وتقودهم

إلى هانوي. يشترى يرسين زورقًا ويعاود، مثلما فعل فى مانيليه وسايجون، إبحاره ذهابًا وإيابًا فى البحر الهادئ بين ذراعى الدلتا. بعد أسبوع، سوف نعاود الإبحار صوب الشمس و الجنوب. يرن يرسين جرس الاستشارة الطبية. "يشعر الركاب، أحيانًا، ببعض الضجر، ولكن هذه واحدة من مآسى الوجود". على سطح الباخرة، نرى نساءً ممشوقات بيضاوات من سكان المستعمرات، مثلهن مثل خيول تتلألأ بحبات عرق تتبدد من شدة الحرارة. القبطان فلوت نفسه، يشعر بأنه ليس على ما يرام، ومن وقت لآخر عليه أن يرتكز على درابزين الباخرة. وهو ليس من النوع الذى يتصنع الألم. القبطان، بالأحرى، يرفع منكبيه ويشعل غليونه. فإذا ما صرح يرسين بأنهُ مريض، فمن الممكن أن نجعله يغادر الباخرة، وهذا أمرٌ دونه حياته. أصبح الرجلان صديقين ثم متواطئين. زَوَّد يرسين سايجون بفلتر مياه من طراز شمبرلاند Chamberland.

من كثرة المرور كل مرة أمام نهاترانج، وفى كل مرة يُبدى يرسين إعجابًا بها، تم السماح له بالنزول من الباخرة مع البحارة المُكَلَّفين بتسليم البضائع. إنه الافتتان بالنباتات النامية فى قلب هذه البلاد المُشرِفة على قمم الجبال التى يكسوها الضباب على بعد خمسين كيلومترًا من تحليق طائر. فى مطعم الضباط، يعاود الرجلان حوارهما ليلاً. ما من أحد، قَطّ، استطاع عبور سلسلة الجبال هذه أو حتى وضعها على الخريطة. يشعر القبطان يقينًا أن مستقبل يرسين ليس فى البحر. انتهك القاعدة وسمح له، تلميحًا، بالبقاء فى نهاترانج، وخاطر بالاستغناء عن طبيب. راح يرسين يتجول فى الحقول ويتمرن على السير حافى القدمين. لم يَحِن بعد وقت الاكتشاف. يتمرن، أيضًا، بصحبة القبطان العجوز على العزف على آلة السدس الموسيقية. فى غرفته، مساءً، يدرس علم مساحة الأرض، ويراكم معارفه فى علوم الرياضيات اللازمة لمراقبته للفلك.

على هذا الخط المعتاد سايجون- هيبونج، وهو مكانهُ المفضل، أَعَدَّ يرسين، بفضل القبطان فلوت، مستقبلهُ كرسامٍ للخرائط ومكتشف.علينا أن نُشِيد بالقبطان الشجاع فلوت، فهو واحد من بَين آلاف الملاحين الشجعان المنسيين. لنحتفِ،إذن، بهذا القبطان ابن سانت نزار **Nazairien**. والذى قضى حياتَه كلها يطوف البحار والمحيطات، ليلتقيَ،أخيرًا، بيرسينِ فى ميناء سانت نزار حيث وُلِدَ. وقد توفى فى مدينة بوردو **Bordeaux** فى مستشفى الأمراض الاستوائية.

طبيــب الفقــــراء

بعد كالميت **Calmette** يأتى لوار **Loir**. يعلم يرسين أنهم لن يتركوه فى حاله. أدريان لوار **Adrien Loir**، هو ابن أخ لباستور. وهو أحد أوائل المنتمين للعصبة الصغيرة الباستورية. يرسين وأدريان متقاربان فى السن، وكانا يقومان بمهمة إعداد الاختبارات فى المعامل فى شارع فوكولين **Vauquelin** قبل بناء مبانى معهد باستور فى شارع دودو **Dudot**. وفق نصيحة عمه، قام لوار بتوصيل برقية عقب برقية إلى مكتب الشركة فى سايجون حتى يتلقاها يرسين عند كل محطة هبوط.

أرسلنا يرسين إلى أستراليا لتدشين معهد باستور جديد، ومحاولة القضاء على الأرانب المُصابة بجرثومة كوليرا الدجاج. لقد قام يرسين، أيضًا، بتطعيم الكلاب والدنغو ضد السعار، وتطعيم الخرفان ضد الجمرة الخبيثة، ولكن كل هذا لا يكفي، طَلَبَ المساعدة من زميله القديم. كان يرغب فى التحرك، عُرِضَ عليه حياة أكثر إثارة من حياة الإبحار فى بحر الصين، عرض عليه راتب أعلى من راتبه كطبيب على متن سفينة، ومعمل يقود فيه بحوثه. أستراليا قارة جديدة فى أوج ازدهارها. كل ما فيها حديث، ونرى فيها حيوان الكانجارو. لا يجد يرسين أى حجة للرفض. سار يرسين بمحازاة مقهى ماجيستيك **Majestic**، صعد إلى شارع كاتينا **Catinat**، دخل مكتب بريد جوستاف إيفل **Gustave Eiffel** وطلب ورقة زرقاء للتسجيل للسفر. كتب البيانات، شدَّدَ على صداقته للوار **Loir**، وامتدح المهمة، ولكنه رفض الذهاب إلى سيدنى **Sydney**، كما رفض عرض

ألبرت كالميت هنا فى سايجون. من منهما سيجدد عرضه؟ "يكاد كالميت أن يذبحنى حتى أعمل فى البحرية الاستعمارية، ويمنحنى وعودًا مُبهرة" .

يرسين مقتنع بأن السنوات الجميلة التى قضوها فى علم الجراثيم أصبحت الآن وراء ظهورهم، وأن زمن المغامرين قد ولّى. لقد مضى عهد العمل المنعزل لصناع العبقرية "أعلم أنه عند النقطة التى وصل إليها علم الجراثيم سوف تكون كل خطوة كبيرة للأمام، من بعد، نتاج عمل شاق، كما سيكون لدينا الكثير من العثرات والإحباطات" . لا يريد يرسين أن يكون واحدًا من هؤلاء الكادحين. مازال شابًا ومتعجلاً، سرعان ما يشعر بالملل. أما الآن، وبما أنه يعرف كيف يمشى حافى القدمين فى الغابات، فلن يقبل بأن ينتعل حذاء باحث حضرى مُقيم، كما أنه لم يغادر باريس ليصبح مغلولاً مقيدًا هنا. لقد قرر أن يكون مكتشفًا، عزم على ذلك حتى قبل أن يصبح طبيبا، وقد كتب ذلك لفانى منذ أن كان فى برلين، وعاد يذكرها به " أرى، أن مصيري، حتمًا، هو التوصل لاكتشافات علمية. لدى ميلٌ شديد لهذا الأمر، وعليكِ أن تتذكرى أن ما كنت أحلم به دائمًا، على نحوٍ حميمي، أن أسير على خُطَى ليفنجستون **Livingston**."

أما لفينجستون، فقد توفى منذ عشرين عاما مضت، ولكن يرسين يعلم كل شيء عنه، رحلته من جنوب إفريقيا حتى أنجولا واجتيازه للقارة من أقصاها لأقصاها وصولاً إلى موزمبيق، ممارسته للطب فى القرى التى مرَّ عليها، اكتشافُه لنهر زمبيز **Zambèse** وبحثه دون كلل عن منابع النيل، لقاؤه على ضفاف بحيرة تنجانيقا **Tanganyika** مع الصحفى ستانلى **Stanley** الذى تم إرساله ليجرى معه حديثًا: " دكتور ليفنجستون. أليس كذلك؟ استاء ليفنجستون من ملاحقة الصحفى له. وتوفى بعد عام واحد من هذا اللقاء. استخرج المخلصان للفينجستون- شوما **Chuma** وسوسى **Susi** - أمعاءه ودفناها تحت شجرة. أما الجثمان فسوف ينقلانه مَحْمُولاً على عصا على الأكتاف حتى وصلا إلى

باجامويو Bagamoyo والمحيط الهندى ليسلموها فى النهاية إلى الإنجليز فى زانزيبار Zanzibar حيث مراسم الجنازة فى دير ويستمينستر Westminster، يسير ستانلى خلف النعش مباشرةً. هنا يرقد دافيد ليفنجستون مبشرًا و رحالة ومحبًا للإنسانية. فى انتظار اكتشاف ما ليس معروفًا بعد عن ليفنجستون، أصبح يرسين، مثل بطله، طبيبًا للفقراء عند كل إقامة له فى نهاترانج.

"تسألينني إذا ما كنت أشعرُ بميل لممارسة الطب، نعم أم لا؟ أشعر بمتعة كبيرة عند علاج من يطلبون نصائحى الطبية، ولكنى لا أريد أن أمارس الطب كمهنة، أى أنى لا أستطيع أبدًا أن أطلب من مريض أن يدفع ثمن العلاج الذى تمكنت من تقديمه له، لأنى أعتبر الطب رسالة شأنه شأن المهمة الكهنوتية أو الرعوية. طلب المال لعلاج مريض يعني، تقريبًا، أنك تقول له: إما تبذل المال أو تخسر الحياة". يرسين مستمر فى السفر بحرًا إلى سايجون، وتوفر له الإرساليات البحرية مرتبًا، وهو ما يغنيه حتى هذا الحين عن تقاضى أجر فى مقابل الاستشارات الطبية. طيلة حياته، سيحاول يرسين أن ينأى بنفسه عن المسائل المادية، وبالمثل، عن السياسة. مؤمنٌ مخلص للكنيسة الإنجيلية الحرة فى مورج ولمثله الأعلى ليفنجستون الذى كان هو نفسه طبيبًا ومكتشفًا وقِسًا.

حين وصل، أخيرًا، إلى محطة قطار نها ترانج، فى ربيع الأربعينيات، تَعَرَّف على لسان الصيادين، إكزوم كون Xóm Cón، وذلك لأنه بعد ثمانية أيام من السفر وعشرات الرحلات الجوية ما بين صعود وهبوط، ووداع للحوت الأبيض ذى الصاج المؤكسد الذى هبط فى مطار سايجون، استطاع العجوز ذو اللحية البيضاء أن يصل إلى الخليج الصغير الرائع الساكن. يسير بخطوات بطيئة على المرفأ، يلقى عليه الصيادون التحية، إنهم أحفاد الصيادين الذى كانوا يستقبلونه بترحاب من قبل، وإنها العودة الأخيرة للدكتور نام Nam الطَبِّيب، كما نطلق عليه هنا. ونطلق عليه، أيضًا، العم الخامس، إكرامًا للأشرطة الذهبية

الخمسة التى تزين الزى البحرى الأبيض، حتى ولو لم يرتد هذا الزى منذ القرن السابق، وقت أن كان هو القبطان الأنيق ذا اللحية السوداء والعيون الزرقاءالذى عالج أجدادهم من الصيادين.

يعود إلى بيته الكبير المربع على شاطئ البحر، هو من وضع التصميم، منذ أمد طويل، لبيت بسيط على شكل مكعب. على السطح يوجد الميكروسكوب ومرصده الفلكي. فى كل دور من الأدوارالثلاثة رواق ذو أعمدة. هذه المرة، كنا نخشى ألا نراهُ ثانيةً أبدًا. يفرغ حقيبته، يرتب منتجات الصيدلية التى يجب توفيرها، يجلس فى الشرفة على كرسيه الهزاز و يشاهد البحر ولعبة الشمس على النخيل والخليج الصغير المدهش. بجواره ببغاؤه، والمبنى المخصص لتربية الطيور صاخبٌ متعدد الألوان. فى الصباح، يسمع فى المذياع ما بُثَّ من أخبار المساء فى باريس. يأتيه صوت المارشال الذى يهب نفسه فداءً لفرنسا ويتهيأ لتوقيع الهدنة المُخزية. فرنسا مهزومة. سويسرا على الحياد أو فى سبيلها للهزيمة. ألمانيا مُنتصرة. أسفرت الحملة العسكرية لفرنسا، فى بضعة أيام، عن مائتى ألف قتيل من القوات، وهو رقم أشبه بحصيلة مَوتى وباء تفشى تمامًا: الطاعون الأسود. هو يعلم يقينًا أن الحرب، بما أنها عالمية، سوف تنتهى بأن تطال نهاترانج. سوف يركب اليابانيون، حلفاء الألمان، البحر يومًا ما ليصلوا بحد السيف إلى الصيادين، وبما أن يرسين عالمٌ عتيد فى علم الأوبئة، فلن ينسى أبدًا أن الأسوأ،يقينًا، هو القادم.

الشيخوخة خطر كبير.

ليس أمرًا سيئًا، أيضًا، بالنسبة للبعض، أن تموت شابًا وجميلاً. من الممكن أن يبدو سن آرثر رامبو، بدون مرض الغرغرينا، أقرب بسنتين لعمر فيليب بيتان **Philippe Pétain**. عمر يرسين، الآن، سبعة وسبعون عامًا، وهو يعاود حياته

فى نهاترانج: حياة الرهبانية. لن يتحرك من بيته الكبير المربع حتى وفاته، مهما مرت الأيام. للمرة الأولى، يتردد قليلاً. أى مغامرة تلك التى من الممكن أن ينطلق إليها فى مثل سِنه الزاهد الرهبانى هذا. إنهُ يعلم جيدًا أن أيامه معدودة. منذ حقبة طويلة ونحن، عصبة باستور، نلح عليه و نستعجله لكتابة مذكراته. ودون أن يلتزم حقًا بهذا الأمر، راح يرسين يرتب وثائقه بعض الشيء، يفتح حقائبه القديمة، لا يقرأ منها سوى دفاتر اكتشافاته، ونحن نريد، مرةً أخرى، أن يحكى لنا قصة الطاعون الكبرى.

طاعون يرسينيا Yersinia Pestis

المشى طويلًا

الآن، يبلغ يرسين من العمر تسعة وعشرين عامًا، يريد أن ينسى مشواره العلمي، كفى، علم الجراثيم والأبحاث. لقد غير مسار حياتهِ و اختار البحر، يشعر بالسعادة على أرصفة الموانئ ، بين تحليق طيور الكركي، عند إقلاع الباخرة فى الفجر مع حركة المراكب، وأغنية المساء وهى تتهادى على الأمواج اللينة الصفراء قرب قارة آسيا. ولكن بعد عامين من الإبحار، هاهو يشعر بالملل. لقد أحبّ دقة اللغة البحرية والإثارة فى الموانئ الكبرى التى وصفها سندرارس **Cendrars** بأنها سويسرا الثانية، لكنه لم يتخيل أنه سيبلغ مرحلة الشيخوخة وهو على البواخر والسفن مثل القبطان الصالح فلوت **Flotte**. طلب إجازة من الإرساليات البحرية، تمت الموافقة عليها. ها هو، فى آنٍ واحد، ينتمى إلى معهد باستور والإرساليات البحرية.

أيًا كانت المؤسسة التى سوف يلتحق بها سوف نشكو من تقلبه. وراءه أبحاثه حول السل والدفتريا، هذا علاوة على أنه عَالِم قد تتلمذ على يد باستور، وهو أيضًا طبيب بحرى ممتاز، وقد حرص يرسين بأَلَّا يتم إزعاجه كثيرًا.

حاليًا، هو حرّ فى وقته، غادر سايجون ليقيم فى نهاترانج. فى البدء صنع لنفسه كوخًا خشبيًا علىَ اللسان الذى يقيم فيه الصيادون، فى إكزوم كون، وفتح هناك ما يشبه العيادة الطبية. الدكتور نام هو أول طبيب غربى فى هذه المنطقة. الآن، ليس لديه موارد مالية، وهو يفكر، دون أن يؤمن بذلك كثيرًا، فى أن يجعل

الاستشارة الطبية مدفوعة الثمن بالنسبة للوجهاء المقتدرين ماليًا، وأن يستمر فى علاج الفقراء مجانًا، لم يستطع التفرقة بين أولئك وهؤلاء، وعاود رياضة المشي.

قطع مئات الكيلومترات على التلال، أقام فى قرى الهند الصينية، يدرس قليلاً لهجات السكان، يمارس فى رحابهم الصيد والطب. يرمى إلى تنظيم يوم لحملة التطعيم. يتعلم منهم استخدام الرمح والقوس، فى المقابل يدربهم على الاستعمال البهلوانى لسكينه السويسرى متعدد الاستخدامات. من حين لآخر يعود إلى نهاترانج. "مرضاى الآناميون من مدينة آنام يأتون من كل صوب وحدب، بمجرد عودتى من نزهة أو رحلة قصيرة. الحقيقة إنهم، بالأحرى، يستفيدون من علمي، خاصةً وأنهم حتى يدفعوا لي، يستولون على حافظة نقودي. ولكن ماذا تريدين، إنهم يرون، أصلاً، أن سرقة الفرنسى أمرٌ عادي، وإلا ما الذى جاء بالفرنسيين إلى كوشينشين، إن لم يكن سرقة الآناميين؟".

قبل أن تتبخر مدخراته القليلة، سوف يكرس ما يلزم منها لشراء المواد اللازمة، و هكذا يجهز لرحلته الاستكشافية الفعلية الأولى. بعد البحر، والفرجة فى الغابة، يريد أن يجتاز الأدغال، يتسلق الجبال أعلى فأعلى، وبما أنهُ ليس فى مهمة رسمية، فقد حظى بمساعدة السكان المحليين الذين ارتضوا إرشاده إلى الخطوات الأولى. يريد يرسين عبور سلسلة الجبال من نهاترانج وبحر الصين حتى يصل إلى نهر ميكونج على الضفة الأخرى. لن نراه قريبًا وربما لن نراه أبدًا. يصطحب يرسين معه مُترجمًا و خمسة رجال لفتح الطريق. يحيط خصره بحمالة مصنوعة من الجلد وحافظة بها كرونومتر بحرى لقياس الوقت و مِزوَلة لقياس الأبعاد.

على ظهره بندقية استعدادًا للصيد، يتمنى أن يحظى بصيد ثمين. اشترى خيولاً و فيلين، توجه إلى الطريق الشمالى الغربي، سوف نسير على الأقدام لمدة ثلاث ساعات.

هذه المرة، يتقدم إلى الأمام مباشرةً وعلى خط مستقيم، يحجم عن الالتفاف إلى الوراء، نتقدم بقدر المستطاع على سروج الخيول لنتفادى العلقيات (ديدان تمص الدم)، نقود الخيول على المدقات، ثم نستخدم اللجام حين تغيب المدقات، نساير اختلال توازن الأفيال، أما الأفيال فعليها أن تقطع نباتات البامبو والأدغال لتفسح الطريق. منذ زمن بعيد عاد محاربو الهند الصينية أدراجهم من هذا الطريق. علقت بملابسه حشرات لم يكن حتى أبوه يعلم بوجودها. فى المساء، اتفقنا على أن نشرب قليلاً من كحول الأرز بوصفه مشروبًا منعشًا، نشعل النيران، نَهُشّ البعوض بعيدًا عنا، ونعزف النايات. غدا عند الاقتراب من القرية، و خلافًا لمايرينا **Mayrena** ، مارى الأول، الذى كان يوزع الرصاص، سوف نقدم للسكان مراهم ومخزون الكينا. بعد ذلك، سوف نغلف، فى حذر، أدوات ومواد التصوير بقماش من الكتان المُحكَم لحمايتها من المطر. أطفأنا الجَمْر، حَمَّلنا الأفيال القوية بالأحمال الثقيلة، وتقدمنا مباشرةً إلى الأمام. أراضٍ مجهولة يقطنها سكان يتسمون بالعصبية، ليس لديهم كمان ولا أشعار. حافظنا على الاتجاه وفق البوصلة البحرية. فى نهاية المطاف كانت مسيرتنا أشبه بالحياة الحقيقية الحرة بلا مقابل. فَتَحَ الطرق، حَفَرَ مسارات صوب المجهول أو صوب الله أو حتى صوب الذات نفسها: هذا اللغز الصغير المضحك للنفس الإنسانية، هذا اللغز الذى لم نستطع فك شفرته فى ظل المعبد الفودوازى **Vaudois**.

فى بنوم بنه Phnom Penh

بعدما قطعنا ممرات جبلية على ارتفاع أكثر من ألفى متر، **هبطنا صوب** غابات الصنوبر الباردة، ثم إلى الأدغال الحارة، ورأينا **حقول الأرز أسفل سهل** الجبل أشبه بألواح زجاجية متناثرة. وصلت مجموعة المُشاة **المنهكين إلى نهر** ميكونج فى محيط ستنج سترنج **Stung Streng***.

بعد ثلاثة أشهر من سفره إلى نهاترانج، باع يرسين **الأفيال والخيول،** واصطحب القافلة الصغيرة على متن زورق مصنوع **من تجويف جذع شجرة،** أما هو فقد اجتاز الطريق كله سيرًا على الأقدام أمام **القافلة حتى لا يختل مقياس** الكرونومتر. ها هو يجلس أخيرًا، يسلم نفسه لتيار النهر الهائل، المُلون بلون حجر اليشب، ليحمله أينما سار. ما كان فى الماضى رصيفًا لميناء بيكييه **Piquier** فى نهاترانج، تم تعويمُه وردمه منذ أمد بعيد ، وتحول الآن إلى شارع ١٠٨، القريب من المعبد البوذى والحى الفرنسى والفندق الملكى ومعهد باستور ومستشفى كالميت حاليًا. ولكن عند وصول يرسين، كانت بنوم بنه مجرد ضَيْعة. بعد ثلاثة أشهر من السير، تقدم إلى السلطات الفرنسية. أقام المندوب السامى الفرنسى المقيم فى كامبوديا، لويس هوين دو فرنفيل **Louls Huyn de Verneville** ، حفل استقبال على شرفه. إنه، بلا شك، عشاء بالملابس الرسمية تحت مراوح السقف. لا يشارك يرسين السويسرى الفرنسيين فى موقفهم الغريب من قتلة الملك، وهو موقف منحاز لبقايا النبلاء الذين لاذوا بالبنوك أوبالسلك الدبلوماسي. استرخينا على الأريكة الجلدية المريحة.

كان يرسين أول شخص يسافر برًا إلى ساحل مدينة آنام فى فيتنام، وحتى مدينة كامبوشيا **Kampuchéa**. كان النهر هو الطريق الوحيد المعروف للوصول إلى مملكة كمبودج حتى هذه الآونة. الخدام بملابسهم التقليدية يقدمون لنا الشامبانيا. يسألونه عن المسارات التى لم يكتشفها أحدٌ من قبله، وعن غير المتمدنين والمتوحشين. ولكن يرسين، عندما ينخرط فى الحوار، يصبح حديثه حديثًا علميًا، شأنه شأن رسائله: "فى كل مكان، كلما كان هذا ممكنًا، أحسمُ الأمور: كل خطوط العرض، تقريبًا، قد حددتها سلسلةٌ من الارتفاعات القطبية، وهو إجراء ممتاز، لأن تكرار الملاحظة يوفر دقة أكبر فى النتائج، يمكن أن أضمنها بنسبة عشرين درجة. أما خطوط الطول فهى تعتمد بالطبع على الأداء المنتظم لمقياس الكرونومتر: وكنت أتأكد من ضبطه فى كل مرة كنت فيها مضطرًا لأن أقيم لعدة أيام فى مكانٍ ما، ووجدته ثابتًا إلى حد ما، بما يُمكننى من تقدير خطوط الطول على نحو يقينى بنسبة أربع درجات." هذه أشبه بقصيدة علمية". ليَكُفّ ،إذن، عن الكلام. يبدو المدعوون غير مستوعبين لمثل هذا الأدب الذى ينتمى إلى عالم آخر من الرومانسية. وراحوا يرمقون المراوح أو أطراف أحذيتهم اللامعة، تناولوا القليل من الشامبانيا، أشعلوا السجائر. من النوافذ العالية، يشاهدون المياه الذهبية لبحيرة تونليه ساب **Tonlé-Sap** التى تصب فى نهر ميكونج، وموكب الرهبان البوذيين بأرديتهم البرتقالية، وهم يصعدون إلى معبدهم البوذى فات بنوم **Vat Phnom**. يشعر يرسين، هو أيضًا، بالضجر. انتهى العشاء. الآن، نحتسى كحول الأبسنت. لقد تخلّينا عن فكرة إقامة حفلة راقصة على شرفه.

بالنسبة ليرسين، ما من شيء جدير بكل هذه الحفاوة، هو مُتَعَجل. لا يفهم لماذا نصفق له ونهنئه. الأمر بسيط مثل مرض الدفتريا. يكفى أن تتجول، أن تلاحظ و أن تنهض من على الأريكة الجلدية الوثيرة. نحن نعرف مدى دهشة

علماء الرياضيات عندما أدركوا أن جميع من حولهم، لا يستطيعون أن يحلوا إلا معادلة من المستوى الثالث. هذه الدهشة الحقيقية، التى نعتبرها غرورًا، ليست سوى سذاجة. دهشة هؤلاء الرجال تعنى أنهم يظنون أن الجميع غير مساوين لهم، وهذا الغرور يصطدم بقيم الجمهورية. عندما نتقبل، طواعية، أن كل شخص يستطيع أن يجرى مائة متر فى عشر ثوانٍ، فقد نبدى عندئذ نوعًا من هذا الضيق، الذى يبديه أصحاب الذاكرة الفولاذية من الرياضيين أيضًا، ولكن ينبغى هنا أن نسجل ملاحظة أو قاعدة عامة: إننا ننسى كل شيء بسرعة.

عاد يرسين وقافلته الصغيرة إلى سايجون على متن مركب نهرى عن طريق دلتا نهر ميكونج. كتب تقريره، سجل ملاحظاته الإثنولوجية والجغرافية، وضحها عن طريق مائة وخمسين صورة تقريبًا، قام بتحميضها فى منزله الخشبى فى نهاترانج، رسم الخرائط الدقيقة لرحلته، أرسلها إلى لوانج برابانج Luang Prabang فى لاوس Laos، حيث أُلحِقَت ببيانات بعثة بافى Mission Pavie ثم أُرسِلَ النص إلى باريس. علينا ألا ننتظر هنا رسمًا رائعًا. إنه بالأحرى، وعلى وجه الدقة، مخطط لعضو باستوري، أو شهادة على عظمة الكرونومتر السويسرى الخاص به، والذى ابتاعه من عند فاشرون Vacheron، أو على دقة مقياسه للضغط الجوى البارومتر "الذى تم اختباره قياسًا على بارومتر الأرصاد الجوية بمدينة مانيليه Manille فى فرنسا".

مقال يرسين علمى للغاية، حتى بالنسبة لمجلة لتبسيط العلوم مثل مجلة "جولة حول العالم Le Tour du monde . فلا نجد فيه هجومًا شرسًا للوحوش ولا أميرة مسترخية عارية الصدر. ورغم ذلك، ودون الدخول فى التفاصيل، نشرت جرائد العاصمة المقال البارز ليرسين،. ودعوناه للذهاب إلى باريس. حرص باستور على إخلاء غرفته الموجودة أعلى المعهد ليقيم فيها يرسين. لم يكن فندق لوتسيا Lutetia قد وُجِدَ بعد. نُشِر تقرير رحلته الاستكشافية فى

مجلة المجمع الجغرافي Société de Géographie، والتى كانت قد نشرت منذ خمس سنوات، مقال آرثر رامبو Arthur Rimbaud حول اكتشافه الإفريقي، تقرير عن أوغادين Ogadine. اليوم اسمها أوغادان Ogaden. فى شارع سان جيرمان Saint-Germain ، اجتاز يرسين رواق الجمعية الجغرافية، حيث شُيِّد تمثالان لامرأتين، واحدة تحمل الأرض وأخرى تحمل البحر.

حضر الندوة زملاءُ يرسين من العلماء من معهد باستور سواء كانوا من عصبة شارع دوتوDuto أو عصبة شارع مازارين Mazarine ،جنبًا إلى جنب، للاستماع إلى المحاضرة التى سوف يلقيها فى الجمعية الجغرافية. كان من بين الحاضرين إيميل رو Emile Roux نفسه – الذى أطفأ لتوه موقده المعملى وعلق معطفه الأبيض على مشجب فى البهو. كما حضر المحاضرة المكتشفون الجغرافيون ومن بينهم أوجست بافى August Pavie العائد من لاوس Laos، ونائب مستشاره من لوانج برابانج Luang Parbang عاصمة لاوس. أبدينا الإعجاب بموهبة هذا الشاب اليافع يرسين وقدرته على التعرف على كل هؤلاء، فهو مثل بول جيجوف Paul Gégauff، الذى سوف يحشد ويُوَحد، فى القرن التالي، الجماعات الصغيرة التى تنتمى للموجة الجديدة والرواية الجديدة. بدا الصحفيون، لحاجتهم لأن تكون أوراقهم مؤثرة، أشبه برسامى الكاريكاتير بما لديهم من فِرَاسة، يحدوهم فضولٌ لمعرفة ما الذى يفكر فيه هذا الرأس. وهنا قد تصيبهم خيبةُ أمل. فيرسين ليس عالمًا مجنونًا أو مُصارعا، إنما هو شاب هادئ وحازم ذو نظرة زرقاء صافية ولحية سوداء مُنَمقة. «فى المساء، أتناول العشاء فى ضيافة السيد باستور الذى يستمتع كثيرًا بحكاياتى عن أسفاري». حارس العقار الشاب، جوزيف ميسترJoseph Meister، الذى يبلغ من العمر ستة عشر عامًا، هو من فتح ليرسين الباب واستلم منه معطفَه.

ظل يرسين فى باريس لمدة ثلاثة أشهر، وسجل نفسه فى دورات فى مرصد مونتسورى Montsouris. الآن، ليس لديه دَخْل مالي، راح يبحث عن الدعم لرحلاته الاستكشافية الجديدة. رفض الانضمام إلى بعثة بافى Mission Pavie فهو يعرف سيزارCésar. ويفضل أن يكون الأول فى نهاترانج على أن يكون الثانى فى لوانج برابانج Luang Prabang. يطلب من جديد دعم باستور. تبدو الرسالة الثانية التى أرسلها إلى الإرساليات البحرية أكثر حماسًا من الرسالة الأولي: "الدكتور يرسين يرجونى دعم طلبه لدى وزير الشئون الخارجية. فى ثقة كاملة وحماسة شديدة، قمتُ بكتابة هذه التوصية. عمل دكتور يرسين فى معهد باستور لمدة عامين بنجاح كبير،لقد اشترك مع دكتور رو فى الأبحاث الأولية على مرض الدفتريا، دائرة معارفه متسعة جدًا فى مجال الطب مما جعله يستحق عن جدارة لقب دكتور، وأمامه مستقبل مشرق بوصفه عالمًا، ولكن فجأة، وبعدما ألقى العديد من المحاضرات، اعترته رغبة عارمة فى السفر، وما من شيء استطاع منعه من السفر ودفعه إلى البقاء معنا. و أنا أشهد أن دكتور يرسين من أكثر الرجال جدية، كل الدلائل تبرهن على أمانته، يتمتع بشجاعة مدهشة، ولديه مزايا متنوعة بقدر ما هى دقيقة، فهو قادر باختصار على إحراز شرف كبير لبلادنا. فى النهاية، وحدها قراءة هذا التقرير الذى كُتِب عن رحلته الأخيرة إلى ميكونج Mékong يمكنهُا أن تمنحنا مباشرةً، وعلى الفور، أسمى تقدير لصفات هذا الرَحَّالة المُكتَشِف: دكتور يرسين".

يأمل يرسين، بذلك، أن يحصل على مبلغ مُحترم، سوف يحصل على أربعة قروش.

أثناء إقامته الأولى هذه فى أوروبا منذ ركوبه البحر، عاد يرسين إلى مورج Morges، احتضن فاني، واستطاع أن يشتري، بالقروش الأربعة، من محل فاشيرون Vacheron، كرونومتر chronometer جديدًا لقياس الوقت،

وإلكترومتر électromètre لقياس الكهرباء، وعدة أجهزة لقياس الحرارة، وأن يشترى من محل مايور Mayor بندقتين للصيد والخرطوش الخاص بهما.

يجلس يرسين فى الصالون الصغير المُزهر فى بيته المُحاط بشجر التين، وسط مجموعة من الصحفيين، يفتح، أمام فانى والفتيات الشابات من العائلات المرموقة، دفاتر اكتشافاته، وعند قراءتها، سرعان ما نجدها مملَّة، كُنَّ يرغبن فى أن يشاهدن صورًا. قدم لهن يرسين صور سيدات من قرية الهند صينية، وسرعان ما راحت فانى تغطيها بمفرشٍ صغير، احمرت وجنات الفتيات خجلاً. هاهو فى نهاية المطاف، ألكسندر المُنشد الصغير للتراتيل فى الكنيسة الإنجيلية الحرة، قد أصبح، الآن، مصورًا للزنجيات العاريات.

ليفنجستون جديد Livingstone

منذئذ، سوف تكون حياة يرسين هكذا. ها هو مُكْتَشِف يتسلق الجبال، مُوصى عليه من قبل الحاكم العام المُنْحَاز له. فى مكتبه فى سايجون، يفحص الخرائط الغامضة والغريبة لآنام Annam وتونكين Tonkin ولاوس Laos، وفى يده قلم رصاص. نحن فى بلدٍ تم غزوه ولكنه غير معروفة، مثله مثل قادة الحرب الرومان بعد حرب أليزيا Alésia يضع أمامه خريطة لأراضى الغال والجرمان. نتساءل أين يمكن أن توجد المناجم أو، ربما، الذهب فى قلب هذه البلاد؟ أين يمكن أن نشَيِّد مدنًا؟ ونؤمِّن إقامة القوات؟ إنهم مثلنا، ومثل كل الغزاة، أشبه بأطفال يحلمون بالورق المُلَوَن والخرائط الجغرافية الشبيهة بمعطف البهلوان المتعدد الألوان وقد بُسِطَ على الأرض. عاد يرسين من بنوم بنه Phenom Pneh ثم من باريس حيث كان يفحص المخطوطات فى مكتبة الجمعية الجغرافية، كما اطّلَعَ على بعض نصوص المبشرين التى تتسم بالهذيان، وتخيَّل مسار الرحلات الاستكشافية فى المستقبل. بالطبع، كان يشتاق إلى علم البكتريا وإلى الإبحار. لدى يرسين فضول موسوعي.

خلال عامين أنجز المهمة المُوكَلة إليه، فقد أمددناه بالعتاد والرجال والأموال والأسلحة. فى المقابل، طلبنا منه أن يقوم أثناء مروره بوضع مُخَطَط لطرق جديدة للتجارة، وأن يحدد الأماكن المناسبة لتربية الماشية، وأن يقدم جردًا لثروات الغابات والثروات المعدنية. إنها فكرة سان سيمونية Saint-Simonienne تقوم على إبراز قيمة ثروات الكرة الأرضية. يومًا ما كان علينا

اختراع العجلة والمقطورة لتسريع وتيرة استغلال الأخشاب. ما زلنا فى هذه الحقبة التى سوف تنتهى بسيادة الإنسان على الطبيعة وامتلاكه لها. ليست الطبيعة،إذن، سيدة عجوزًا هشة يجب حمايتها، وإنما هى عدوٌ رهيب ينبغى قهره.

فى الليل، فى المُخيم، وضع على ركبتيه رسوماته الإعدادية، وراح يحدد الجداول التى تهب عليها عواصف من السيول والوحل، والتى يجب أن تعلوها جسور. وصل إلى القرى الفيتنامية، اكتشف حضارة تشامبا **Champa** العريقة. الأحفاد القدامى من سلالة الماليزيين جاءوا قبل الكمبوديين والآناميين، وبما أن المحتلين إذا ما أصبحوا سكانًا أصليين، دائمًا ما ينتهى الأمر بغزوهم واحتلالهم من قبل آخرين. طيلة عامين، عرف الفجر البارد المُقبض على قمم سلاسل الجبال. فى الغابة، ليلاً، يُقام المعسكر وسط دائرة من النيران لطرد الحيوانات المفترسة، الصيد فى المراعى ، نوبات الإصابة بالملاريا وارتفاع الحرارة تحت الأمطار الرطبة، جلسات السمر وتَقَاسُم نخب كحول الأرز، التعاويذ والدم المُتبادل بين الجروح على السواعد: وهى ممارسة غير صحية وغير باستورية. ولكن يرسين قد جلب معه المنتجات السحرية والمُطَهِّرة التى ابتكرها كالميت فى معهد باستور فى سايجون.

مشروع الاكتشاف يتنامى: حول الأفيال والخيول الصغيرة ذات السروج، المواشى التى نقوم بشوائها على الطريق والأقفاص الزاخرة بالدواجن، والحمالون والمرشدون حاملو المصابيح، الذين يشكلون، أحيانًا، صفًا مكونًا من أربعة وعشرين شخصًا يتلوى ما بين مقابر الأموات. نرى يرسين فى صورة فوتوغرافية وهو يرتدى غطاءً للرأس ومعطفا صينيًا مُزرَّرًا حتى الرقبة. تتناثر أمامه أشجارُ النخيل، توقف لبرهة، ووضع على الحامل الثلاثى الأقدام، مكعبًا كبيرًا مصنوعًا من الخشب اللامع. قِف عند هذه اللقطة، لنحدد المواد التى يحملها على جسده: الملابس مصنوعة من ألياف نباتية، المعادن والزجاج لأدواته،

الجلد وفرو الحيوان، وقد تمت دباغتهما لصناعة الحزام وحمالة السيف، كل هذا معروف منذ القدم، مثله مثل الحصان والفيل، لا وجود لمادة البلاستيك أو الألياف الصناعية. يعاود يرسين المسيرة، وستائر النخيل خلفه قد أُسْدِلت.

أثناء رحلته الاستكشافية الثانية هذه، وبعدما تسلقوا جبلاً صعب المراس وشائكًا من جراء تناثر الصنوبريات على سفحه، بدت أمامهم، على مرمى آفاق البصر، هضبة واسعة من الأعشاب، تمتد لأكثر من ألف متر من الارتفاع فى هذا المناخ البارد، وفى المنتصف ينساب جدولٌ. المنظر خلاب. تذكر يرسين عند عودته: "ما بدا لنا على مرمى الآفاق ذكَّرنا بمنظر هياج البحر بفعل موجة صاخبة هائلة ضامة للتموجات الخضراء".

لقد اكتشف هضبة لانج بيان Lang Bian.

بعد أربعة أعوام، أراد بول دوميه Paul Doumer الحاكم العام الجديد، بعد قراءة تقرير يرسين، أن يكوِّنَ بنفسِه فكرة عن المكان. حاول دوميه أن ينشئ فى الهند الصينية محطة على الجبل لاستقبال المستعمرين المنهكين والمصابين بالبرداء، محطة أشبه ببيتٍ للراحة أو مقر للاستشفاء. يحيط جمعٌ من الناس بالرجلين وهما يشرعان فى صعود الجبل.

بول دوميه بمثابة رمز لمؤسسى الجمهورية الثالثة المعروفين بستراتهم السوداء، وهو، أيضًا، رمزٌ لمذهب المساواة الديمقراطي. رَبَّته أمه، وهى أرملة وخادمة منزل، هذا الابن قليل الشأن قد كبر وصار عاملاً ثم مُعَلمًا ثم نائبًا. انضم إلى صفوف اليسار الراديكالي، شجع تطور العلوم والصحة العامة. قرر أن يبنى فى طراوة جو هضبة لانج بيان قرية جميلة تنتمى لجبال الألب.

سيظل الاثنان، يتيم مورج Morges ويتيم أورياك Aurillac، صديقين حتى وفاة دوميه Doumer،

صديقان لأمدٍ طويل. وسوف تكون حياة دوميه مديدةً ولامعة، وبوصفه رئيسًا للجمهورية، سوف يُغتال بعدة طلقات من مسدس على يد مهاجر روسى اسمه بافيل جورجولوف Pavel Gorguloff. حدث ذلك مؤخرًا جدًا عقب اغتيال ألبرت كالميت Albert Calmette فى مكتبه فى مجلة الفيجارو Figaro ومقتل جوريس Jaurès فى الحانة. ها هى كل قاذورات السياسة.

فــى دالات Dalat

بعد أربعين عامًا، فى منتصف الثلاثينيات، ثلاث سنوات بعد اغتيال دوميه Doumer، مازال يرسين حيًا ، كما أصبحت دالات مدينة.

على ضفاف البحيرة، بيوت ريفية أنيقة على الطراز النورماندي. شاليهات على التلال على طراز شاليهات إقليم سافو Savoyards فيما بين إيطاليا وفرنسا. أجمة من الزهور، زهرة العشاق agapanthes وزهور من فصيلة السلبوتيات capucines و زهرة الأرطنسية hortensias، مثلها مثل زهور مدينة دينار Dinard على ساحل الأطلنطي. تمتد قضبان القطار الذى يسير بالبخار حتى الهضبة، التى لم تُمَس من قبل، لخدمة محطة سكة حديد شبيهة بمحطة بوانت نوار Pointe-Noire فى الكونغو، أو بالأحرى مُطابقة لمحطة Deauville. معهد باستور هو الذى يدير المستشفى. افتتحنا ديرًا يشدو فيه الرهبان بصلوات الصباح والمساء، ديرًا للطيور. كما شيّدنا مدرسة لمئات الطلاب، ووافق يرسين العجوز مكتشف الهضبة، على أن تسَمى المدرسة باسمه.

تم إعداد حفل استقبال من قبل الحاكم العام الجديد فى قصر لانج بيان Lang Bian الفخم، تحت تسقيفة وسط حديقة أشجار الأَرْز والصنوبر وشجر الأروكارية Araucaria التى تنحدر انحدارًا خفيفًا صوب الشاطئ. يقع القصرالصيفى للإمبراطور باو داى Bao Dai، بجوارنا تمامًا، يقيم فيه الإمبراطور بعض الوقت عندما لا يتواجد فى كازينو موناكو Monaco. سوف

يغتنم الإمبراطور فرصة هذا الاحتفال ليمنح يرسين العجوز وسام La Grand-Croix من طبقة تنين آنام Dragon d`Annam.

جالسًا على طاولة مستديرة لامعة، أمام مكتبة الفندق فى الجهة المقابلة لأعمدة الرخام، ينصت طيفُ المستقبل إلى خطاب إمبراطور البضاعة المستعملة الذى يرتدى زيًا أبيضًا وأحذية مزدوجة اللون كتلك التى ينتعلها القوادون. نيرانٌ هائلة فى المدخنة، سجاجيد مزخرفة وستائر من قماش الجوخ ومزهريات صينية: كل هذا تم نقله إلى القصر والصعود به من الشاطئ حتى أعلى الجبل عبر القطار البخارى الذى تولَّى، أيضًا، نقل الوفد الرسمى والصحفيين إلى القصر، فيما بينهم تسلل خفيَةً طيفُ المستقبل.

عندما افتتحنا مدرسة يرسين فى دالات Dalat، فى عام ١٩٣٥،كان عمر يرسين ،حينها، اثنين وستين عامًا. عثرنا على عجوزين من قرية مواس Moïs كان يرسين قد تعرف عليهما أثناء رحلة استكشافه للمنطقة، وقتها، لم يكن فيها سوى عشب أخضر وحيوانات للقنص. عثرنا على العجوزين ودعوناهم للافتتاح. بدا يرسين مرتبكًا فى سترته السوداء التى تخفى الوشاح الأحمر ووسام التنين الذهب. يشعر بالحنق لأنه لم يستطع أن يُعَبِّر عما يشعر به فى أعماقه أمام إمبراطور البضاعة المستعملة والسلطات الفرنسية وسكان آنام الذين امتدحوه. قبل ذلك كان يحب هذه الهضبة أكثر، وتروق له تموجات العشب الأخضر. أما الآن فهو يشعر، إلى حدٍ ما، بالندم لأنه اكتشفها، أو لأنه أشار إلى موقعها لصديقه دوميهDoumer ، فهذه الهضبة مِلكٌ لسكان الجبال، وكان يجب تركها لهم.

لقد قرأ خطابه الذى أعده لشكر الحاكم العام وإمبراطور البضاعة المستعملة، ولكنه فى أعماقه كان يظن عكس ذلك. هكذا هو يرسين، يمتدح

التقدم عندما يكون هو نفسه المُحرِّض عليه. مع مرور الزمن يجتاحه الحنين إلى الماضي. تحت بريق الثريا المصنوعة من الكريستال، بالقرب من البيانو، الرجل العجوز المُحاط بالوشاح الأحمر ووسام الذهب يُثَبت عيونه الزرقاء على المياه الزرقاء للبحيرة. تراوده رؤيا عابرة لمَنزله فى مورج و شجر التين، و لصديقه دوميه الذى اغتالته السياسة. فى منتصف الثلاثينيات، اقتربت أوروبا، مرة أخرى، من الحرب. هنا، نتظاهر بتجاهل الحرب. نصفق، نرفع كئوس الشامبانيا فى المنتجع اللامبالى ونلهو فى غابات الصنوبر. لقد كتب سلفًا لكالميت يقول: "لقد عرفت أن دالات قد تغيرت وأصبحت مدينة مَدَنية. أنت تعرفنى جيدًا، بما يجعلك تفطن إلى أن هذه التحسينات الضرورية،أصلاً، والتى جرت هناك، لم تكن لتسعدني".

يُفضل منطقة دانكيا Dankia، إحدى قرى مواس Moï على بعد عشرة كيلومترات، "حيث نرى النساء عاريات الصدور يسترن عوراتهن بورق التوت، كما نرى الغابة فى الأفق، أعلى قمم التلال الشاهقة. هذا المشهد يذكرني، على نحو فريد، بمراعى جبال الألب وجبال الجورا فى فرنسا".يتذكر يرسين، وكأنه يحلم، عبوره الأول لهضبة لانج بيان Lang Bian الصحراوية، تموجات الأعشاب الخضراء العالية البرية. حينها لم يكن عمره قد تجاوز الثلاثين عامًا. وفى النهاية، لو كان يرسين قد مات فى هذه الآونة، يرسين الذى لم يكتب إشراقات Illuminations ، لو كان قد توفى تحت تأثير ضربات قاطع الطريق سوك Thouk، كانت حياتهُ تقزمت واقتصرت على تاريخ الطب والجغرافيا: لكنه عاش واستطاع حتى ذلك الحين اكتشاف فيروس مرض الدفتريا، وقام بتجربة اختبار لمرض السل على الأرانب، وخطط لطريق يصل بين فيتنام وكمبوديا، ووجد مكانًا مناسبا لبناء منتجع على الطراز السويسرى فى آسيا.

طيف المستقبل، دفتر المذكرات ذو الغلاف الفرو، كلاهما يتتبعان آثار يرسين منذ أن كان فى مورج، منذ نزوله فى فندق زور سون **Zur Sonne** فى مورج، ثم فى فندق لوتسيا **Lutetia** فى باريس، وفندق رويال **Royal** فى بنوم بنه ، وحتى فندق ماجيستك **Majestic** فى سايجون. أما الآن، فهو يقيم فى فندق لانج بيان بالاس **Lang Bian Palace** فى دالات. يمكن للطيف أن يقول لنفسه فى أعماقه: كم هو ممتع تقفى آثار هذا الرجل!. المنازل مرتفعة جدًا. بعد الظهيرة، سار على شاطئ البحيرة. منذ الثلاثينيات، ظهرت مدينة من لا شيء على الهضبة الخضراء. منذئذ تَغيَرت مدينة دالات حُكمًا وشعبًا ولكن زينتها السندسية لم تتغير ، فهى أشبه بطراز مدينة بانيول دو لورن **Bagnoles-de-L'Orne** فى نورماندى أو مدينة كامبو ليه بان **Cambo-Les-Bains** فى **Pays basque** بين فرنسا وإسبانيا. هنا مرت حروب الثلاثين عامًا الفيتنامية بردًا وسلامًا، بعيدًا تمامًا عن الصراعات. هذا ما حرره الكاتب فى دفتره المفتوح على طاولته الخشبية اللامعة، وسط مجموعة من الصحفيين الذين جاءوا من هانوى **Hanoi** ومن سايجون بالقطار لافتتاح المدرسة الثانوية. لم نتعرف عليه، قيل إنه مراسل خاص لمجلة باريس- سوار **Paris-Soir**. سألناه عن الأخبار فى فرنسا، سألناه عن أخبار جون جابين **Jean Gabin** و أخبار أرلاتى **Arletty**. سألناه عما إذا كانت الجبهة الشعبية سوف تفوز العام القادم، لم يصرح بإجابات مُحددة.

لا يرتكب طيف المستقبل أخطاءً، ملابسه لا تبلى أبدًا. يرتدى بنطلونًا من الكتان وقميصًا أبيض، رابطة عنق زرقاء وحذاء إنجليزيا مصنوعًا من الجلد الفاخر. يعرف الأخبار الجارية كما لو كان قد قرأها فى أرشيف صحف الأمس. يعلم تطورات العلم: تقدمه وتقنياته، يتحدث الفرنسية بطلاقة ولا يستخدم الألفاظ المستحدثة. مثله مثل جاسوس من زمن الثلاثينيات، ومع ذلك فهو يُخرج من جيبه، على الرحب والسعة، علبة مارلبورو لايت **Marlboro light**، وإن كان

يعرف أن هذه الماركة لم توجد بعد، و ربما،بسبب الثقة الزائدة أو الكحول، نسى أن يغلق هاتفه المحمول وعاود المكالمة.

سرعان ما سنشهد التجمهر والشغب حول طاولته فى البار، نستدعى الشرطة، نتهمه بأنه جاسوس يعمل لصالح الحزب الشيوعى الهندو صينى الذى تم تأسيسه منذ خمس سنوات على يد هو شى مينه Hô Chi Minh. اقترب الحراس من الإمبراطور خادم الإمبريالية وأحاطوا به. ننسى المكتشف العجوز ووشاحه ووسام التنين. فى قسم الشرطة، بدا الأمر أسوأ، يعترف طيف المستقبل، يشرح ، يُثير الحيرة، يتنبأ بأن الحرب العالمية التالية ستقع خلال أربع سنوات، ويستشرف وصول اليابانيين والفرنسيين إلى المعسكرات: سوف يقيم الجنرال جياب Giap، قائد المتمردين، فى جناح فخم فى فندق لانج بيان بالاس Lang Bian Palace. ستدور موقعة ديان بيان فو Diên Biên Phu وسنشهد انتصار هو شى مِينه Hô Chi Minh، حرب فيتنام وهزيمة الأمريكيين، وقدوم السوفيت. طوقناه، وأعطيناه حقنة، وألبسناه قميص المجانين، أنت يا رجل، لن يُتاح لك قريبًا رؤية بانام Paname مرة أخرى.

آرثر وألكسندر Arthur & Alexandre

لم يرن الهاتف. راح طيف المستقبل يتتبعُه. ملأ المغطس المصنوع من الحديد المصبوب على طراز أقدام الأسد الإثيوبى، خلع رابطة العنق، أدار المروحة النحاسية الصفراء. على المكتب، كتابٌ لليوناردو شياشيا Leonardo Sciascia، وقد سُطِرَت جملةٌ فى الكتاب تقول: "العلم مثل الشِعْر يقع، كما هو معروف، على بُعْد خطوة من الجنون".

على السرير، أوراق مُبعثرة: خطابان مُرسلان إلى الأُمَّيْن، فيتالى Vitalie وفانى Fanny، وإلى الأختين إيزابيل Isabelle وإيملى Emilie. توجد، أيضًا، خطابات يشى خطها بالاستعجال، بما ينبئ دائمًا عن الرحيل والمغادرة، شراء الخيل أو عمل طَلَبِيَة لشراء شيء ما، آلة السدس لرصد ارتفاع الأجرام السماوية من سفينة أو طائرة مُتحركة، مِزوَلة لقياس الأبعاد، بارومتر معدنى لقياس الضغط الجوى ،رسائل فى الميكانيكا، وكتاب وجيز عن أعمال الحفر، عن علم المعادن، عن علم الهيدروليكا المائي، عن الفلك والكيمياء. أحدهما يجمع أكبر مكتبة علمية فى آنام Annam، والآخر يمتلك أكبر مكتبة علمية فى الحبشة. يمكن لطيف المستقبل أن يكتب بالتوازى سيرتيهما. الحياة الطويلة للأول وحياة قصيرة للثاني.

اليوم، تحول فندق Lang Bian Palace – وهو أشبه بجزيرة توقف عندها الزمن– إلى قصر دالات Dalat Palace . لم نقرأ جيدًا حقيقة هذا التغيير: إنه

انتقال من الرأسمالية إلى الشيوعية، أو ربما لم نجرؤ، بعد الاستقلال، أن نسميه قصر هو شي مينه Hô Chi Minh Palace على اسم الشخص الذى قضى فترة طويلة من حياته فى معسكرات مؤقتة، أو حتى على اسم قائده الجنرال جياب Giap الذى سكن هذه المعسكرات أثناء المفاوضات مع الفرنسيين.

ما زالت صناعة الصنابير من النحاس المائل للاخضرار، والتى يمتد عمرها إلى مئة عام تقريبًا، تحتفظ بأصالتها. السجاد الفارسى صالح للانتقال فى الزمان والمكان. مُسْتَغْرِقًا فى أحلام اليقظة الجغرافية والسكانية، يتمدد فى المياه الدافئة، يُشعل طيفُ المستقبل سيجارة، ينصت إلى نسمات الهواء وهى تكنس أشجار الحديقة. يسكن العالم الآن سبعة مليار شخص. لقد كان العدد أقل من ذلك بمليارين فى بداية القرن العشرين. يمكن أن نقدر، فى المجمل، أن ثمانين مليار شخص قد عاشوا وماتوا منذ ظهور الإنسان العاقل على سطح الأرض. هذا العدد قليل. الحسبة بسيطة: لو كتب كل واحدٍ منا عن عشر حيوات عاشها من خلال حياته، ما كنا قد نسينا أيًا منها. لن تُمحَى أية حياة. كل حياة سوف تُوَرث للأجيال القادمة، وسوف يكون هذا عدلاً.

شاهد القبر ليس سوى مثوى، أما كتابة الحياة فهى مثل عزف الكمان وفق نوتة موسيقية. يعيش شخصٌ منذ الإمبراطورية الثانية حتى الحرب العالمية الثانية، ويسقط شخصٌ آخر من على حصانه وهو فى السابعة والثلاثين من عمره. الاثنان لديهما شغف بالمعرفة والرحلة ورغبة فى مغادرة المجموعات الصغيرة الباستورية أو البارناسية. يشتركان فى حب الفجر المشرق والملاحة البحرية والولع بالنباتات والتصوير.«لقد طلبت آلة تصوير من مدينة ليون Lyon، وهو ما سوف يسمح لى بأن أضيف إلى هذا الكتاب صورًا لهذه الأصقاع الغريبة". ولكن الألبوم العجيب لبلاد الغال pays des Galles هو ما سوف يكتبه يرسين وحده عن بلاد مواس pays des Moïs. الاثنان، فى الجهة الأخرى

من العالم، لديهما أفكار جديدة تجتاحهما كل خمس دقائق: استيراد بغال من سوريا إلى إثيوبيا، أو أبقار من نورماندى إلى الهند الصينية. هذه هى مغامرة العلم: " الشرف الجديد! التطور... العالم يتقدم!". حِسّ الرياضيات، مجموع زوايا المثلث دائمًا مُسَاوِيَة لزاويتين قائمتين. وكذلك يجب أن يكون الشِّعر، تراوده الأوزان الشعرية السكندرية عند نهاية خطابه إلى فاني. يمكن لك فى نهاية البيت الشعرى أن تردد متوالية من كل صيغ مصادر الأفعال، لأنها ليست هذه حياة أبدًا إن لم تكن...

بينما كان يرسين يعد العُدة لرحلاته الاستكشافية، سقط رامبو من على حصانه فى ديريه داووا Diré Daoua. كتب صديقه اليونانى ريخاس Righas أن رامبو "قد التَوَت ركبته وتمزقت من جراء وخزات أشواك أشجار السنطيات الميموزا mimosa". لدى الاثنين ميول مشتركة: الخلود إلى الوحدة والبحث عن أماكن جديدة مجهولة والسير على رأس القافلة، يتطلعان إلى الأفضل دائمًا، الأحسن والأعظم من آبائهم الذين واراهم الغياب. إنهما، بالأحرى، يذهبان إلى أبعد مما قام به الرواد المجهولون فى مجالى العلم والجغرافيا. الأول مهتمٌ بالميكروسكوب والمشرط المُخَبأ فى تسقيفة البيت فى مورج Morges. أما الثاني، فهو مهتم بالقرآن والنحو العربى المحفوظ فى تسقيفة البيت فى روش Roche. إنهما يطمحان لما هو أبعد مما وصل إليه القبطان رامبو والقافلة الصغيرة الصحراوية، وأبعد مما أنجزه من فتحِ لطريقٍ من أنطوطو Entotto إلى هرار Harar. بل إلى أبعد مما وصل إليه من فتح بالمُتفجرات طريقًا من نهاترانج Nha Trang إلى بنوم بنه Phnom Penh. أما عن الحر الخانق والعطش، فسوف نحكى عن كل ذلك للنساء، للأم أو الأخت المقيمة، التى لا تترك سويسرا أو أردين Ardennes أبدًا، وسوف نخفى الأسماء الأولى، وسوف نوقع على الأوراق على عجل، مثل الآباء. الأول هو رامبو والثانى هو يرسين.

لو لم يكن يرسين قد اكتشف جرثومة الطاعون لكانت حياته ضاعت سدى. كان سيموت بوصفه مجرد مكتشف غير معروف، شأنه شأن مئات المكتشفين الذى لا نعرف عنهم شيئًا. وحسبه وخزة إبرة فقط، كما فى حكايات الساحرات، ليعلو شأنه أو يُصعق. ولكنها هكذا هى حياة الإنسان: حالمة وسخيفة دائمًا سواء كنا نعالج الطاعون أو نموت بسبب الغرغرينا.

صوب السيدانيين Sedangs

إذا ما كانت وخزة إبرة أو لدغة نحلة تفتح بابًا إلى الموت ، فإن جرحًا غائرا ودمويًا، بفعل رُمحٍ يُعرز فى الصدر، قد يحفر نفقًا عميقًا تتجمع فيه ملايين الجراثيم. يعرف يرسينَ الطب والجراحة، وقد أنقذ نفسه بعد معركته مع سوك Thouk. إنه أمر نادر، أمر نادر أن تمر هذه الحياة دون أن تعرف ذروة العنف.

نعم، طيلة هذه السنوات التى قضاها فى الاكتشاف، والدأب المستمر على علاج أهالى القرى وتطعيم الأطفال، اقترب يرسين من بطله الصالح المُسالم الدكتور ليفنجستون، بعناده ومزاجه المُرتاب الذى يجعله، أحيانًا، يتصرف، بالأحرى، مثل ستانلي Stanley المشاكس، الذى كان يطلق النار على عصابات قاطعى الطرق الذين نسميهم بالقراصنة. إنها عصابات كبيرة، سوف تستلهمها فيما بعد حروب العصابات التى خاضها أوائل المحاربين المناهضين للاستعمار، على طريقة ماندرين Mandrin أو لمبيو Lampião.

هنا يقود سوك Thouk، زعيم العصابة ذو المقام الرفيع والذى امتهن أعمال القرصنة والنهب، حملةً مُكونة من خمسين رجلاً هاربين من السجن ومتهمين بجرائم قتل، وليسِ لديهم ما يخسرونه. يخطف العملاء الذين تم كشفهم ويعد بمكافأة لقتلهم أو أسرِهم. لديهم القليل من البنادق التى انتزعوها من الجنود: رماح وأسلحة بيضاء. ذات مساء، فى طريقه إلى أصدقائه الهندو صينيين، دخل يرسين قرية منهوبة ما زال الدخان يتصاعد من أكواخها المصنوعة من

الخوص. أرشده الناجون إلى ممر للهروب تحت الأشجار، أما الأكثر شجاعة منهم فقد انضموا إليه. كان الأمر كله أشبه بمطاردة هادئة فى الليل. بدا تقدم رجال سوك عسيرًا بطيئًا من جراء ثقل أكياس الأرز المسروقة والمسار الوئيد للماشية المنهوبة. ولكن من المُؤكد، أيضًا، أن حفنة من الفلاحين العُزَّل لن يجرؤوا أبدًا على إزعاجهم وسط عفاريت الغابة الشريرة. توقفوا وأشعلوا النيران، تقاسموا الغنيمة. صوَّب يرسين مسدسَه. وحلّقت ظلالُ الأدخنة لترسم مشهدًا مسرحيًا كاملاً حول الأغصان. غيَّر سوك، بقفزة واحدة، اتجاه البندقية. تَلَقَّى يرسين ضربةً عنيفة بهراوة كسرت عظمَ ركبته، حاول أن يدافع عن نفسه ولكنه وقع على الأرض. قُطِعَ إبهام يده اليسرى بخنجر، وغَرَسَ سوك رُمحًا فى صدره ثم هرب، تركه ليموت. وهكذا سيكون حال أى شخص من قُطاع الطرق الذين لا يملكون أى منتج من المنتجات السحرية الباستورية، فى الواقع.

رجال يرسين وجدوه، عند الفجر، غارقًا فى دمائه، ولكنه لم يفقد الوعي، عثروا عليه بجوار جمرات تنطفئ. رأوا الرمحَ يخترق جسدَه. هذه المرة، أصبحت الرحلةُ قصيرة وربما الحياة أيضًا. النمل والحيوانات الصغيرة من الدويبات ترتوى من الأرض الحمراء. ترك لنا بعضُ المكتشفين، فى غمار مهامهم، سيَرهم الذاتية عالقةً بعد بضع صفحات. "نائمٌ وثقب دموى فى صدره" : عنوان على ورقة جريدة استعمارية رديئة، يُقرأ أمام النبيذ الأبيض المُعطر، وثمار الكشمشة على شرفات شارع كاتينا Catinat: "وجدنا مُكتشف جرثومة مرض الدفتريا ميتًا، وقد اخترق رمحٌ صدره فى بلاد Moi" .

يدرك يرسين، وقد فقد الكثير من الدماء، أن الوقت ليس فى صالحه وراح يدير العملية الجراحية. وفقًا لنصيحته، لم ننزع الرمح قبل القيام بقطع اللحم حوله. نَستَل سن الرمح ببطء دون أن نخلع الضلوع، عقمنا مصدر الألم، طهرنا الجروح، وضعنا رباطًا مُحكمًا على الجذع وآخر حول اليد، ورباطًا بطول الساق

المكسورة. نقلناه على نقالة عبارة عن عارشة وخشب البامبو حملها الرجال على أكتافهم لعدة أيام حتى وصلوا به إلى بان رانج **Phan Rang**. هنا يعيش عامل تلغراف، منعزلاً، فى كوخه تحت عامود وشبكة مُعقدة من الأسلاك السوداء المُعلقة، وقد بدا لنا وكأنه مصاب برهاب الخلاء. أخطرنا كالميت فى سايجون بضرورة تجديد الصيدلية. تعافى يرسين بالتدريج. عادت الحياة لسيرتها الطبيعية. ظل المُصاب ساكنًا، وبعد عدة أيام، استعاد هواية كتابة مذكراته. "بطريقةٍ ما، كل ما بقى لى من هذه الحادثة، هو أنى فقدت بندقية ومسدسًا. لا أعتقد أنهم حذرونى من ذلك: سوف يكون الحاكم العام غاضبًا جدًا من محاولة التمرد هذه فى الجنوب، إذ دائمًا ما كان يصرح بصوت جهورى أن بلاد آنام آمنة ومُسالمة تمامًا.. لقد حاول إذن أن يُخمد المسألة، بل أن ينفيها إذا ما احتاج الأمر لذلك. لم أندم على ما فعلته، إنه واجبي".

أثناء التئام الجُرح، راح يَرسين يتدرب على عمل مكتب التلغراف، هو أمر أقوى منه. ساقُه فى الجبس، نقلناه حتى سايجون حيث كتب تقريرَه، رتب بطاقاته، أشار إلى كيفية اكتشاف طرق ممكنة، أعاد كتابة مسودة البيانات المرسومة فى دفاتره بطريقة منظمة. فى فترة النقاهة، يقرأ يرسين المجلات الخاصة بالتكنيك، يرسل إلى فرنسا طلبًا لشراء مواد جديدة. فى الميناء، بمجرد أن يكون على سفرٍ، نساعده على النزول من عربة تجرها الأحصنة الصغيرة. وضع عكازه فى مقصورة فى الباخرة سايجون عند انطلاقها إلى هيبونج **Haiphong**، وتحادث مع خليفته على الباخرة الطبيب الذى يرتدى رداءً أبيض مزينًا بخمس نجوم. نزل على الدرج واستعاد فردوسه فى نها ترانج، ترك الباخرة والإرساليات من أجل كوخه الخشبى الذى أقامه على لسان البحر الخاص بالصيادين. راح يعمل وهو يعرج فى الغرفة السوداء. حَمَّض الصور، أعد العدة لرحلته الاستكشافية الجديدة لمكانٍ أبعد على الخريطة، سيمضى إلى

أقصى الشمال ثم إلى الغرب. إنها الأماكن التى يتوق إليها. يريد أن يفتح طريقًا آخر ما بين تونكين Tonkin ولاوس Laos ، غير طريق ديان بيان فو Dlên Blên Phu الذى افتتحه بافى Pavie ، من قبلَ. أرسل خطابًا إلى فاني: "هذه رسالة إلى مايور Mayor من أجل أن يرسل لى أسلحة جديدة، سأدفع له ثمنها بعد حفلة الاستقبال."

بالضبط قبل رحيله، سمع أنه قد تم إلقاء القبض على سوك، راح يُطَمئِن فاني، أو بالعكس، يثير قلقها: "غدًا، سأعاود الذهاب إلى هناك مرة أخرى، لا أريد أن أفعل ذلك دون أن أقول لكِ إن يدى قد شُفِيَت تمامًا، كما أن رجلى قد شُفيت أيضًا. أنا، إذن، فى حالة جيدة تسمح لى بمعاودة أسفاري. اليوم، قطعنا رأس سوك. ذهبتُ لأشاهد بعض اللقطات. فى الواقع كان مشهدًا رهيبًا. قُطِع رأسُه بعد رابع ضربة سيف. لم يستطع سوك أن يفعل شيئًا. لقد قُتِل هؤلاء الآناميون بدم بارد وبشكل مؤثر حقًا."

فى هذا العام، فى فرنسا، تحل الذكرى المئوية للذعر الناجم عن حوادث القتل المأساوية التى حدثت هنا أيضًا، حيث وجدنا رؤوسًا مقطوعة ومُلقاة فى القمامة، آثرنا ألا نكبدها جولة ثانية من الأسر والمعاناة. فى هذه السنة أيضًا، غادر الأسطول الحربى الفرنسى مدينة سايجون Saigon ليحاصر بانكوك Bangkok، وهذا بناءً على طلب بافى Pavie الذى تمت ترقيتهُ إلى رتبة ضابط شرطة على الحدود. لا يحتمل يرسين أن يعمل دبلوماسياً، وأن يتورط فى كل قاذورات السياسة. رحل بخطى حثيثة إلى حيث يقطن السيدانيون. مرة أخرى، يعبر فُرجة الغابات ومجاهل غابات الصنوبر الضبابية. قابلنا فى طريقنا مستعمرات الملايين من النمل الذى لا يسير أبدًا فى خط مستقيم، مما اضطر القرويين إلى الاستسلام ومغادرة قُراهم. تسلقت قافلةُ المرشدين والماشية الفتية – المُحَمَّلة بالأثقال– الجبال عبر مدقات المنحدر، وعبرت مخرات السيول.

راكبان على ظهر حصانين جنبًا إلى جنب، يرسين والأب جورلاش **Guerlach** الذى قام لتوه برفع البيانات الطوبوغرافية والأنثروبولوجية للمنطقة، وتدوين عقائد ولهجات الصيادين- جامعى الثمار، أملاً فى إنقاذ أرواحهم بدلاً من استعبادهم، كما حاول أن يفعل من قَبل وبلا جدوى، مايرينا **Mayrena** الذى يعرف هنا باسم مارى الأول **Marie I^er^**.

ملاجئ السيدانيين هى أعشاش العُقاب على رأس الجبل، أو محميات مُحاطة بسياجٍ عالية. بعدما عرفنا الأب جورلاش، فتحنا الأبواب على مصراعيها، تآخينا، تبادلنا المنافع، رقصنا، وتقاسمنا الغذاء. فى وسط الساحة أخرج يرسين أجهزته العلمية. جالسًا القرفصاء، ناظرًا إلى السماء، يقيس خطوط العرض والطول، يبحث فى الليل عن النجم القطبى ويقيس الارتفاعات بجهاز البارومتر. يُخرجِ الراهبُ الأبُ الصليبَ والمباخر، يتلو القداس، يتمتم ويرفع يديه صوب إلهٍ غير بعيد عن النجم القطبي. إنها المرة الأولى التى يقابل فيها السيدانيون من هم أكثر توحشًا منهم، ويحضرون أداءهم لطقوسهم الغريبة. استغرقوا فى الضحك حتى راحوا يضربون الأفخاذ مرحًا. على الجانب الآخر، بدا السحرة متبرمين. لن يفوتهم أن يدمجوا بعض البدائل الأخرى بالعرض الذى سوف يقدمونه فى احتفالاتهم القادمة. من أعلى الأسوار، يلوح المحاربون بدروعهم المغطاة بجلد وحيد القرن، أخذوا يصيحون ويتمايلون برماحهم وسيوفهم، متمنين للبيض عودةً حميدة. نزل الرتل المُحارب من الجبل متجهًا إلى أتابو **Attapeu** فى لاوس **Laos** ، عبر الجهة الأخرى لسلسلة الجبال. هذه المرة، سوف تجذبهم هذه الخيول التى تم ترويضها وتسخيرها والتى اكتشفها القرويون.

هبط المُكْتَشفون عبر منحدر إلى وسط الغابات وصُولاً إلى شواطئ نهر ميكونج. تحركوا منذ شهور. تقدموا فى هدوء وعناء. ها هنا فى الأسفل

تتهادى الألوان: الأصفر والأخضر، زمرد وعقيق. تشرق الشمس الباهرة بلون الليمون ما بين الأغصان والنخيل الفارع الذى يتمايل مع هطول الأمطار. ثعابين وضفادع وعفاريت صغيرة حارسة للغابة تكرّ وتفرّ. طيرانٌ متوهج للببغاوات الحمراء. صعدنا صوب الشمال، وعبرنا مرة أخرى سلاسل الجبال، قمنا بدورة كاملة واتجهنا ناحية بحر الصين حتى نصل إلى توران Tourane ثم إلى هانوى Hanoi حيث سلم الأنثروبولوجيان: المسيحى والملحد، التقرير الخاص بكل منهما إلى كل من الحاكم والأسقف. نُرقِّم بالحبر والريشة على العظم، نُحصى جماجم الأعداء التى يهديها السيدانيون للحاكم، هذا علاوة على أسنان الأفيال التى تم جمعها أثناء هذه المهمة. ملأنا الصناديق بهذه الدُمى الإثنولوجية كى نرسلها إلى متحف الإنسان فى باريس.

كل هذا أشبه بالتوقيع الأخير فى سجل الباخرة قبل الهبوط منها إلى الأرض، بالنسبة ليرسين، لم يكن هذا النشاط مختلفًا عن سائر الأنشطة، وإن كان أكثر إثارة من الإبحار. لا يبدى يرسين أى شعورٍ بالإرهاق. إنه على شفا الوصول إلى نهاترانج عبر سفينة الإرساليات البحرية.

لكن هى النهاية أيضًا، بالنسبة إليه، نهاية مرحلة السير على الأقدام لمسافات طويلة، أو السير ركوبًا على سرج الحصان تحت الأمطار، وضع مخطط لأشكال الجبال وطبيعتها، رائحة السماد والجلد المبلول، شواء اللحم فى المعسكر، نباح الكلاب على مقربةٍ من القرى. ما زال يجهل ما ينتظره، يجهل أنه لن يقوم أبدًا برحلات استكشافية من بعد. ينتظره تلغراف من كالميت عند الحاكم العام، الذى يُبلغه أن ثمة تلغرافات أخرى تنتظره فى سايجون، يطالبه رو وباستور بالذهاب بأسرع ما يمكن إلى هونج كونج. إنها بداية التاريخ الطويل لمرض الطاعون. أغلق يرسين آخر دفتر له كمُكتشف، ما زال الحبر رطبًا لم يجف.

كُتِبَت دفعةً واحدة دون شطب، وهى دائمًا مُوَقعة باسم يرسين دون ذكر اسم الأب، وفى بعض الأحيان، من باب السخرية، موقعة باسم د. نام Dr.Nam. ولكن اليوم، فى صيف عام ١٩٤٠، لم يكن يرسين يعرف أن رسائله هذه محفوظة، وظن أن حياته مصيرها المحو. فى كل مساء، يستمع إلى إذاعات العالم على الموجات القصيرة. إنه صيف ١٩٤٠ والعالم ينهار.

أتباع فيشى les vichystes يكلفون الأميرال ديكو Decoux بمنصب الحاكم العام للهند الصينية. وهو من سوف يقود الأسطول الفرنسى إلى الشرق الأقصى. هنا، كما هو الحال فى فرنسا ممنوع الاستماع لإذاعة الإنجليز. سوف يشعر بالضيق. يعلم أن شبابًا قد استجابوا للنداء الذى أطلقه هذا الجنرال المدهش فى شهر يونيو، يبلغ طوله مترين، قبل الحرب كان يقيم فى فندق لوتسيا. ما زال يرسين يستمع إلى إذاعة الألمان، دعايتهم وصيحات النصر. إنها، مرة أخرى، الحرب مع ألمانيا، ومرة أخرى سوف تلحق الهزيمة بألمانيا، وسوف تتناثر أشلاء ملايين الموتى، كما توقع رامبو ببصيرته النافذة، وهو ابن خمسة عشر عامًا، بعدما سقطت مدينة سيدان Sedan والإمبراطورية الثانية. كان يجب على النازيين أن يقرأوا كلام هذا المتنبئ الصغير الذى كتب يقول: «الإدارة الحديدية والجنونية سوف تحبس المجتمع الألمانى والفكر الألماني، وكل هذا من أجل أن يتم سحقها فى النهاية بواسطة التحالف!».

بعد خمسة أيام من إطلاق نداء الجنرال من لندن، وصل الديكتاتور ذو الرداء الأسود والرمادي، والذى يقلد ببراعة شارلى شابلن، إلى مدينة بورجيه Bourget فى فرنسا. إنه يوم الأحد فى الخامسة صباحًا. كان سفر هتلر مُعَدًا، حتى قبل الهجوم، ولهذا السبب، أَخْلَت قوات القائد جورينج Göring ساحة المعركة فى مدينة بورجيه، وسُمِحَ للرحلة الأخيرة لطائرة الخطوط الجوية

الفرنسية: الحوت الأبيض، بالإقلاع. فى الإذاعة، يصف المذيع الألماني، بحماس، انطلاق ثلاث سيارات مرسيدس مرفوعة الغطاء على مدار مسارها وحتى وصولها إلى باريس مع الضوء الشفيف لفجر شهر يونيو، يتتبعها حشدٌ من المصورين والمخرجين. يصطحب الديكتاتور ذو الملبس الأسود والرمادى المهندسَ المعمارى ألبرت سبير **Albert Speer**، إنه يريد أن يصمم مبانى فى برلين أكثر جودة وجمالاً من تلك التى توجد فى باريس. هرولنا لزيارة الأوبرا، كنيسة مادلين **Madeleine**، ميدان الكونكورد **Concorde**، شارع الشانزليزيه **Champs-Elysees**، برج إيفل **Eiffel**، وقصر تروكاردو **Trocardéo**. يرى باريس للمرة الأولى، هذا الذى كان يزعم فى كتابه "كفاحى" أنه يتمتع بموهبة التصوير "التى لا تتجاوزها إلا موهبتى فى التصميم، ولاسيما فى مجال العمارة".

لم يفلح هذا الولع والافتتان فى مصالحة يرسين على الفنون: كل هذه الترهات من الرسم والأدب. وبدا الأمر وكأن هذين الشخصين: هتلر وجورينج **Göring** يتمسكان بالحرب العالمية لهدف وحيد ألا وهو إثراء مجموعاتهما من اللوحات التشكيلية، يتنازعان فيما بينهما للاستحواذ عليها. يتساءل يرسين عن مصير الشاب لويس باستور لو لم يكن كيميائيًا، وكان رسامًا للصور الشخصية البورتريه، هل كان سيهتم بهذه الهواية فى إقليم الجورا مسقط رأسه؟ باستور الفنان، الذى فى غمار أبحاثه العلمية، سوف يستمر فى التدريس فى مدرسة الفنون الجميلة فى باريس.

عندما تَقَدَّم الألمان الأوائل إلى المعهد، فى هذا الصيف من عام ١٩٤٠، أى بعد فترة قليلة من سفر يرسين، طلبوا زيارة قبو الكنيسة المدفون فيه باستور. لكن الخادم العجوز، جوزيف ميستر، وهو أول شخص تم إنقاذه من مرض السعار، منعهم من الدخول. دفعه الجنود بقوة وأزاحوه. دخل الضباط قبو

الكنيسة. انتحر جوزيف ميستر - هذا الرجل العجوز القادم من الألزاس- فى غرفتهِ بالمسدس الذى استبقاه من الحرب العالمية الأولى.

عرف يرسين من إذاعة ألمانية أن العلم ذا الصليب المعقوف يرفرف على سطح لوتسيا أعلى غرفته فى زاوية الفندق فى الدور السادس. لقد أصبح الفندق مقرًا لأبوار **Abwehr** ، هيئة المخابرات الحربية: هؤلاء الضباط ذوو اللباس الأسود فى رمادي، تحلقوا حول البيانو، استنفدوا مخزون الكونياك. بعد حرب فرنسا، ها هى حرب إنجلترا التى تدمرها طائرات جورينج الألمانى ، هذا الهاوى للتصوير، كان يرسل، سرًا ودون علم هتلر، فرقًا مكلفة بالبحث فى المدن المحتلة عن لوحات فنية تم تكريسها بوصفها روائع من قبل جماعة من المتخصصين فى الفنون كان قد شكلها.

بعد شهرين من زيارة هتلر لباريس، تم اغتيال تروتسكى**Trotsky** فى ٢٠ أغسطس ١٩٤٠ وهو فى ملجئه فى المكسيك **Mexico**، على يد رجال ستالين **Staline** المتحالفين مع هتلر المتحالف هو نفسه مع اليابانيين. كل القطع أخذت مكانها على سطح العالم لإظهار الصورة كاملة. وبعد عشرة أيام لاحقة، فى ٣٠ أغسطس ١٩٤٠، غادرت القوات اليابانية إلى تونكين **Tonkin** واحتلت هيبونج **Haiphong** وهانوى **Hanoi**. وضع الضباط سيوفهم على المناضد فى فندق ميتروبول **Métropole** واستنفدوا مخزون الكونياك. احتُلَّت الهند الصينية. جالسًا على كرسيه الهزاز أمام البحر، انتظر يرسين مجيء الشرطة العسكرية للإمبراطورية اليابانية لتستقر فى منزله، فربما تجعل من بيته الكبير المربع ساحةً لقيادة السلاح الألمانى فى نهاترانج، لقد بحثوا فى كل أنحاء المنزل دون جدوى عن زجاجة كونياك.

ثمة صراعات قديمة ، أصلاً، بين يرسين واليابانيين.

فى هونج كونج

ها نحن نرى الرجل العجوز، الذى أغلق دفتره القديم، مرة أخرى فى هانوى Hanoi فى زى المُكتشف العائد من بلاد السيدانيين، سترةً من الصوف الأخضر وعليها حمالة لحفظ مُعداته. طلب إجازة من الأب جورلاش Guerlach. يبلغ من العمر واحدًا وثلاثين عامًا. ذهب إلى سايجون، قرأ البرقية المُرسلة إليه من رو، الذى لم يره منذ المؤتمر الذى ألقى فيه محاضراته فى الجمعية الجغرافية. البرقيات، من طرف رو وباستور، والتى ينفجران فيها غضبًا. ينهالان على السلطات بشكواهما. يتعامل الباستوريون، دائمًا، مع يرسين على أنه واحد منهم، يعمل معهم، يدخرونه لخدمة العلم. أرسلنا رسائل إلى نهاترانج، وعلمنا أن يرسين ذهب إلى الجبل. الجبل! انزعج رو ، رفع منكبيه ضجرًا.

وكأن جمال البحر لا يكفيه.

عشرون عامًا قبل الحرب العالمية الأولى، ومع ذلك ظلت المعركة العلمية، والمعركة السياسية والتحالفات دائرة كما هى إلى ما بعد الحرب. وصل وباء الطاعون من الصين إلى تونكين، وفى شهر مايو، تفشى فى هونج كونج. خيم الفزع الهائل على الآفاق، وسرعان ما توالت المجازر. انتشر الذعر بين الإنجليز فى مدينة كاولون Kowloon بهونج كونج، وبين الفرنسيين فى هيبونج Haiphong فى فيتنام،. ساد الرعب فى كل الموانئ التى ترتبط بعلاقات اقتصادية مع الصين.

فى مرحلة السير على الأقدام وركوب الخيل والعربات ذوات العجلات التى نسمع لها صريرا وتجرها الثيران، وفى مرحلة الإبحار على متن المراكب الشراعية، كان الطاعون يتقدم بخطوات ثابتة ويحصد الأرواح. **توفى خمسة** وعشرون مليون شخص فى القرن الرابع عشر. **يستخدم الأطباء، بزيهم** الأبيض، كمامات بيضاء مزودة بقطعة على شكل منقار العصفور، **هذه القطعة** محشوة بالأعشاب الفواحة لتنقية الجو من الروائح النتنة. **انتشر الرعب بسرعة** مناسبة طردًا لسرعة وسائل النقل، **يتتبع الطاعون الدخانَ فى عنان السماء،** يتتبع الكهرباء، سكك الحديد، والبواخر البخارية العملاقة. **أمام هذا الرعب** الأسود الرهيب، لم يكن الطاعون وهمًا، نستطيع أن **نسمع صفيره بين سيقان** النباتات، إنه جنون حصاد السيَّاف الذى انطلق **بأقصى سرعة وسط حقول** القمح كالنار فى الهشيم. ما من علاج، لا **يمكن التنبؤ بمجرى وباء الطاعون،** وباء غيرمرئى ومميت، مُعْدٍ ولا منطق له. يشيع القبح والموت **أينما حلّ. ينشرُ** بين أرجاء العالم عصارة سوداء أو صفراء للدمامل التى تظهر على جسم الإنسان وتخترقه. فى ذلك العهد، يمكننا أن نبحث عن الوصف الطبى الدقيق للمرض فى مقالٍ عن الأمراض الوبائية للبروفسير جريسينجر **Greisinger** من جامعة برلين، وهو ما ذَكَّرَ به ونَصَّ عليه مولاريه **Mollaret** من بعد. ظهر بحث جريسينجر منذ خمسة عشر عامًا قبل الحرب العالمية الأولى، ويشير فيه إلى أن وباء الطاعون يظهر فى "المجتمعات البائسة، الجاهلة، القذرة، والبربرية، بدرجة لا تصدَّق".

فى سايجون، اقترض يرسين بعضًا من المواد الطبية التى نضعها بحذر فى حقيبة مقصورة الباخرة، هذه المواد عبارة عن أنابيب اختبار، رقائق مجهرية وجهاز للتعقيم. عاد إلى هانوى والتقى بالدكتور لوفافر **Lefèvre** ، وهو طبيب بعثة بافى **Pavie**، هذا الطبيب هو الذى سوف يصطحب مكتشف لاوس **Laos**

حتى موانج سينج **Muang Sing**، من أجل ترسيم الحدود الصينية. لوفافر **Lefèvre** رجل سياسة، وهو لا يخفى ذلك: «يا زميلى العزيز، لن تكون المسألة سهلة مع الإنجليز». من بومباى حتى هونج كونج، سوف تمتد المستعمرات البريطانية، وسوف تبسط نفوذها الكامل الممتد بلا انقطاع على كل هذه الأراضى الشاسعة، لولا وجود الفرنسين فى الهند الصينية كالشوكة فى الحلق. ولهذا السبب، قام الإنجليز باستدعاء الأطباء اليابانيين، وكأنهم يوعزون للألمان بأن يستخدموا معهد كوخ **Institut Koch** ضد معهد باستور **Institut Pasteur**.

فى هذه الأثناء أضاف لوفافر قائلاً، إن شخصًا إيطاليًا يتحدث اللغة الفرنسية هو الأب فيجانو **Vigano**، وهو مُرَاسِل مُبَجل وضابط قديم فى سلاح المدفعية، قد مُنِحَ وسامًا فى معركة سولفرينو **Solferino** قبل أن يلتحق بالجندية، رجل زاهد كاثوليكى بالنسبة للبروتستانت، مستعد لإنقاذ وضع الجمهورية الثالثة إكرامًا للإمبراطورية الثانية التى استطاعت أن توحد إيطاليا. بدا هذا التصرف بالنسبة ليرسين، أكثر غرابة من حياة سكان بلاد **Moïs** مواس. سنستدعى السويسرى والإيطالى لخدمة فرنسا. سافر يرسين إلى هونج كونج فى منتصف شهر يونيو، توجه مباشرةً إلى مستشفى كندى تاون **Kennedy Town** التى يديرها الدكتور لاوسون **Lawson**.

منذ وطئت قدماه الميناء، تحت المطر الغزير، رأى جثث المصابين بالطاعون مترامية فى الشوارع والبرك، وسط الحدائق وعلى حافة السفن الشراعية. تلقى الجنود البريطانيون الأوامر بحمل المرضى وإخلاء منازلهم وتكويم كل شيء وحرقه، يصبون الكلس وحمض الكبريت، يبنون حوائط من القرميد الأحمر لحظر الدخول إلى الأحياء المصابة. التقط يرسين صورًا لكل هذا، فى المساء، كتب ما شاهده من جحيم تحت السماء الرمادية والأمطار المنهمرة. أصبح اللوذ بالمستشفيات الغارقة أمرًا بلا جدوى. فى كل مكان تقريبًا، فتح لاوسون منافذ

للحجر الصحي كمأوى للمُحتضرين: فى مصنع قديم للزجاج، مذبح جديد فى طور الإنشاء أو أكواخ من القش مُصادرة. نلقى هنا الحصير على الأرض التى سوف نحرقها مع شاغلها. أقبل الموت وشاع فى بضعة أيام. على وقع الأمطار الساخنة والصراخ، تدورعربات مُحَمّلة بالجثث المُكَدَّسَة. "لاحظت وجود الكثير من الفئران الميتة مُلقاة على الأرض". الملاحظة الأولى التى سجلها يرسين، فى هذه الليلة ذاتها، تتعلق بالمجارى التى تطفح والفئران المتحللة. منذ كامو Camus يبدو الأمر بديهيًا ولكنه لم يكن كذلك. هذا هو ما يدين به كامو ليرسين عندما كتب روايته "الطاعون La Peste" بعد أربعة أعوام فقط من وفاة يرسين.

عبر برقية، وإعرابًا عن هَمّ دبلوماسي، سمح الحاكم الإنجليزي، سير روبنسون Robinson، ليرسين بالحضور لدراسة الطاعون فى هونج كونج. ولكن النية السيئة للإنجليز كانت واضحة، وهى أكثر سوءًا مع اليابانيين، ولاسيما فريق شيباسابورو كيتاساتو Shibasaburo Kitasato، الذى أراد أن يستبقى لنفسه تشريح الجثث وفحصها. لأيامٍ مديدة، تابع كيتاساتو ومساعده البرنامج التعليمى للعالم الألمانى كوخ. وصلَ كيتاساتو ويرسين إلى ألمانيا فى العام نفسه: يرسين فى ماربورج Marburg وكيتاساتو فى برلين Berlin ، حيث مكث لمدة سبع سنوات مجاورًا لمُكتشف جرثومة السُّل. عندما قام الدكتور لاوسون Lawson بتقديم يرسين لهم، تحدث يرسين معهم باللغة الألمانية، استغرقوا فى الضحك دون أن يجيبوا: "يبدو أني، منذ الحقبة التى ذهبت فيها إلى ألمانيا، قد نسيت اللغة بعض الشيء، وبدلاً من أن يستجيبوا لي، راحوا يتضاحكون فيما بينهم".

لا يستطيع كيتاساتو أن يتجاهل اسم يرسين واكتشافه هو ورو سُمّين الدفتريا Toxine diphtérique. كان كيتاساتو يُشارك العالم كوخ عداءَه المطلق لباستور ومعاهدِه. يجب أن نفهم، أيضًا، فى إطار هذه المنافسة بين كوخ

وباستور، أننا نعيش هذه المرة ذروة التنافس الكبير بينهما. سوف نكتشف جرثومة الطاعون، هذا إذا كان جرثومةً، فلن يستطيع أحدٌ منا أن يفرّ قط. وأبدًا، لن تسنح له هذه الفرصة الفريدة فى تاريخ الإنسانية، مرة أخرى ، ليَكُن هو المُنتصر على الطاعون. انقضت بعضُ أسابيع الخراب، وها هى آلاف الجثث مُتاحة للدراسة. هذه هى الفرصة الوحيدة السانحة للقضاء على هذه الجرثومة وهذا الوباء. يعلم يرسين وكيتاساتو أنهما يدينان بالفضل لكوخ وباستور اللذين أتاحا لهما الوجود ها هنا. كوخ وباستور هما العبقريان المُطلقان اللذان سيصبحان مثل جاليليو**Galilée**. يرسين وكيتاساتو يعرفان جيدًا أنهما قزمان محمُولان على أكتاف عبقريَيْن. لكيتاساتو الأولوية على هذه الأرض، لن تكون هناك أى جثة فى متناول يد يرسين.

على هذا النحو، كان يمكن ليرسين أن يعتبر نفسه مهزومًا ويعود إلى البحر. أما الأب فيجانو **Vigano** فهو معتاد على هذه السبل الفاتيكانية المُراوغة إلى حدٍ ما، والتى عادةً ما يرفضها الزاهد البروتسانتى السويسرى الفودوازي. بجوار مستشفى أليس ميموريال **Alice Memorial Hospital**، راح يرسين يصنع، فى يومين، صندوقًا كبيرًا من الخشب البامبو ويغطيه بالقش، ها هو السكن وها هو المعمل، حيث وضع سريرًا من أسرَّة المعسكرات وفتح حقيبته التى كانت معه فى مقصورته على الباخرة ، ووضع الميكروسكوب والأنابيب الاختبارية. يرشو الأب فيجانو البحارين الإنجليز المسئولين عن مشرحة المستشفى حيث تتوافد جثث الموتى انتظارًا للجزار أو القبر، وفروا لهُ بعض الجثث. راح يرسين يلعب بالمشرط: "ما زالت الجثث فى التوابيت مُغطاة بالكلس. قمتُ بإزالة بعض الكلس حتى أرى منطقة الفخذ". استعاد يرسين الإحساس بسعادته فى باريس بأنابيب الاختبار والطائرات الورقية. "الدّمل واضح، رفعتُ العينة فى أقل من دقيقة، وصعدتُ بها إلى معملي. قمتُ سريعًا بالتحضيرات المعملية اللازمة، وضعتُ

العينة تحت الميكروسكوب. من النظرة الأولى، تكشفت لى عصيدة حقيقية من الجراثيم، كلها متشابهة، هى أشبه بمجموعة من العصيان القصيرة والسميكة، أطرافها دائرية".

كل شيء قد قيل. ما من حاجة إلى تحرير كتابٍ عن الذكريات. يرسين هو أول شخص يكتشف جرثومة الطاعون، مثله مثل باستور الذى كان أول من اكتشف جرثومة داء الجَمرة الخبيثة لدودة القز، مرض كربون الخروف، كوليرا الدجاج، وسعار الكلاب. فى أسبوع واحد فقط، كتب يرسين مقالاً سوف ينشر أول سبتمبر فى حوليات معهد باستور.

كيتاساتو الذى كان يرفع العينات من الأعضاء ومن الدم، تغافل عن الدمل العفن، وراح يصف جرثومة ذات الرئة الناتجة عن إصابة جانبية، واعتبر أن هذه هى الجرثومة اللعينة. لا قيمة للعبقرية بدون الصدفة والحظ. لكن يرسين، اللاأدري (والذى ينكر قيمة العقل وقدرته الكلية على المعرفة) تُباركه الآلهة. كما ستبين الدراسات اللاحقة، استفاد كيتاساتو من معمل حقيقى فى المستشفى، وفرن تجفيف تم ضبطه وفق حرارة الجسم البشري، وهى الدرجة التى يتكاثر فيها جرثوم ذات الرئة، بينما تنمو جرثومة الطاعون بشكلٍ أفضل عند حوالى ثمانٍ وعشرين درجة مئوية، وهى متوسط درجة الحرارة فى هذا الفصل فى هونج كونج، وهى أيضًا درجة الحرارة التى أقام عليها يرسين دراسته واستخلص ملاحظاته من دون الاستعانة بفرن التجفيف الذى جُرد منه.

فى ذات الوقت الذى أرسل فيه نتائج تجاربه إلى باريس، أرسل النتائج المُستخلصة إلى لاوسون، الذى بدوره أرسلها على عجل إلى اليابانيين. انزعج يرسين من ذلك ولكنه وجد نفسه بين المطرقة والسندان: "كان عليه أن يكون حذرًا أكثر من ذلك. إنه هو دكتور لاوسون ،الذى بعد أن اطلع على تجاربي،

نصح اليابانيين أن يبحثوا عن الجرثومة فى أجزاء الجسد الذابلة. لقد اكد لى بنفسه، كما أكد لى آخرون، أن الجرثومة التى عز لها اليابانيون فى البداية لا تشبه على الإطلاق الجرثومة التى اكتشفتها" . اختص كيتاساتو نفسه بالنجاح وأثار جدلاً علميًا وسياسيًا. ولكن الأمر قد كُشِفَ، وقُدم الدليل على أن يرسين، الذى لم يعرف أبدًا أباه، ولن يكون أبدًا أبًا ، وجد نفسه ،على الأقل، حين أُثبِتَت أبوّته لهذا الاكتشاف: فقد نُسبت جرثومة الطاعون إليه ،إلى اسمه.يرسينيا بيستيس.Yersina pestis

حبس يرسين نفسه لمدة شهرين فى منزله المصنوع من القش، أخذ يفحص الفئران الميتة ويدرس وظيفتها فى انتشار الوباء، مُتبعًا نموذج باستور فى مدينة بيوس ×Beauce فى فرنسا، التى أجرى فيها أبحاثه عن الجمرة الخبيثة. قام يرسين بأخذ العينات فى حى Taypingshang الموبوء وأرسل النتائج إلى كالميت: "أنتم تعلمون أن البحث عن جرثومة على الأرض ليس أمرًا يسيرًا، وحتى إذا لم نعثر عليها، فلا نستطيع أن نستخلص من ذلك أنها لا توجد البتة. إذن، فى إطار هذا الاقتناع الشخصى بأننى لن أجد شيئًا تمسكتُ أكثر فأكثر بالقيام بهذه التجربة" . أعددتُ عينات من التراب الأسود المُخفف بالماء وبذرتُه فى أنابيب من مادة هلامية مُستخلصة من الطحالب البحرية ، يسبح فيها خيطٌ بلاتيني. "تصوروا أن من أنبوبتين فقط، حصلتُ على عدة مجموعات خالصة من الطاعون، دون أى جرثومة أخرى غريبة" .

بوصفهم وكلاء للصحة العامة، أراد الإنجليز أن يتحفظوا عليه. لقد رحل اليابانيون. نرى بوضوح أن الحواجز المصنوعة من القرميد الأحمر عند مداخل الشوارع، تحظر دخول الصينيين، لكنها لا تعوق حركة الحيوانات. ولكن يرسين قرر أن يغادر هونج كونج. كتب للحاكم العام فى هانوى Hanoi قائلاً " أرى أن الهدف من مهمتى فى هونج كونج قد تحقق، بما أنى قد استطعت عزل جرثومة

الطاعون، والقيام بالدراسات الأولى على خصائصها الفيسيولوجية، وقد أرسلت إلى باريس مادة عملية كافية فى هذا الصدد". فى منتصف شهر أغسطس، فى الميناء، ألقى التحية على القس- الجندى التقىّ فيجانو. عاد إلى سايجون ليحرر تقريره عن المهمة بوصفه تقرير اكتشاف، وليُعيد الأدوات المَعْملية التى استعارها. كتب فى الدفتر النتائج التى توصل إليها: "الطاعون، إذن، مرضٌ مُعْدٍ وقابل للتلقيح. من المحتمل أن تكون الفئران هى الوسيط الرئيسى لتفشى الوباء، ولكنىَ لاحظتُ، أيضًا، أن الذباب يُصاب بهذا المرض."

فى ظرف شهرين، فى هونج كونج، طُوِيَت صفحة التاريخ المُريع لوباء الطاعون. لديه فكرة أخرى. يرسين مُتعجل دائمًا. كما لو أنه قد اكتشف جرثومة المرض ليرضى عصبة الباستوريين الصغيرة، هكذا فى لمح البصر أنجز اكتشافه، الآن، لديه ما هو أفضل ليفعله، سوف ينهون هم العمل كما ينبغي، يشارك فى العمل بلا تحفظ ليصل بأسرع ما يمكن إلى اللقاح، ويرسل عينات من الجرثومة فى قارورة زجاجية مختومة إلى كل مكان تقريبًا، كتب إلى كالميت:

"لا أشعر بالشقاء إلا مع مع دكتور رو، لن تصلوا إلى النتائج سريعًا."

لقد انتهت، بالنسبة له، رحلات الاستكشاف والإبحار. يريد أن يستقر فى نهاترانج، أن يقوم بتربية الأغنام أو أن يتجه إلى الزراعة، هذه هى الحياة الحقيقية، هذا هو الواقع الخشن الذى يريد أن يعيشه. لن يعاود حياة البَحَّارة المُملة، ولم تعد سنُّه تسمح له بحياة المكتشفين والصراع مع أمثال سوك. لقد استعاد،أيضًا، روح البحث، الأنابيب الاختبارية والميكروسكوب والطائرات الورقية. من أجل ذلك يجب أن يحصل على المال، أن يتسول ثلاثة قروش. إن شهرته مُقدرة لدى السلطات، وربما ليرهبهم، سوف يستشهد بعبارة وردت فى إحدى مسرحيات موليير **Molière** على لسان لا فلاش **La Fléche**.

يتفشى الطاعون بسبب البخل والبخلاء.

فى نـهاترانج

بمجرد عودته، شرع فى إنشاء مركز صغير لدراسة الأمراض البيطرية، تخيل الإنشاءات وتربية المواشي. خصصت له بعثةٌ حكومية خمسةَ آلاف قرش، بهذا المبلغ جهَّز معملاً صغيرًا للطب البيطري. اشترى بهذه الأموال الزهيدة الأجهزة المعملية اللازمة لمعمل صغير فى الطب البيطري. ينوى إجراء الأبحاث بمفرده ووفق إيقاعه. بدأ الأمر على مقربةٍ من الكوخ الخشبى على لسان الصيادين، فى Xôm Côn اكزوم كون ، فوق الرمال وفى الهواء الذى يداعب أشجار جوز الهند أمام رصيف الميناء، حيث يقوم الصيادون فى الصباح باستخدام الساطور لشق بطون الأسماك الكبيرة الزرقاء، وينزعون أحشاءها أمام المياه.

لا يرغب يرسين فى مُغادرة هذا المكان قط، يريد أن يُطعم حيواناته الصغيرة: الفئران والقرود والأرانب فى أقفاصها المصنوعة من البامبو، من أجل استخدامها فى تجاربه المعملية. ينقصه مكانٌ لإيواء الجاموس والماشية الأخرى. إنه قريب جدًا من البحر. فى فصل الأمطار الموسمية، والنخيل المتناثر، والفيضانات، قد يبحث عن مكانٍ أكثر أمنًا ليبني زرائب وإصطبلات لحيواناته. ما من طريق يؤدى إلى داخل البلاد. صعد على متن زورق إلى نهر كاي Cài الذى يصب فى البحر. وعلى بعد عشرة كيلومترات، يصل إلى القلعة القديمة Khành Hóa، حيث يأوى عشرون حصانًا و الكثير من الثيران والبغال. يحتاج إلى طبيب بيطري.

فى نهاترانج استعان يرسين بأبناء الصيادين الذين صنع منهم مساعدى مختبر فى مبناه الصغير، كما استعان بكالميت ليزوده بالمعدات والأوانى الزجاجية، المنقولة بعناية بحرًا من سايجون ، والتى تم إنزالها إلى الأرض هى والمجلات العلمية ودراجته الجديدة ماركة بيجو التى طلبها من فرنسا من عند صانعها الماهر. فى الصباح، فى الشرفة يضع المخططات، وبعد الظهر يباشر أعمال بناء المعمل، أما فى المساء فيمكث فى كوخه ليحرر كتابه: عند سكان قرى الهند الصينية، الذى سوف يُطْبَع منه خمس عشرة نسخة لحساب المؤلف. لم يَسْعَ يرسين أبدًا للتكريم ولكنه، أيضًا، لم يرفضهُ أبدًا. وفقًا لنصيحة كالميت، عَيَّن طبيبًا بيطريًا عسكريًا جاء من سايجون ، اسمه بيساس Pesas، و سرعان ما سيتم تكريمه فى مجال علم الجراثيم microbiologie.

أراد يرسين أن يبقى هنا، على لسان الصيادين أمام المياه المتلألئة فى الخليج الصغير، الذى تَحُفّه باقاتُ زهور النخل الهندى وتتضافر على ضفافه نباتاتُ التنبول العَارِشة ، وجوز الهند ، والأطفال، والشِبَاك التى تستعيدها النساء من على الشاطئ. فى المساء، تحلق فى سمائه الوطاويط، بعيدًا عن رعب المدن المُصابة بالصراع والصَّرع. يرغب يرسين فى أن يبقى هنا فى قلب الحياة الحقيقية. أحيانًا، عندما يخيم المساء، يتذكر القبطان فلوت Flotte الذى يدين له بكل ذلك: البقاء فى نهاترانج، واكتشافه لها، وشهرته: "ومع أني،بصفة عامة، لا أبالى تمامًا بهذه الأوسمة، فأنا فى غاية السعادة لحصولى على وسام جوقة الشرف، وهو ما سوف يُيَسر لى الكثير من الأمور". هنا أيضًا، كما هو الحال بالنسبة لعلم السكان والأمل فى الحياة، ينبغى أن نحذر من أية مغالطة تاريخية. ففى هذه الحقبة لم تكن الأوسمة تُمنَح للاعبى كرة القدم.

فى هذا العام، قام الضابط الشاب فى سلاح الفرسان هوبر لوايوتيه Hubert Lyautey بزيارة العالم يرسين فى خلوته، كان هذا الضابط قد قضى

عامين في الجزائر، حيث انتقد، إلى حد ما، النظام الاستعماري، وهو وريث العصبة الصغيرة للصحراويين والقبطان رامبو **Rimbaud** . زيارته لهُ في منزله الخشبي، نوَّه إليها نويل برنار **Noël Bernard** أول كاتب للسيرة الذاتية ليرسين. هذان الشخصان لهما ذات الميول.

لوايوتيه **Lyautey** الذى عاد من مهمة فى مدغشقر، كان مُعجبًا بروح المبادرة التى يتمتع بها هذا الباستوري، المُكتشف لجرثومة الطاعون. كان هذا الاكتشاف مثار حديث براق فى الصالونات الباريسية. زار لوايوتيه الزريبة والإصطبل والمعمل الصغير على شاطئ النهر: "لقد بدأ بدون أية موارد مالية، بالطبع، ومع ذلك جلب عشرين حصانًا فى مقابل خمسة عشر قرشًا للواحد، بوصفها حيوانات للتطعيم، وهو ما استدعى الاستعانة بالطبيب البيطري، بيساس **Pesas**، الذى دعم المعمل وجهزه: ثم ها هو يرحل. إنها ساعات منعشة ومُشجعة تلك التى نقضيها فى هذا المبنى، هذا المكان البدائي، مع هذا العَالِم الشاب، الذى لا يسعى إلى أية منافع شخصية، إنما هو مُتشَبث بحلمِه".

فى باريس، منذ بضعة شهور، ذاعت قضية دريفوس **Dreyfus**. وكما حدث من قبل، حين اتُّهِمَ اليهود بأنهم السبب فى تفشى وباء الطاعون، نرتاب، اليوم، فى أنهم تسببوا فى الهزيمة وخانوا فرنسا. يأسف يرسين لغياب المعلومات. "تسألينني عن رأيى فى قضية دريفوس، لا أستطيع أن أكوِّن رأيًا ، بما أنه ما من أحد يعرف تفاصيل القضية. من المحتمل، إذا كان الجنرالات لا يرغبون فى الكشف عن هذه التفاصيل، فهذا يعنى أن مثل هذا الكشف له عواقب وخيمة". لوايوتيه واحدٌ من الذين يفترضون براءة الضابط دريفوس، فقد خاطر بكتابة شكوكه فى حكم المحكمة العسكرية. "وما يزيد من ارتيابنا هنا، ما يبدو من ضغط من قبل الرأى العام أو بالأحرى الشارع، أو الجماهير"، وبالتالي، هذان الشخصان يمقتان الرأى العام والغوغائى للجماهير "فهم يهتفون: الموت

لهذا اليهودي، لأنه يهودي، وحتى يومنا هذا ما زالت معاداة السامية مستمرة". ولكنه لحن متكرر يردده أنصار الضابط دريفوس عن هذا اليهودي. شأن أمثولة الأعمى والكسيح. وكان جديرًا به أن يعلن عن موقفه بلا خجل، وجديرًا به الجملة التى قالها كليمُنسو Clemenceau، الذى رغم كونه من أنصار دريفوس، لم يبد إعجابًا بشجاعة لوايوتيه. "ها هو رجل مثير للإعجاب، شجاع، يتخذ دائمًا موقفًا جريئًا وإن كان غير مناسب". كانت الحياة السياسية الفرنسية أكثر السياسات ذكورية، أحيانًا تدور الأحاديث فى الغرف المغلقة و تنتهى أحيانًا عند الفجر وقت خروجهم للطريق العام. يعلم يرسين، تمامًا، أنه مهما حدث، لن يكون من السهل عليه أن ينأى بنفسه عن كل قاذورات السياسة هذه.

فــى مدغشـقر

ليست حياة تلك التى لا حركة فيها.

كان عمره ستة وعشرين عامًا عندما كتب، من باريس، هذه الجملة على الوزن السكندرى على طريقة رامبو، فى نهاية رسالته المُوَجَّهة إلى فاني. لقد تحرك كثيرًا. مرة أخرى، فى الثانية والثلاثين من عمره، تلقى تلغرافًا تركناه له فى محطة سايجون، وراح يرسين وهو يطوى الورقة الزرقاء فى كوخه الخشبي، يلعن الاختراع. نرجوه "أن يرحل بأسرع وقت ممكن إلى دياجو-سواريز Diego Suarez ليدرس جرثومة الحمى الصفراء". لقد تم إرساله فى مهمة من قبل الجمهورية، غادر نهاترانج ورحل إلى سايجون بالقطار البخاري.

تحسنت حالتُه المادية، يلبس هندامًا سمنى اللون أنيقًا، اصطحب معه شابًا، يصعب تحديد مهامه، ولا نقصد بذلك وظائفه، ولكن نقصد الاسم الدال على هذه الوظائف، مهنى المعمل أو سكرتير أو مساعد. منذ ذلك الحين، سيصطحب يرسين، كلاً بدوره، شابًا من شباب زمرة قليلة ممن يطلق عليهم مساعدوه الآناميون، إنها عصبة يرسين الصغيرة التى تتكون من أبناء الصيادين الذين صنع منهم مساعدى مختبر، وأيضًا، عمالاً فنيين للعناية بالماكينات وأيضًا السيارات من بعد. أمام الترسانة البحرية، رحل الرجلان إلى عدن على خط سفينة الإرساليات، الدرجة الأولى.

هذه المرة، وصل يرسين إلى اليمن. عند هبوطه من الباخرة، سلمه القنصل الفرنسى تعليمات الوزير. اكتشف مناخًا حارًا قائظًا مستعرًا بمجرد نزوله إلى الشاطئ الصحراوى الذى تكثر فيه الكثبان المُزججة، حيث تسطع شمس الربع الخالى فى الجزيرة العربية: "البيئة هنا عبارة عن صحراء من الرمال الجافة تمامًا. لكن مسام جدران المنزل تمنع دخول الهواء، ونشعر أننا نُشوى وسط هذه الحفرة وكأننا فى فرن قمينة جير". تم استقباله من قبل البيض ذوى الأردية البيضاء وكأنه نجم، او مبشر من المُبشرين بالحداثة. دعوناه فى شرفة فندق جراند أوتيل دو لونيفر **Grand Hôtel de L'Univers** بالقرب من منزل المفاوض باردي **Bardey** حيث أقام وأثرى هذا الشاعر رامبو الذى توفى منذ أربع سنوات، والذى تشيع عنه أسطورة هنا، وهى أنه يخفى فى سرواله ثمانية كيلوجرام من الذهب تعيق قدرته على السير على نحو سليم. يقينًا، لن يصبح يرسين أكثر ثراءً من رامبو.

بعد الجزيرة العربية، ذهبا إلى إفريقيا، وأخذ الرجلان وقتهما. هو والشاب المساعد الذى لم يكل من السفر، كما نتصور. إنهما أشبه بفيكس **Fix** وفيلياس فوج **Phileas Fogg** (بطلا رواية ٨٠ يومًا حول العالم ، جول فيرن). هذا طريف جدًا. زار يرسين مصر وراح يزور الأهرامات والمعابد، ركب فلوكة فى مياه النيل الخضراء، علم أن ليفنجستون قد وافته المنية فى تنجانيقا **Tanganyika**، وهو يبحث عن منابع النيل. سافر إلى زنجبار**Zanzibar** ، ثم إلى جزيرة لاريونيون **La Réunion** حيث أقام، واستعلم عن الزراعة، والورود ونبات القرفة، وهنا تحلق أبيات شعرية للشاعر بودلير تحت رعاية الملائكة. الطفل المغضوب عليه تسكره الشمس. ها هو الهبوط البطيء فى غمار المحيط الهندي، عند خط الاستواء، تغوص الباخرة فوق نسيج ذهبى مموج، قناة موزمبيق وجزر القمر ومدغشقر. بعد ثلاثة أشهر من التجوال، استقر الرجلان فى نوسي- بيه **Nossi-Bé**.

بقيا فى الجزيرة، « وبدلاً من من الذهاب إلى مدينة مازينجا **Majunga**، قررا الذهاب إلى نوسي- بيه ، لأن فى هذا المكان لا توجد الحمى الصفراء، وكذلك لأن نوسي- بيه هى المكان الأجمل على الإطلاق الذى يمكن أن تقيم فيه" . يحب يرسين شواطئ البحر.

جالسًا على الكرسى الهزاز فى الشرفة، يروى ظمأه بالماء البارد المنقى بالفلتر من طراز شمبرلاند **Chamberland**، و كوب من الليمون. فى هذه البلاد لا يوجد شتاء ولا صيف، وإنما ربيع وخضرة دائمة والوجود حرّ وعفوي. كان مقتنعًا بأنه يتحرك من مكان إلى آخر بلاجدوى. ولكنه امتثل للأمر. تجول قليلاً فى البلد، قام بأخذ العينات، جهز الميكروسكوب والحقن، درس علم النبات وتقليم الأشجار، اكتشف أشجارًا فريدة وفواكه لذيذة. لأول مرة يقف أمام شجر المطاط.

أدار يرسين بين يديه كرة مطاطة من مُستخلص شجر المطاط، يفردها، يشكلها على هيئة تاج: عجلة لدراجته البيجو **Peugeot**. هو معجب بحدس وعبقرية مخترع عجلة المطاط. يرتاب فى أن يبقى اسم دانلوب **Dunlop** محفورًا فى الذاكرة الجمعية أكثر من اسم من اكتشف جرثومة الطاعون، وذلك لأن عجل المطاط سيتكاثر والطاعون سيزول. لم يعلم، ربما، حينها، أنه خلال قرن من الزمان سوف يودى عجل الدراجات ثم السيارات، والدراجات البخارية، القاطرات ثم الطائرات، بحياة هذا العدد الهائل من الضحايا، وأنها ستنشر الذعر الأسود.

مهمتهُ فى مدغشقر هى مهمة سياسية أكثر مما هى علمية، ويرسين ليس مغفلاً. إنه التاريخ الطويل للاستعمار. لقد أرسلناه للترويج لصورة فرنسا،

مثلما أرسلنا لوايوتيه للترويج لها فى المغرب. يتوافد اللطيف والغليظ على محبس الحجز فى قسم الشرطة. إذا لم يكن وجود يرسين كافيًا لإقناع سكان مدغشقر، سوف نرسل جليانى **Gallieni**.

وبما أن سكان مدغشقر لم يقتنعوا ، أرسلوا جلياني.

اللقـــاح

أما يرسين، فقد تم استدعاؤه فى الصيف. بعد خمسة أعوام من مغادرته لباريس، وبعد عام من إقامته فى هونج كونج واكتشافه المرموق هناك. طلبت منه حكومة الجمهورية الفرنسية الحضور إلى معهد باستور والاهتمام بجرثومته المُكتشفة الشهيرة. تراءى للسلطات كوابيس فى الليل: انتشار وباء الطاعون – الذى تم استزراعه فى القارورات الزجاجية السهلة الكسر– ينتشر فى الأحياء فى قلب باريس، لأنه قد مرَّ عامٌ ونحن نُنَمى هذه الجرثومة، ونعتنى بها، ولم يحدث أى تقدم. الحق يُقال، نحن ندور فى حلقة مفرغة. لماذا نستمر فى إنماء أجيال من البكتريا فى قارورات زجاجية قابلة للكسر، هذه القنبلة الجرثومية المرتاب فيها، رعونة عامل المختبر، حركة غير متزنة من قبل باحث يعتقدون أنه مُتقلب المزاج أو مجنون، أو من قبل جندى إرهابى يابانى أو ألمانى ، كل هذا قد يجعل آفة المرض تتفشى تجتاح الحى الخامس عشر،تثير الرعب الأسود، وتبيد سكان العاصمة.

استقر يرسين فى المعهد بما أن فندق لوتيسيا ما زال قيد البناء. ماذا ينتظر إذن آل بوسيكو **les Boucicaut**. "لقد سكنتُ من جديد فى معهد باستور. أنا مسرور جدًا لأن هذا سيسمح لى بأن أنجز عملى على نحوٍ أيسر، هذا فضلاً عن أنى معتاد على هذا المكان!". بدأ يرسين العمل مع رو و كالميت، ووعد فانى بالمرور عليها لرؤيتها فى منزل أشجار التين خلال أيام.

نحتاج إلى رجل مُرَوِّض، وها هو يجد في شارع دوتو Dutot حيوانه النحيل. ها هو على حافة الاكتئاب، جالسًا بالبيجاما طيلة اليوم، لحيته غير منمقة، يدخن سيجارة تلو أخرى. "يجب عليَّ أن أزود جرثومتي- التى تجاهلوها أثناء غيابي- بمقدارٍ من الحِدَّة. سوف أُرَبِّي عددًا كبيرًا من فقاقيع حُسْوَة الجراثيم، من أجل العثور على نوع التسمم المُتولد عن سُمين الجراثيم المسببة للمرض. أثناء نضوج هذه الحسوة فى فرن المعمل، قد أتمكن من القيام بزيارة قصيرة إلى مورج". لن يتسع الصالون الصغير المزهر لاستقبال كل وسائل الإعلام. لقد صار يرسين، اليوم، يتمتع بشهرة عالمية.

الحرارة داخل جسم الدجاجة، كما هو معروف، اثنتان وأربعون درجة مئوية، وهى درجة حرارة أعلى من تلك التى نجدها داخل الخروف المُستدفئ بالصوف.

كان باستور أول من استخدم المقياس الحرارى تحت الإبطين والشرج لقياس درجات الحرارة، مستنتجًا أن درجة الحرارة المرتفعة داخل بعض الطيور، هى السبب الذى يمنع الفيروسات من أن تتطور فيها. نَقَلَ الجمرة الخبيثة من الخروف إلى الدجاجة: لم تكترث وابتهجت، وكأن هناك من يزغزغها. غطسناها فى الماء البارد، لم تُبْدِ اكتراثًا، وماتت من الجمرة الخبيثة. إذا ما أخرجنا الفرخة المبلولة فى الوقت المناسب، كان لها أن تُصَاب بالمرض ولكن كان يمكن لها أن تُشْفَى وحدها، ترفرف بجناحيها لتستدفئ وهى تَسب رجال المعمل. أراد يرسين أن يقوم بالتجربة على الحَمَام.

الحمامة هى فأر السماء، فأرٌ كان لنا أن نثبّت له جناحين قبل أن ندهنه باللون الرمادي. ومع ذلك فإن ذات الجناحين غالبًا ما تستقر على الأرض وأحيانًا تعرج على طرف رجلها المبتورة، على طريقة برص بدون عكاز. و على الرغم من ذلك، ثمة اختلاف واضح بين هذين الكائنين: الطائر على عكس القوارض، لديه مناعة طبيعية ضد الطاعون.

استعرض يرسين كل وحوش العرض فى شارع دوتو **Dutot**، من أصغرهم حتى أعظمهم، من موليير **Molière** إلى لافونتين **La Fontaine** وحتى الحيوانات المُصَابة بمرض الطاعون، وصولاً إلى حكايات الأخوين جريم **Grimm** والحيوانات العازفة للموسيقى المُحنطة فى مدينة بريم **Brême** ، متنقلاً من موضوع إلى آخر. حاول أن يحد من حموة الجرثومة حتى يحصل على اللقاح من جهة، وعلى المصل المضاد للطاعون من جهة أخرى. كل هذا العناء، خلال شهرين، وكأنه بلا جدوى، وكأنه كان يكفى تصويره بالتصوير السريع أمام سريره المصنوع من القش وهو يمزج المواد الكيميائية، يحضرها ويسخنها، يذهب إلى الحمام، يغسل يديه، يحقنها، ويدون الملاحظات فى دفتره. بدا يرسين بمعطفه الأبيض نشطًا، أما الحيوانات فى المعمل فقد صارت أكبر فأكبر، ولكنها ليست أضخم من نطاق التجارب، يضطر يرسين أن يستخدم حقنًا أكثر فأكثر. سوط المُرَوِّض يطرقع وسط الساحة، وعندها يقفز كل حيوان على المقعد، ويستدير ليأخذ الحقنة.

عند كل شوط، ضربة من ضربات الطبول، وصنجة من صاجات موسيقى الشارلستون: يرسين يجعل الفأر ذا مناعة! يرسين يجعل الخنزير ذا مناعة! يرسين يجعل الأرنب ذا مناعة! يرسين يجعل الحصان ذا مناعة! ولكن ليس لديه فيل. مثل ضربة سوطٍ على ظهر الحصان، أخرج قلمه، فك الغطاء، وحرر هو وكالميت بحثًا فى حوليات معهد باستور بعنوان: الطاعون الأسود. المدونة الثانية". إذن، هذه التجارب الخاصة بالعلاج عن طريق المصل ، تستحق المُتابعة. إذا ما بدت له النتائج التى حصل عليها من الحيوانات مُرْضية، فمنَ الممكن تطبيق المنهج نفسه للوقاية من الطاعون الذى يصيب الإنسان، بل علاجه". أعاد قفل القلم ، خلع المعطف الأبيض، قدم المقال لرو، أنبأه برحيله، سأترك لك مهمة غسل الأوانى. أما اللقاح ضد مرض الطاعون، فقد قام رو

بعرضه أمام باستور العجوز ذى السترة السوداء ورابطة العنق، وقد بدا واهنًا. رفع الرجلان عيونهما من على الميكروسكوب، إذ تيقنا أنهما على صواب، فى هذه اللحظة لو كان يرسين قد طلب منهما خطاب توصية لصناعة صاروخ صاعد إلى القمر، لاستعارا قلمه وخلعا غطاءه.

لم يعد يرسين يطيق صبرًا للعودة إلى البحر، ولكنه أسرع فى إتمام الإجراءات لدى وزارة الخارجية والجهات المسئولة فى المستعمرات، ولدى الجمعية الجغرافية، أيضًا. يريد أن يُنشئ فى نهاترانج معملاً قادرًا على تحضير المصل بأكبر كميات ممكنة، وأن يُكْمِل تجاربهُ على القرود قبل إجرائها على الإنسان. "إنهم يحسدوننى بعض الشيء، وهو أمرٌ لا يهمنى البتة".

فى بداية شهر أغسطس، كان يرسين على متن سفينة ملبورن Melbourne المتجهة إلى آسيا بسرعة ست عشرة عقدة فى الساعة. سجل يرسين فى دفتره الرقم القياسى لهذه السرعة. خلال رحلته من مرسيليا إلى سايجون، راح يراقب الأوانى الزجاجية الحاوية لجراثيم الطاعون المحفوظة فى صيدلية الإرساليات. فى باريس، ينام الوزراء مثل أطفال رُضَّع، لقد وجدنا علاجًا للحصان. توفى باستور فى شهر سبتمبر. وشُيِّع جثمانه فى جنازة رسمية قومية. كان فرحًا بإلقاء مسئولية معهده على عاتق عُصبتِه الصغيرة. هؤلاء الشباب الذين، ظلوا منذ سنوات، بمثابة عينيه ويديه وقدميه، سوف يستكملون من بعدهِ إنجازاته الضخمة. سوف يتولى رو وكالميت القيادة لمدة أربعين عامًا تقريبًا.

يرسين ، يشحن،أيضًا، على المركب التى استقلها، آلة تصوير جديدة مزدوجة العدسات، إنها عبارة عن نظام عبقرى ذى إطار مزدوج يلعب على اختلاف المشهد المُصَوَّر، ويمنحنا عند التحميض صورة مُجسمة. التقط صورًا بآلته الجديدة عند كل مَرسى. عند عودته، سوف ينشر مقالاً عن هذا الموضوع، فى مجلة الهند الصينية المُصَوَّرة التى تُطبع فى هانوى Hanol .

فى كولومبو، اشترى زوجين من حيوان النمس.

فـــى كانتون Canton

حتى قبل أن يعتقد الصينيون أن كل شيء مُباحٌ لهم، سمحوا لأنفسهم بأن يُطلقوا أسماء صينية على مُدُنِهِم وصولاً إلى العاصمة، حتى إنه يمكن لأى مواطن من بكين أن يجد طريقه دون الحاجة إلى البحث عنه فى الأطلس. نزل يرسين من الباخرة إلى مدينة جوانزو **Guangzhou**.

يبلغ عدد سكان هذه المدينة مليونى ساكن تقريبًا. قضى وباء الطاعون على خمسمائة ألف من سكانها. جلب يرسين لقاح الطاعون معه من باريس، ولقاح الخيول من نهاترانج، وهو اللقاح الذى أعدَّه الطبيب البيطرى بيساس **Pesas**. لقد أراد تجرِيبَ علاج الحصان عند الصينيين، يبحث عن جوزيف ميستر **Joseph Meister**. قابل القنصل الفرنسى فى كانتون **Canton** أو جوانزو **Guangzhou**. لم يُخْفِ عليه أن سلامة هذا اللقاح الذى صنعه لم تثبت فعاليتها إلا على الحصان.

يَحك القنصل صدغه. الصينيون، كما ترون، ليسوا ضعاف الذاكرة، كما قال له، حتى لو بعد خمسة وثلاثين عامًا من نهب فرنسا وإنجلترا للقصر الصيفى **Palais d'été**، بعد خمسة وثلاثين عامًا بعدما كسبت هاتان الدولتان حرب الأفيون وأجبرتا الصين على فتح موانيها لتجارة الحشيش، لم يتقبل الصينيون الفرنسيين والإنجليز إلا بالكاد، واقتصر وجودهم على أحياءٍ خاصة. سيكون من غير اللائق، إذن، أن يتقدم مُتطفلٌ هنا ليعالج بالحقنة بعض المرضى. حك

القنصل صدغه، وهنّأ يرسين على اكتشافه وشهرته التى سبقته إلى هنا، ولكنه نبهه إلى أنه قد يعرض وقاره للخطر، كما ذكره بلغة دبلوماسية قديمة، بأن الشهرة لن تمنع المصائب من أن تحل عليك.

لو كان يرسين كاثوليكيًا لجعلنا منهُ قديسًا، كنا سنمجد من انتصر على الطاعون، بيد أن التاريخ يبدو وكأنه إلهامٌ من قوى غيبية.

ومع ذلك، اعتمد هذا التاريخ على ثلاث شهادات مُتطابقة ومُستقل بعضها عن بعض. شهادة يرسين نفسه المحفوظة فى معهد باستور، وشهادة الأسقف الموجودة، بلا شك، فى سجلات سانت-سياج **Saint-Siége**، وشهادة القنصل المحفوظة فى مقر وزارة الخارجية الفرنسية. أرسل الدبلوماسى تقريره فى الأيام التالية: "يوم الجمعة، ٢٦ يونيو، عند الساعة الحادية عشرة صباحًا، استقبلتُ الدكتور يرسين، الذى شرح لى هدف مُهمته، وسألنى إذا ما كنت أعتقد أنه سينجح فى الحصول على تصريح بالدخول إلى المستشفيات الصينية الخاصة بالمصابين بالطاعون، ومحاولة استخدام المصل العلاجى الذى اكتشفه. لن أخفى على الدكتور أنه يستحيل أن أسمح له بأن يحاول القيام بتجاربه هنا ، تجارب أراد أن يتطوع بها، ولكن عداء سكان كانتون **Canton** لكل ما هو أوروبى يمكن أن يسم هذه التجارب بالخطورة الشديدة لدى السكان. اقترحت على الدكتور، قبل أن يغادر كانتون، أن يذهب معى فى مهمة كاثوليكية."

تم استقبال الرجلين من قبل السيد القس شوس **Chause** ، الذى كاد للتو يستدعى طبيبًا، فهو قلق بشأن الحالة الصحية للشاب تيزيه **Tisé** ذى الثمانية عشر عامًا طالب المدرسة الإكليركية ، فهو يشكو، منذ بضعة أيام، من صداع وآلام مبرحة فى الفخذ. هذا الصباح، بدت عليه أعراض الحُمّى وأصبح طريح الفراش، وهو ما أزعج السيد القس، الذى لم يكن لديه الكثيرون ممن اعتنقوا

المسيحية، والله سيأخذ منه هذا الشاب،،أيضًا، هل نفهم شيئًا من كل هذا؟! وسُمِحَ له بالقيام بالمسحة الأخيرة للمريض الشاب. أقنعنا الشاب الصينى بأن اليسوعيين قد عاشوا فى هذه الأنحاء منذ قرون يبشرون بالمسيحية، وهكذا أصبح للصينيين حى فى جنة عدن، حيث كُتِبَت لافتات المقاهى بلغتين: لغة الماندارين الصينية واللغة اللاتينية. رُحنا ندعو له على رأس سريره. انتظرنا أن تنمو له أجنحة بيضاء ملائكية.

يرسين: "اصطحبنى القس شوس **Chausse** إلى منزله فى الساعة الثالثة بعد الظهر: كان الشاب الصينى نعسان، لا يستطيع أن يقف دون أن يصيبه دوار، يعانى من وهن شديد، الحمى شديدة ولسانهُ ثقيل. انتفاخ فى الفخذ الأيمن يُسبب له ألمًا مبرحًا عند لمسه. نحن أمام حالة طاعون مؤكدة، وضراوة الأعراض الأولية تسمح لنا بتشخصيه بأنه فى مرحلة خطيرة".

القنصل: "لن أعترض على حقن الشاب بالمصل المضاد للطاعون، على شرط أن تجرى هذه العملية فى غياب الصينيين، وأن تظل تفاصيل هذه العملية محاطة بالسرية التامة حتى يتعافى المريض تمامًا، حتى نتفادى المتاعب التى قد نجنيها فى حالة فشل العلاج."

يرسين: "فى الساعة الخامسة، ست ساعات بعد بداية ظهور المرض، قمت بحقن ١٠ ملم من المصل، فى هذه اللحظة، ظهرت عدة أعراض على المريض: تقيؤات، هذيان، وإشارات خطيرة جدًا تبين عن التطور السريع للالتهاب. فى الساعة السادسة و الساعة التاسعة ليلاً، حُقِن المريض من جديد بـ١٠ ملم من المصل فى كل مرة. من الساعة التاسعة حتى منتصف الليل لم يطرأ أى تغير على حالته، بل ظل نعسانَ، يهتز ويشكو كثيرًا. ما زالت الحمى شديدة جدًا، مع بعض الإسهال. بعد منتصف الليل، أصبح المريض أهدأ، وفى السادسة

صباحًا، فى اللحظة التى مرّ فيها الأب الراهب للاطلاع على حالة المريض المُصاب بالطاعون، كان هذا الأخير قد استيقظ من النوم، يقول إنّه يشعر بأنه قد شُفِيَ. فى الواقع،الحرارة قد نزلت تمامًا. الوهن والأعراض الخطيرة الأخرى قد تلاشت، لم تعد منطقة الفخذ موجعة عند اللمس، والانتفاخ اختفى تقريبًا. لقد تعافى بسرعة كبيرة حتى إنه لو لم يكن هناك عدة أشخاص بما فيهم أنا شخصيًا قد رأينا رأى العين حالته البارحة، لكُنَّا تشككنا فى أنه شُفِى فعلاً من الطاعون. كنا سنفهم كم كانت هذه الليلة، التى قضيتُها بالقرب من أول مريض بالطاعون أقوم بعلاجه، بالنسبة لى مُفْعَمَة بالتوتر. ولكن فى الصباح، عندما لاح مع نور اليوم التالى النجاح، حينها نسى الجميع كل شيء حتى التعب" . يرسين هو أول طبيب ينقذ مريضًا مُصابًا بالطاعون.

القنصل والقس، كلٌ منهما من جانبه أدلى بشهادته على هذا العلاج الهائل. إنها شبه معجزة، كما يقول القس متمتمًا، عبارة جديرة بالتصديق. أحيانًا، تبدو لنا سبل الرب غامضة للغاية، مثل هذا البروتستانتى السويسرى الذى استطاع أن يحيى من الموت كاثوليكيًا صينيًا. ومع ذلك لن يكون يرسين قديسًا ، حيث كان رجاء الناس فى تعويض أصبع قدم أو مفصل ركبة كفيلاً بأن يجلب إلى مدينة مورج موكبًا من الحجاج زاحفين على ركبهم. نريد أن نعرف، بالطبع، ما الذى حدث للشاب الصغير، أخباره، مصير حياة تيزيه **Tisé** بوصفه أول من نجا من الطاعون. هل أصبح راهبًا كاثوليكيًا ؟ هل كان سينتحر مثل جوزيف ميستر**Joseph Meister** لحظة غزو اليابانيين؟ لن نعرف عنه شيئًا البتة. نصح القنصلُ يرسين بمغادرة كانتون **Canton** والذهاب إلى مدينة أموى **Amoy**، أو الرحيل من مدينة جوانزو **Guangzhou** إلى مدينة أجزيامين **Xiamen**، وهى عبارة عن ميناء متواضع مشهور بالمصنوعات الجلدية، يتبضع منه البحارة، أمام بلدة فورموزا **Formose** التى تُعرف اليوم

باسم تايوان Taiwan. الآن، لم نعد نهتم بالبحّارة، فهم أقرب إلى الأشباح. نعرف عبارة أفلاطون فى هذا الصدد.

شيخوخة السفن كشيخوخة الرجال تعانى من التدهور البطىء. يرسين مُفعم بالحماس لأمصاله، لا يأخذ، مثلنا، وقتًا للتنقيب فى سجلات البحرية، و معِ ذلك فهى خيالية للغاية، زاخرة بالمصادفات. لن يلاحظ، بالتأكيد، على امتداد ميناء أجزيامين، هذا الهيكل القديم لسفينته الفولجا القديمة، هذه السفينة التى كانت فيما مضى سفينة قوية تُقله بانتظام مثل الساعة، من سايجون إلى مانيلا، و كان قد استودعها وباعها، هذا العام، بثمنٍ بخس ، ثمن الحديد الخردة، إلى التاجر الصينى كو co لينتهى الحال بهذه الباخرة إلى مجرد جسر عائم.

أما الباخرة سايجون ، فهي، بالنسبة إليه، تتمثل فى مشهد القنطرة التى يمكث عندها القبطان الطبيب فلوت عند حافة الدوران. لكنها غرقت هذه العام من جراء إعصار استوائى مُدمر فى منطقة بحر الصين واليابان، وما زال حطامها قابعا على رمال جزيرة باولو كوندور Poulo Condor. لا يعرف يرسين مثل هذا الحنين لذكريات البحر. قام، فى بضعة أيام، بتطعيم ثلاثة وعشرين مريضًا بمصله المضاد للطاعون الحديث تماماً. منهم اثنان فقط، تأخرنا فى علاجهما كثيرًا، وقد وافتهما المنية رغم كل المحاولات لإنقاذهما. بعدها اتجه إلى ماكوا Macoa عند البرتغاليين تقليدًا للإنجليز الأرقياء. فهو يعرف جيدًا أن خبر لقاحاته الجديدة الناجحة سوف يتناقله الجميع.

فليستدعوا، إذن، صديقهم كيتاساتو Kitasato الذى لا يستطيع فعل شيء ولكن...

فـــى بومبـــاي

بمجرد عودته إلى نهاترانج، طلب يرسين من بيساس **Pesas** **أن يعجل** بعملية إنتاج اللقاح. وبيساس، بوصفه طبيبًا بيطريًا عسكريًا، **يَعِدُ يرسين** بالإسراع فى تنفيذ هذا الأمر. ثم سافر يرسين إلى مرسيليا، **تكلله الأمجاد.** وصل إلى باريس هو ومساعده فى شهر نوفمبر، والتقى، **مرة أخرى، برو** وكالميت. اجتمع الرجال الأربعة فى المعهد أمام رفات لويس باستور **بعد تشييع** جثمانه في جنازة قومية مهيبة، ينتظرون مراسم الدفن فى **قبو كنيسة نوتر** دام حتى ننتهى من إعداد اللوحة التذكارية بالمعهد.فى نشرة **أكاديمية الطب** سوف يضع يرسين، فى بضع صفحات، نهايةً لحكاية الطاعون الممتدة منذ زمن طويل. كنا سنمنحه جائزة نوبل لو كانت الجائزة متواجدة فى ذلك الحين، لكن أول شخص سينال الجائزة بعد خمسة أعوام من الاكتشاف الذى حققه يرسين. كنا نجهل هذا الأمر وقتها، توفى ألفريد نوبل **Alfred Nobel** فى شهر ديسمبر، وأمر الجائزة مذكور فى وصيته.

بعد شهر من السفر بحرًا، والمكوس على البر لمدة ثلاثة أسابيع، **ها هم** يصلون إلى شواطئ مارسيليا. تمضى الحياة بسرعة كبيرة مثل الإعصار. فيلياس فوج **Phileas Fogg** وصديقه فيكس **Fix**، كانت عيونهما مُثبتة على ساعة وصول السفن والقطارات، يهرولان على الدرج، ويقفزان إلى عربات القطار. ونستعجب لأن العجوز جول فيرن **Jules Verne** مؤلف حياة ليفنجستون **Vle de Livingstone**. لم يخصص فصلاً لمغامرات يرسين المحمومة والخيالية،

ولم يصوره بوصفه بطلاً إيجابيًا جديرًا بحث شباب القراء على مناهزة الكمال المعنوى والأخلاقي. فى محطة كولومبو Colombo، وصل وفد إنجليزي، على ظهر فيل، ربما، فى صحبة مهراجا محلي. صعد ضابط نقيب إلى حافة الباخرة ميلبورن Melbourne، يسأل عن يرسين، لقد تفشى الطاعون فى بومباي Bombay.

ليس لدى يرسين، فى مقصورته، مصل أو أى شيء للتطعيم. عندما سافر إلى نهاترانج، كان أربعة وعشرون حصانًا قد نفقت للتو من جراء الجمرة الخبيثة. طلب يرسين من بيساس Pesas أن يركز على الناجية من القطيع. "منذ وصولي، أخذنا عينات دم من حصانين بدا لى أنهما الأكثر تمتعًا بمناعة من المرض. إذا ما كانت عينات الدم خالية من المرض، فسوف أستخرج الكثير من عينات الدم، وبعدها سوف أرحل إلى الهند".

فى الحال، أو بالأحرى بعد أسابيع، سوف يوجد مركب كل شهر. سوف ننتج المصل حتى شهر فبراير. يحمل يرسين فى حقائبه مئات الجرعات، ولكننا نحتاج إلى عشرات الملايين. طيلة هذا الوقت واظب بيساس Pesas على العمل، ربما يكدُّ كثيرًا، لكن، وكما هو الحال فى كل الأشغال التى تقتضى الدقة، يكمن الخطر فى الروتين. العينة فى الفرن و فى المطحنة، ترك المعمل سريعًا، وهرول إلى حديقة الحيوان متوترًا. بدت القرود مثل شياطين خبيثة، والخيول مُصابة بنزوات متقلبة، برفسة واحدة تطيح بالجرادل. والنمس يتخبط فى المَعْلَف ويقلبه رأسًا على عقب. يرسين يستمتع بإجازته فى البحر، وبيساس راح ضحية حادث فى المعمل.

وصلت رسالة ليرسين فى مكتب بريد البحرية فى كولومبو، تبلغه أن بيساس قد توفى بسبب عدوى. ما زال يرسين ماضيًا فى طريقه إلى تاميل نادو Tamil

Nadu، وصل إلى مادراس Madras، استقل القطار وعبر شبه القارة متجهًا إلى بومباي. فى شهر مارس، أخذ ما لديه من عَيِّنَات إلى القنصلية الفرنسية، وقام بتطعيم الجماعة الفرنسية، وعالج ابنة مدير مصرف تجارى كان قد أصابها المرض. لكن المتاعب بدأت مع الإنجليز.

بومباى ميناء كبير يقطنه ثمانمائة ألف ساكن، تحظى التجارة غير المشروعة بين بومباى و لندن بأهمية حيوية. تقريبًا فى كل مكان على الأرض، تتصارع الإمبراطوريات الاستعمارية على الحدود، حيث ترابط قواتها وجهًا لوجه. إنها اللعبة الكبرى كما وصفها كونولى Connolly. منذ عام مضى، فى موانج سينج *Muang Sing، أجبر الفرنسيون الإنجليزَ على أن يتركوا شمال لاوس Laos وأن يرحلوا إلى غرب ميكونج Mékong. خلال عام، سوف ينتقمون فى فاشودا Fachoda، مما اضطر الفرنسيين إلى مغادرة ضفاف النيل. لم يكن لوتى Loti قد كتب بعد كتابه الهند بدون الإنجليز. نشعر أن هذا الأمر لم يزعج يرسين كثيرًا.

من كل مكان، سارعت البعثات الطبية إلى نجدة الهنود المصابين بالطاعون: أطباء روس، نمساويون، ألمان، مصريون، إنجليز، إيطاليون، الجميع تواجدوا فى الساحة قبل يرسين. نتنازع على جثامين المشرفين على الموت والأسرار الطبية فى أجواء متآمرة غير صافية، وما زال رد فعل السلطات الصحية أصعب وأكثر تعقيدًا من ردود فعل الصينيين فى هونج كونج. رفض السكان المحليون الذهاب إلى مستشفيات الأمراض المُعدية والحجر الصحي، التى لا تحترم تقاليد الطوائف الدينية. وعلى الرغم من التكاثر السريع للقوارض، فإن إبادة هذه الجرذان قد تصطدم بالمبدأ البوذى القائم على احترام الحياة، وما بين الباستوريين أنفسهم يتفاقم الخلاف حول ما نطلق عليه: "غدد هافكين الليمفاوية La lymphe de Haffkine".

هذا هو العَالِم الذى خلف يرسين فى محاضرات علم الجراثيم، والذى قام لتوه بمغادرة معهد باستور، ليفتح معمله الخاص فى كالكوتا **Calcuta**، حيث أنتج هذا النسيج الليمفاوى **Lymphe** الذى طَعَنًا فيه لانطوائه على أسوأ الآثار الجانبية. من باريس، أرسلنا الدكتور بونو **Bonneau**، المفتش العام للطب الاستعمارى ومساعديه من المفتشين لإجراء تحقيق. ها هى عصبة بونو **Bonneau**، تتصدى لحل الخلافات بين أعضاء عصبة باستور **Pasteur**. المفتش العام يكتب تقريرَه: "على الرغم من أنى مقتنع بإمكانية تطعيم الإنسان ضد الطاعون من خلال استزراع البكتريا عن طريق التسخين، فقد استنكرنا نهج هافكين **Haffkine** بوصفه نهجًا غاية فى الاختزال والتعجل فى مواجهة نظام مناعى حقيقي، فالمخاطر الناتجة عن هذا النهج أكثر بكثير من مميزاته، وكل هذا كافٍ لرفضه وتجريمه".

أما يرسين، فأقصى ما يخشاه هو أن تتم إعاقة نشاطه تمامًا من قبل الإنجليز الماكرين: "لقد واجه الدكتور يرسين العديد من الصعوبات فى هذا الصدد. لقد سَطَوْنا على الحالات التى ينهض برعايتها في المستشفيات التى يديرها الأطباء الإنجليز، ولم تعد لديه حرية اتخاذ القرار الضروري: فقد تم حقن اليود فى الدمامل الظاهرة لدى مرضاه، كتبنا لهم الاستركنين **strychnine** (مادة سامة)، الأُطرب **la belladone** (نبات طبى سام من فصيلة الباذنجانيات)، الستروفانتين **la strophantine** (مادة سامة تستخرج من الستروفانتوس وتستخدم طبيًا كمنبه للقلب)، وكلها مواد عديمة المفعول إن لم تكن ضارة. كما أن الإحصاء الذى أُجرى لمثل هذه الحالات لم يكن ليحظى بكل القيمة التى حظى بها، لو كانت هذه الحالات قد تُركت لرعايته الخاصة". يشعر يرسين بالإعياء من كثرة هذه النزاعات، فهو يعلم جيدًا أنه فى حاجة لأن يتجرد وأن يفر من كل هذا ليصل إلى ميناء ليفنتان **Levantin** أو ميناء هرر **Harar**.

لقد كان مُنهكًا من بومباى Bombay ومن الإنجليز. هو شعور متبادل، إذ يتحمل الإنجليز بصعوبة هؤلاء الشباب الفرنسين، ولاسيما الذين ليسوا أصلاً فرنسيين: يرسين السويسرى أو هافكين Haffkine الأوكرانى اللذين سرعان ما خُدِعَا، فى باريس، بأكثر ما يمقته الإنجليز فى الفرنسيين، وهو أنهم يسدون النصائح للناس جميعًا وحتى للإنجليز، وفق هذا السلوك الاستعمارى أو التعقيمي. غادر يرسين بومباى ليهرب من هذا المجتمع الطبي. هو وحيد فى المنديف Mandvi، فى أقصى شمال جويجرت Gujarat فى شبه جزيرة كوتش Kutch حيث يقضى الوباء على مئة شخص كل يوم. شعر سريعًا بأنه حُرِمَ من المَصل، و كان هذا كافيًا، حتى يكتب إلى كالميت قائلاً إنه سوف يرحل من هذا المكان. لديه، أصلاً، سُمْعَة مُسْتَحَقَة بوصفه دُبًا أو شخصًا مُزعِجًا. فى المحطة، يَسُرنا أن نعرف أنه أشترى مجلدين من كتاب الغابة Livre de la Jungle الذى كان سبب شهرة كيبلينج Kipling. هذا الأخير، سيحصل قريبًا على جائزة نوبل التى لن يحصل عليها يرسين أبدًا. الآن وصل الطاعون إلى مدينة السويس.

أرسل معهدُ باستور إلى مدينة بومباى بول لويس سيمون Paul-Louis Simond ليحل مكان يرسين هناك. وحذره كالميت من يرسين قائلاً: "يبدو يرسين الشجاع متوحشًا جدًا، حقيقةً. لقد أثار سلوكه استياءً شديدًا فى بومباي، وأخشى أن تجد بعض العناء لتعديل وقع هذا التأثير المعيب الذى تركه". فى الواقع، تم استقبال سيمون ببرود، وصورة الباستوريين التى طبعها يرسين وهافكين، هى على نحوٍ ما ، صورة عُصبة من الشباب المغرورين المتغطرسين الواثقين للغاية بأنفسهم، يهزون أكتافهم صامتين دون إجابة، عندما نبدى لهم النصيحة. شكا سيمون من هذا الأمر وهو فى باريس، فأجابه كالميت بقوله: "بالنسبة ليرسين، أنا لست مندهشًا مما تقولونه عنه. بهذا الطبع المتوحش، ليس من المُستغرب أن يتسبب فى الكثير من المشاكل لزملائه من الإنجليز".

استغرق سيمون **Simond** عامًا كاملاً ليحدَّ من الخلافات. فى النهاية، سيتم قبوله عندما اكتشف أن البراغيث هى الحاملة للوباء.

قرأ يرسين هذا التقرير وهو فى نهاترانج. هز رأسه، راح يفكر فى الفأر ونسى البرغوث. البرغوث هو حشرة من الحشرات المُجنحة، كما كان يعرف أبوه بلا شك. تجربة سيمون بسيطة، تقوم على حبس فأر مصاب فى قفص ذى سياج حديدي، تحيط به أقفاص ذات سياج حديدى تحوى فئران سالمة أو جديدة، وهذه هى الصفة التى نطلقها على الحيوانات التى تُربى فى المعامل. وهكذا سرعان ما سيقوم يرسين، اللاعب الحاذق، بتهنئة سيمون لأنه استطاع باختباراته أن ينهى مسألة أسباب المرض.

لقد تحرك سيمون كثيرًا. يتساءل يرسين: أين يمكن أن يتواجد الآن هذا الصديق القديم؟. إنها بداية ١٩٤١. لدى يرسين الآن ثمانية وسبعون عامًا.

كانت الاتصالات بين أوروبا والهند الصينية شبه مستحيلة أو مؤقتة أوخاضعة للرقابة من قِبَل الاحتلال اليابانى هنا، أو الألمان هناك. منذ قرابة عام هبط من الحوت الأبيض الصغير. أثناء حالة البطالة التى أُجْبِرَ عليها، راح يتخيل أصدقاءه القدامى فى حطام الحرب. فى المنزل الكبير المربع فى نهاترانج، راح يستمع إلى الإذاعة الفرنسية، يفك شفرة الإيديولوجية الفاشية، ويستمع إلى الإذاعة الإنجليزية، ويحمد الإنجليز الذين يصمدون بمفردهم. ما زالت الإذاعة الألمانية تمتدح على نحو استعراضى اتفاقية مولتوف – ريبنتروب **Moltov-Ribbentrop**، التى تكلل هذا التوافق بين النازية والستالينية. ثم فجأة، تتقدم دبابات بانزير **Panzer** لتغزو الاتحاد السوفيتى فى شهر يونيو. ليس لدى يرسين أية أوهام، يقول لنفسه: ربما تكون الحرب بالنسبة للسياسة مثل الفحشاء بالنسبة للحب، وينبغى من فترةٍ لأخرى المرور بهذه المحنة، ولكن هل تستحق هذه الفترة أن نعيشها حتى أرذل العمر ؟

هل يستحق كل هذا التطور والتقدم، الذى كان بمثابة نذير حرب، كل هذا العناء؟. أصلاً، الفيزيائيون المحبوسون فى لوس أملوس Los Amlos هم من اخترعوا الأسلحة النووية. وفى كل مكان، ساهمت اكتشافات الباستوريين فى صناعة الأسلحة الجرثومية. سمع فى الإذاعة السويسرية خبر وفاة الكاتب الإيرلندى فى زيورخ فى يناير الماضي، كان هذا الكاتب جارَه فى فندق لوتسيا، إنه جويس Joyce الذى كان مقتنعًا بأن الحرب العالمية كانت بمثابة مؤامرة كبيرة ضد نشر كتاب استيقاظ فينيجان Finnegans Wake الذى قد انتهى من كتابته للتو. كل هذا ورد على خاطره فى غمرة إحساسه بالفوضى والارتباك. قام الجيش التايلاندى المتحالف مع اليابانيين بغزو كمبوديا ولاوس، و دمر الميناء الجوى الفرنسى فى أنجكور Angkor، حيث كانت تهبط الطائرة الحوت الأبيض الصغير التابعة للخطوط الجوية الفرنسية. لقد أُحِيطَ علمًا ، من خلال رسالة بريدية مُرسَلَة إليه من قبل الحاكم العام فى هانوي، الأميرال ديكو Decoux، عند سماعه بخبر وفاة لوار Loir، ابن شقيق باستور، تذكر الفترة التى كانت تسكن فيها العصبة الصغيرة فى شارع فاكلين Vaquelin قبل سفر لوار إلى أستراليا. فى آخر خبر وصله عنه، كان لوار فى هافر Havre. لم يكن من المُستحسن قط سُكْنَى الموانئ أثناء الحروب والصراعات. ماذا يعرف يرسين عن جوالاج Goualag وتريبلانكا Treblinka، وهو يجلس وحيدًا هنا أمام مكتبه يستمع إلى المذياع، فى المساء؟

يعرف يرسين أن اليهود فى باريس يرتدون النجمة الصفراء. ليس لديه، منذ زمنٍ طويل، صلة بزميله القديم فى الدراسة فى سترنبرج Sternberg. هل صار طبيبًا عجوزًا متقاعدًا فى ماربورج Marburg، هاربًا من حظر مزاولة المهنة، بما أنه لم يعد يمارسها قط؟ هل ينبغى عليه، عندما يلتقى فى الشارع بالهنود الأوروبيين، أن ينزل من على الرصيف؟. يتذكر آمالهما وأحاديثهما عن

الطاعون، ويعرف أن عند مدخل ميدان بوسيو **Bouciaut**، أسفل فندق لوتيسيا، وضعنا لافتة: "حديقة ألعاب، مخصصة للأطفال، ممنوع دخول اليهود". بعد موقعة بيرل هاربور **Pearl Harbor**(التى هاجم فيها الطيران اليابانى السفن الأمريكية)، فى شهر ديسمبر، شُنَّت حربُ المحيط الهادئ، وفيها وَجَّه الأمريكيون أسطولهم الحربى صوب الفلبينيين. تمر الشهور وما زالت الأخبار سيئة. نحن فى عام اثنين وأربعين، زفايج **Zweig**، اللاجئ إلى البرازيل، والذى كان مثله يقضى لياليه أمام المذياع، قد انتحر فى بتروبوليس **Ptréopolis** عندما أُعْلِنَ عن خبر سقوط سنغافورة **Singapour** ، لأنه فقد كل شيء. يرسين فى التاسعة والسبعين عامًا من عمره.

يلح الأميرال ديكو **Decoux** ، اللاجئ إلى دالات **Dalat** ، على يرسين حتى يكتب من جديد القصة الكبرى لمرض الطاعون فى هونج كونج، والتطعيمات الأولى فى الصين. يعرف جيدًا أننا نريد استغلاله لأغراض دعائية، وتجنيده فى الحرب الإيديولوجية الجارية. فى هذه الهند الصينية تحت الاحتلال الياباني، ينبغى التذكير بانتصار معهد باستور على معهد كوخ، وانتصار يرسين على كيتاساتو، وبأن من انتصر على الذعر الأسود المُرَوع، هو رجلٌ عبقرى من دول الحلفاء وليس من دول المحور.

كتب ذكرياته عن اكتشافاته، لأنه أعاد قراءة دفاتره على نحو متقن إلى حدٍ ما. ظهر الخبر فى الجرائد. مرة أخرى، يعرف أننا نستغل مكانته المرموقة، وأنه ليس ضربًا من الحظ أن يكون هو الباقى الوحيد على قيد الحياة من عصبة باستور. بعض الفيتناميين يتآمرون مع المحتلين لطرد فرنسا المهزومة. فى مواجهة نكران الجميل هذا من قِبَل الفيتناميين، أراد فيشى **Vichy** أن يذكرهم بكل هذه الطرق المرصوفة وخطوط السكك الحديدية وخزانات المياه وهذه المستشفيات: هل اليابانيون هم من حققوا هذه الإنجازات، هيه؟

الحياة الحقيقية

شأنه شأننا جميعًا يبحث يرسين عن السعادة،

إلا أنه، هو من عثر عليها.

بعد بومباي، انتهى الأمر: أصبح الطاعون شأنًا من شئون المجال الطبي. أراد يرسين أن يستمتع بهذا الامتياز، وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره وأن يبتعد عن السياسة والتاريخ. اختار العزلة حتى يتفرغ للبحث فى الشعر والعلم. حينها ، كان شابًا فتيًا ذا لحية سوداء وعيون زرقاء. فى النهاية، ليست حياة تلك التى تعيشها إن لم تتحرك طوال الوقت. أما الآن، فقد أصبحت هذه الحركة التى لا تنتهى تُزعجهُ. لقد أخذ كفايته. بدأ يشعر بالسخط. يعرف أن الجنة هى نهاترانج، لا يريد أن يتركها قط، يريد أن يُجَمِّلها أكثر فأكثر، وأن يؤسس، هنا، معهد باستور، وأن يَكُف عن عمل الفنى المعملى الذى كلف بيساس Pesas حياته.

جالسًا أمام مكتبه على معقد مصنوع من الخوص الهندي، أمامه المجلات العلمية، يدرس يرسين الهندسة ويجعل من نفسه بَنَّاء. ترك كوخَهُ الخشبى على لسان الصيادين، وراح يصمم منزلاً على شكل مُكعب مبنىّ بالقرميد الأحمر على ثلاثة مستويات، المنزل كله مُحاطٌ بمعرض فنى يطل على مَنْوَر تحت شرفة مقوسة عرضها متران. فى الأسفل يوجد المطبخ، فى الدور الأول غرفة، فى أعلى المنزل يوجد مكتب ومكتبة حيث تتراكم المجلات العلمية. المنظر أمامه

رحب تترامى أطرافه مع التوهج المستمر للجمال: ليلاً، تمضى قوارب الصيادين فى النهر، وتشعل أنوارها المُضاءَة على بعد خمس ياردات ونصف. مع بزوغ الفجر، يدفع الهواء زوارقهم، تضع على الشاطئ الأسماك والجمبري، بالقرب من ورش السفن حيث يقوم النجارون بإصلاح أقفاص الزوارق الصينية التى تُسَيَّر بالمجداف. يفوح عطر الزهور ورائحة الأرض محلقًا صوب المكتب الذى يقوم فيه يرسين، الآن، بتصميم منازل للأطباء البيطريين والفنيين فى المعامل. الحوائط يكسوها الجير والأخشاب مطلية بالأخضر الفاتح أما الأسقف فهى من القرميد البنى اللون والشرفات على طراز البيوت الأنيقة على شاطئ بحر نورماندى التى رآها فى كابورج **Cabourg**.

بعيدًا عن الساحل، شيدنا مبنى معهد باستور، طولُه خمسون مترًا وعرضُه عشرة أمتار، حيث توجد المعامل والقاعات لأخذ عينات الدم من الحيوانات، بجوار حظائر وإسطبلات لثيران وخيول فى طور التطعيم من الأمراض الوبائية العديدة. يتمتع المشروع بدَعم من صديقه بول دوميه **Paul Doumer** الذى ما زال حاكمًا عامًا، إنه يتيم أورلياك **Aurliac** ومؤسس مدينة دالات **Dalat**. استدعى يرسين فلاحين وخَيَّالة لرعاية الخيول، طَوَّر تربية مُكثفة للماشية ،كما طور الزراعة لكى يوفر الغذاء للدواب. "أنا الآن بصدد إقامة طاحونة هوائية مُهَيَّأة لاستخراج المياه".

جالسًا على مقعدٍ مصنوع من الخوص الهندي، أمامه المجلات العلمية على المكتب، يدرس يرسين الفيزياء والميكانيكا والكهرباء. من باريس، طلب أن نأتيه بخزانة مُجفِّف وفرن ذى شعلتين، وجهاز لصنع الثلج يعمل بالغاز ماركة بيكتيه**Pictet**، كل هذا عبر سفينة الإرساليات البريدية. سوف يستعين بمضخة مياه و مُحرك يُدار بقوة الماء أو الهواء لتوفير الكهرباء للمعهد، ولقرية الصيادين أيضًا. حاول يرسين أن يقلل من التكاليف بمساهمته هو نفسه فى

العمل، بالإضافة ، أيضًا، إلى طائراته الورقية: "هذا الجزء من الفيزياء، كان موضع اهتمامى دائمًا، وأنا أعلم عنه ما يكفى حتى أقوم بالإنشاءات بنفسي، دون حاجة للاستعانة بمهندس كهربائى متخصص". أرسل يرسين طلبًا إلى صانع سربولو Serpolot ليشترى سيارة، وهى أول سيارة تسير بقوة البخار، سربولو ٥ حصان Serpolot 5 CV تصل سرعتها إلى عشرين كيلومترًا فى الساعة.

يرسين هو صانع حلم اليقظة الذى سوف يحققه. فى القريب العاجل سوف يشترى أرضًا فى سواى جياو Suôi Giao، والتى تُعرف الآن باسم سوا دو Suôi Dâu، من جراء عملية تنازل عن خمسمائة هكتار، فهى أرض أدغال ذات أشواك على بُعْد عشرين كيلومترًا عن الشاطئ. نهرٌ يتدفق من نهرٍ آخر ليصب هنا أمامه فى بحر الصين، مما يسمح له بالوصول إلى أرضه بزورق صيني. استصلحنا أرضًا، أعددنا المراعى ومزارع من الحبوب. يصنع يرسين كوكبًا صغيرًا مكتفيًا بذاته كنايةَ عن العالم، قوس نجاة، حديقة عدن محظورة على الفيروسات المنذورة للجحيم. طهرنا المستنقعات من النباتات المائية. قريبًا سوف توجد، هنا، مئات الثيران، والجواميس والأحصنة والبغال، وثلاثمائة خروف والكثير من الماعز. وُزِّعَت المواشى على الزرائب، خمسون رأس ماشية معزولة ومحاطة بسور مزدوج لحمايتها من الوحوش الشرسة الكبيرة والجراثيم الصغيرة.

الرسالة الجديدة التى تبناها هى رسالة العَالِم العبقري، الذى يضاعف التقدم. يرسين مُحاط بأطفال الصيادين الذين أصبحوا باستوريين، وبالباستوريين الذين توافدوا من باريس وسايجون. فى المعامل، انطلقت الأبحاث حول داء القوبة الصفراء (مرض جلدى مُعْدِ) la gourme، وداء التيتانوس، وداء

الجمرة الخبيثة، وداء السرة ، ومرض الحمى القلاعية **la fièvre aphteuse**، وداء الباستريلا **pasteurellose**، والانسمام البربيتورى **barbone** ، وداء البابسيات **piroplasmose** . جلب يرسين صناديق زاخرة بالأجراس الصغيرة وهو قادم من سويسرا عن طريق مارسيليا. "منذ أن طُوِّقَتْ أبقارنا بالأجراس، لم يعد النمر يختطفها بكثرة كما كان يفعل من قبل، ويبدو أنه يبحث الآن عن خيولنا" . وهكذا، رويدًا رويدًا، أصبحنا على مشارف قرن جديد.

دلفنا إلى القرن العشرين، لم نكن نعلم بعد أنه سوف يكون الأسوأ، وأنه قرن فظائع وحشية لا نهاية لها، مع أنه أشرق علينا بعد قرن مُفعم بأحلام التقدم التى لا نهاية لها، واستقبل فى ابتهاج. إنه مطلع القرن، ما زال هناك تفاؤل بالعلوم والتقنيات والقضاء على الأمراض والتطعيمات الوقائية والعلاجية.

جالسًا على مقعدٍ مصنوع من الخوص الهندي، أمام المجلات العلمية، يدرس يرسين علم الهندسة الزراعية وعلم الكيمياء. يُجْرِى محاولات ليحل الشوفان محل الأرز فى تغذية الخيول. راح ينظم الزراعة على مصاطب متدرجة على التلال لتناسب كل أنواع المناخ. بعد فشل تجربة زراعة شجرة البُنّ العربي، زرعنا ألفَيْ شجرة بُنّ من ليبيريا، بالإضافة إلى النباتات الطبية، ومن ضمنها ألف قدم مزروعة بنبات الإريسروكلام كوكا **Erythroxylum coca** للحصول على الكوكايين المستخدم فى الصيدلة.

بعد البرودة الهندية المتوالية وتقلباتها المزاجية، استعاد يرسين علاقاته الدافئة بباريس: "عزيزى كالميت، ثمة أمر لا يُصدق ومع ذلك فهو صحيح: لقد تلقيتُ رسالة من رو مؤرخة من مدينة سيزيريو **Ceyzérieu**! حقيقةً، هذا خبر سعيد جدًا بالنسبة لي، لأنه عندما يقرر صديقى رو أن يُمسك بالقلم، فدائمًا ما يكون هذا لكتابة أشياء مُهمة" . قام برحلة إلى باريس: "كنت أنوى أن أستقل

القطار العابر لسيبيريا ولكنى كنت أخشى أن يكون البرد قارسًا فى هذه الفترة:" لم تكن الزراعة ولا الرعى ضمن الاهتمامات الأولى لمعهد باستور، بعد. لم يكن هذان النشاطان بالنسبة للمعهد بمثابة الزرع والضرع، فثمة موارد أخرى للمعهد. ثم أُنشئت شركة خاصة لهذا الغرض باسم: "السادة يرسين، رو وكالميت".

أحيانًا، تبدو الرسائل المتبادلة بينهما، والتى أعقبت عودته، أشبه **بقوائم** كشف المكالمات الهاتفية لإحدى الشركات. يكتب رو إلى يرسين: **"كان أول** علاج لبرتاند **Bertand**، بعد رحيلك، هو البحث عن **حمض تنجستن Acide Tungstique**، وقد وجده فى إنجلترا، ونجحنا **فى الحصول على كمية كبيرة** منه بسعر مدهش، ستة آلاف وخمسمائة فرنك. ما من سبيل **للحصول عليه بسعر** أقل من ذلك. سوف يتم إرساله لنا من هامبورج إلى سايجون.

سوف يتم جلب حمض الكبريتيك **Acide Sulfuric** عن طريق مارسيليا مع حمض السليسليك **Acid Silicate** أيضًا. ها أنت ترى أننا خاطرنا بتضحية كبرى. ما من أحد يقول أن للكوكايين، فى هذه الظروف، الكثير من الفوائد. أكثر من ذلك ظهر منافس له فى السوق، بشكل جديد تم تحضيره عن طريق التركيب،هو الستوفايين **stovaïne**: وهو مخدر أقل سُمِّيَة من الكوكايين، وأكثر فاعلية من الجرعة المضاعفة من الكوكايين". هذه الرسالة مثيرة للفضول، إذ لا تشير إلى من اخترع الستوفايين، منذ بضعة شهور، اخترعه عالم هو نفسه خريج معهد باستور، اسمه إرنست فورنو **Ernest Fourneau**، وهو كيميائى مثل باستور.

يطور يرسين إنتاجه، ويُعده على شكل سائل مركز، وهو ما كان يمكن أن يجعل منه مليارديرًا مخترعًا لمشروب أسود غازي، لو كان قد سعى للحصول

على براءة الاختراع. وقد أطلق عليه اسم كولا- كانال **Kola-Cannelle**، ويمس اختصاره إلى كوكا **Ko-Ca**. من نهاترانج، كتب يرسين لرو: "لقد أرسلتُ لك من نهاترانج، طردًا بريديًا، به زجاجة من كولا- كانال **Kola-Cannelle**. ضع مقدار سنتيمتر مربع ونصف من هذه المادة فى حوالى كوب ماء مُحَلًّى بالسكر، واشربها حين تشعر بالتعب. أتمنى أن يكون تأثير هذا الشراب" إكسير الحياة الطويلة" عليك هو التأثير المُنشط نفسه الذى شعرتُ به". يرسينا كوكا.

نزرع الدخان، وهو أيضا، نبات فى سبيله للحظر. كما نزرع نبات المينهوت **manioc** وهو مُهدد بصورة أقل. ومع ذلك كانت هناك عدة محاولات فاشلة لزراعة نباتات، سجل يرسين أسماءها فى دفتره، وهي: الفانيليا، جوزة الطيب، الطبرخى (مادة مستخرجة من الأشجار لصناعة المطاط) والذرة التى لم تتأقلم دائمًا والمناخ الذى تم توطينها فيه. ضَمَّ هذا المجال الجماعة الزراعية والعلمية، وأُنْشِئ مُستوصف لسكان القرى. فى الليل طوى يرسين دفاتره ومجلاته، أخذ يحلم بمستقبل مملكته، السلام والازدهار، ويشعر بالقلق بشأن الأمطار. يعلم تلهف المراعى للأمطار المنهمرة.

نتذكر بطل رواية الذهب **L'Or** للكاتب سندراس **Cendras**، فهو مثله مواطن سويسري: الجنرال سوته **Sutter** فى مملكته فى كاليفورنيا. فى المساء، حين يشعر يرسين بالضجر، يعكف على رسم تخطيط لخزان المياه، وفى اليوم التالي، يبدأ فى بناء خزان المياه. خلال أربعين عامًا، سوف يختار من كل مكان فى العالم، الأجمل فى الطبيعة لكى ينقله إلى نهاترانج: النباتات الحيوانات، الأشجار، الأزهار. ولكن ما زال الناتج المالى غير مرتبط بالزراعة. ما زالت كل هذه المحاولات لتوطين هذه النباتات أشبه بالهاوية. لم تكن قصة يرسين مع الطاعون بأفضل من قصة باستور مع مصله ضد السعار، فهو لم يسجل براءة اختراعه حتى الآن. شأنه، إلى حدٍ ما، شأن هؤلاء الرهبان الذين

يكفون معاشهم المادى عن طريق صناعة بعض الخمور المصنوعة من الأعشاب أو زهرة الجنطيانا. هنا ما يسمح لهم بالبقاء هو المصل ضد طاعون الأبقار الذى سرعان ما سنبيع منه ألف جرعة فى الشهر لرُعاة الأبقار والمُربين.

من وقت لآخر، يرسل يرسين مقالاً إلى حوليات معهد باستور ذا عنوان مقتضب دائمًا: دراسات حول أمراض الحيوانات فى الهند الصينية. مثل شاعر برناسى منعزل ما زال يرسل بعضًا من أبياته الشعرية للمجلات. فى فرنسا يأتى الشعر الحديث بعد شعر البحر الشعرى السكندرى التقليدي. يرسين لا يعرف الشاعر الفرنسى أبولينير **Apollinaire** وسندراس **Cendras** وقصائده عن برج إيفل الهائل. لا يعرف أنه فى حى مونبارناس **Montparnasse** القريب من معهد باستور سوف يجاور الرسام ريفيرا **Rivera** وسوتين **Soutine** وموديليانى **Modigliani** وبيكاسو **Picasso**. كل هذا الهراء من الفن والأدب، يجهلهُ يرسين. إنه محبوس فى نهاترانج، عيونه مُثبَّتة على الميكروسكوب، أو مُتكئًا على عصاه يوسع الخُطى لمسح أراضى المراعي.

مثلنا جميعًا، يسعى يرسين إلى أن يجعل من حياتهِ خليطًا جميلاً ومتناسقًا. إلا أنه هو من ناهز هذا المبتغى.

فـــى هانـــوي

ها هو حادث سيء. رسالة تصله من بول دوميه **Paul Doumer**، يتيم أورلياك **Aurliac**، والذى مازال يشغل منصب الحاكم العام. منذ ثمانى سنوات اكتشف يرسين جرثومة الطاعون، منها أربع سنوات عاشها هادئ البال فى نهاترانج. مرَّ من القرن العشرين عامان. ما زال هذا القرن وليدًا. إنه مفعم باللطف.

هذا هو دوميه **Doumer**، ولكن دوميه قد رَحل. لقد بادرا معًا بالصعود إلى هضبة لانج بيان **Lang Bian**. وهنا ، سرعان ما شيد دوميه مصحة دالات **Dalat**. كما صعدا معًا نهر ميكونج **Mékong**، من دلتا النهر حتى بنوم بنه **Phnom Penh**. ترك دوميه آسيا، وعاد إلى فرنسا ليستعيد وظيفته السياسية، ملقيًا بنفسه، من جديد، فى قفص الوحوش. أين يوجد، إذن، هذا الأحمق الروسى جورجولوف **Gorguloff**؟ أين تكمن، إذن، دسيسة القدر، تلك التى بعد ثلاثين عامًا، تحديدًا، سوف تضع هذين الشخصين وجهًا لوجه، وفى يد أحدهما مسدس إنجليزي، من طراز براونينج **browning**، ليفرغ طلقاته فى صدر الآخر؟.

قبل أن يذهب إلى هانوي، ليشغل منصب الحاكم العام لهذه المنطقة، التى كان يُطلق عليها الجغرافيون حتى عهد جول فرى **Jules Ferry**، الهند ماوراء نهر جانج **Inde-trans-gangétique**، ثم سُميت بالهند– الصينية **Indo-Chine**، وأخيرًا أصبح اسمها الهند الصينية **Indochine** . كان دوميه فى باريس وزيرًا

للمالية وهو بَعْدُ شابٌ صغير قادم من اليسار الراديكالي، وهو من ابتدع فكرة أول ضريبة على الدخل، وسعى للتصويت عليها ليوقع بالأغنياء. لقد أراد ،أيضًا، أن يترك بصمته فى التاريخ الاستعماري، وأن يضع، قبل رحيله، اللبنة الأولى لمنظومة صحية هائلة، طالما تمنَّى أن يتولى يرسين إدارتها: مدرسةُ للطب، ومعملٌ ملحق بمعهد باستور، ومستشفى ومركز صحي. هذا هو دوميه، أما يرسين فقد غادر نهاترانج ورحل إلى هانوي.

لم ير المدينة الخضراء والضبابية منذ أمد طويل، منذ عودته من عند السيدانيين بصحبة الأب جورلاش **Guerlach**، ثم لقائه مع لوفافر **Lefévre** قبل رحيله إلى هونج كونج. مدينة هانوى الجديدة أحدث بعشرين عامًا من مدينة سايجون. زوَّدها فرنسيو تونكين **Tonkin** بكميات مضاعفة من الطعام. خلال عشرين عامًا، كما لو كانوا سيظلون هنا لقرون قادمة، وبكل رباطة الجأش والثقة بالنفس ورعونة الرومان الهالكين فى أرض الغال **Gaules**، راحوا يشيدون، لكى يستتب لهم الأمن، فندقَ متروبول **Métroplole**، وقصر بونجينيه **Palais Puginier**، افتتحوا ساحات للخيل وأسواقًا، وجففوا البحيرتين. كانت المدينة تعجُّ، أصلاً، بسبعين ألف مواطن. توقف يرسين بسيارته ماركة سيبرلو ٥ حصان فى **Serpollet 5 CV** عند لسان الصيادين. من هيبونج **Haiphong**، نقلته مركب شراعية صينية إلى النهر الأحمر. سيارة يرسين هى أول سيارة تجوب العاصمة. جالسًا أمام عجلة القيادة، يقود يرسين سيارته ببطء فى الشوارع العريضة المُظَللة بالأشجار.

كانت الأحياء الجميلة هى أولى المناطق فى آسيا التى زُوِّدت بالكهرباء والمياه الجارية والإضاءة العامة. توجد فيها شوارع هادئة، فيلات ذات أعمدة وواجهات بيضاء أو مؤكسدة، وسط حدائق مُنَسقة ومُمتدة بطول ممرات ممهدة. هناك، أيضًا، فيلات مبنية بألواح خشبية متفرقة تملأ فراغاتها بأجسام

خفيفة كالآجر، حيث تتعالى أشجار الصنوبر المُدببة، خلف القضبان، مُستعلية على النباتات الكثيفة المُظلمة. إنها مدينة شبيهة بمدينة الكاتب الفرنسى بروست **Proust**، تثير الحنين إلى مدينة كابورج **Cabourg** أو مدينة دوفيل **Deauville** التى نستشعر رائحتها، دائمًا، فى بعض المناطق.

تُفسح المركبات الخفيفة، التى يجرها قائدوها، المجالَ لمرور السيارة التى تحدث صوتًا أشبه بالمفرقعات. سائقو العربات التى تجرها الخيول يحكمون الكمامة على أعين الخيول. يحمل البائعون تحت قبعاتهم حمالة مزدوجة على المنكبين، يراقبون الآلة الضخمة المُمَهِدة لشبكة الطرق فى حى رابطة النقابات، فى نطاق المدينة القديمة والفرنسية، بالقرب من البحيرة الصغيرة، حيث يعلو المعبد الصينى الأحمر المتعدد الأدوار، ركن يرسين سيارته أمام مدخل فندق مِتروبول **Métropole**، والذى سيصبح بالنسبة ليرسين فى القرن القادم، وبعد إقامته بين جدرانه، هو الفندق الأجمل فى العاصمة الفيتنامية. طيفُ المستقبل الرجل ذو الدفتر الجلدى المجلّد بفروة الطوبين القيمة، هو من يتتبع يرسين منذ أن أقام فى مورج **Morges**، ثم أقام فى ماربورج **Marburg** ، وفى فندق رويال **Royal** فى بينوم بنه **Phenom Penh**، والتقى كالميت فى صالون فندق ماجيستيك **Majestic** فى سايجون **Saigon**، والإمبراطور باو داى **Bao Dai** فى فندق لانج بيان **Lang Bian Palace** فى دالات **Dalat**، وقابل رو فى حانة فندق لوتسيا وقت أن كان جالسًا فى البار، بينما يوقع يرسين على أوراق الإقامة عند مكتب الاستقبال فى الفندق.

كان دوميه ،أصلاً، ينتظره هنا أمام كأسه وأوراق مخططاته الملفوفة.

لم يظهر يرسين أى علاقة بالماسوشية إطلاقًا، فهو ليس من النوع الذى يمنح نفسه إجازة، إنهُ يتحمل – إذا ما كان هذا ضروريًا– بلا كلل أو ملل عناء

الإقامة المؤقتة والليالى الباردة فى الجبال والأكواخ التى احتلتها الحشرات. لكنه أيضًا يحب إذا ما كان هذا ممكنًا، الراحة التى توفرها الرفاهية الوثيرة فى القوارب والقصور.

من فندق متروبول، كتب إلى سيمون **Simond** هذا الرجل الذى ترك الهند من أجل الإقامة فى البرازيل. كان يود أن يقنعه بالحضور لمساعدته، بل ليحل محله. بالنسبة لمدرسة الطب الجديدة، فالمُهندس المختص بها "يتوقع أن الأعمال سوف تكلفه مليونًا وخمسمائة ألف فرنك! ومع ذلك فهى أرخص ثمنًا أو أكثر نفعًا من مسرح سايجون". سوف يمنحه وقتًا ليفكر فى الأمر، وليُواصل أبحاثه فى أمريكا حول الحمى الصفراء. "لقد كنت مهتمًا جدًا بالتفاصيل، التى ذكرتها لى فى خطابك، عن إقامتك فى بتروبوليس **Petrópolis**، وبداية أعمالك."

بمجرد أن تم افتتاح الأبنية فى هانوي، تولى يرسين إدارة المجمع الصحي، كما أنه أصبح مسئولاً عن تعيين العاملين والمرشحين من الأطباء والممرضات. وافق على البرامج الموضوعة وفق النموذج الفرنسي. فى الصباح، يقوم بفحص جميع من فى المستشفى، من المرضى وصولاً إلى الأحصنة، وفى الظهيرة يقوم بدراسة النظريات والعلوم. لقد قرر أن يعد بنفسه محاضرات الفيزياء والكيمياء وعلم التشريح. علينا أن نتخيل وقع المفاجأة على رو حين راح يتذكر واقعة الشجار القديمة بينه وبين يرسين، والتى بموجبها عاد الشاب يرسين، مرةً أخرى، ليحاضر ويُدَرِّس علم الجراثيم. ولكن الآن، دوميه هو من يقوم بتدريس علم الجراثيم، ويرسين هو من يلقى كلمة لتقديمه لطلابه.

فى نهاية السنة الأولى، تم قبول دفعة من أحد عشر طالبًا من طلاب الطب لأداء الامتحان: "يجتهد طلابُنا فى دراسة الطب كثيرًا، ولدينا من بينهم طلاب ممتازون جدًا، مناظرون لأفضل طلابنا فى فرنسا، غير أن ما يثير الاهتمام،

أيضًا، هو: أنه حتى الأشخاص الأذكياء يبذلون جهدًا هائلاً. ونكاد نقول، إنه لا يوجد بينهم متكاسلون "يسافر يرسين من وقتٍ لآخر إلى نهاترانج حيث يقوم بتوسيع مجال الأعمال، يراقب نمو أشجار المطاط، وإنتاج الأمصال. في الصيف، يغادر غرفته في فندق متروبول، ويشترى تذكرة للذهاب إلى مرسيليا، مصطحبًا معه في هذه الرحلة أحد أبناء الصيادين، والذى أعدَّهُ ليكون ميكانيكيًا، واسمه كيه **Qué**. لديهما موعدٌ مع ليون سربوليه **Léon Serpollet** نفسه، وهو أول منتج لصناعة السيارات في العالم. في الطريق من باريس إلى بوفيه **Beauvais**، مضى الرجال الثلاثة، والهواء يداعب شعورهم ، وصلت سرعة سيارتهم الحديثة **Serpollet 6-CV** إلى مائة كيلومتر في الساعة. هذه سيارة حديثة، تمامًا، وذات سرعة فائقة. تقدم يرسين، بحماسه المعهود، بطلب لشراء سيارة من هذا الطراز، وشحنها مباشرة، ليتسلمها في هانوي.

بعد عامين من التوجيه والإدارة، صار كل شيء يعمل بكفاءة، الآن يمكن ليرسين، أخيرًا، أن يستقيل.

كان يمكن له أن يعمل باحثًا في معهد باستور في باريس لمدة عامين، وطبيبًا على متن سفينة البريد البحرى لمدة عامين، ومديرًا لمستشفى هانوى لمدة عامين. لكنه سرعان ما يشعر بالضجر من كل شيء ما عدا نهاترانج. لقد رحل دوميه. لاحقًا سوف نطلق اسمه على جسر كبير يمتد أعلى النهر الأحمر، جسر بول دوميه **Paul Doumer**، أما الآن فهذا الجسر اسمه لونج بيان **Long Biên**.

بلغ يرسين الأربعين عامًا، لم يعد في عمر الكفاح. في عمر الصفاء الناضج هذا، سوف يعمل يرسين على تنمية مواهب أخرى. لم تكن حياته في هانوى إلا حياة بين قوسين، في حين رآها آخرون نقطة البداية لمهنة في مؤسسة طبية استشفائية، سوف تسفر، في المستقبل، عن مديرعظيم في معطفه الأبيض.

قضى يرسين شهورًا لإعداد من سيخلفهُ فى العمل بالمستشفى. بعد ثلاث سنوات قضاها فى هانوي، عاد مرةً أخرى إلى نهاترانج ،بعد إقامة متجددة فى باريس، ومرور أخير على مورج. للمرة الأخيرة، يعانق يرسين فانى الأم العجوز فى الصالون الصغير المزهر فى البيت الواقع على شاطئ البحيرة ، والمُحاط بأشجار التين. فى العام التالى ماتت فاني.

مرت خمس سنوات من القرن الجديد. هذا القرن البغيض. حتى الآن، كل شيء يسير على ما يرام، ولكن من الصعب أن نتخيل أن المُعذبين والجلادين سيخلفون أطفالاً مبتسمين. الوحش القادم عمره خمس سنوات: **لقد ماتت فانى** فى العام نفسه الذى توفى فيه جول فيرن **Jules Verne** و برازا **Brazza** **أيضًا**، الذى نُقل رفاته من داكار **Dakar** إلى مارسليا **Marseille**. **فى هذا العام، أبدى** القرن العشرون نُذرًا خطيرة ، سجلها يرسين فى دفتره: "**يمكننا أن نتساءل** إذا ما كانت الحرب وشيكة بين إنجلترا وألمانيا، على ألا تتدخل فرنسا فى هذا الأمر!". ها هى الثورة الروسية الأولى، وقد تولى تروتسكى **Trotsky** قيادة السوفييت فى سان بترسبورج **Saint-Pétersbourg** . وها هى جائزة نوبل تُمنَح للعالم الجليل كوخ **Koch**، بعد وفاة باستور **Pasteur** بعشر سنوات. فى باريس، التقى يرسين مرة أخرى، ببول دوميه **Paul Doumer** الذى راح يترقى فى وظيفته حتى انتهى إلى مصير مأساوي. لقد صار رئيسًا للمجمع الوطنى **L`Assemblée Nationale**.

كتب يرسين إلى أخته إيملي **Emilie**، ليبلغها ، أولاً، أنه يتخلى عن نصيبه من الميراث، أحيانًا تكون الأخوات أكثر عنايةً من الأمهات، إذ يحرصن على عادة المراسلة. ومع ذلك، فهذه الرسائل، تصير شيئًا فشيئًا أقل عددًا، أقصر، أقل حميمية، وأوجز تفصيلا، اللهم إلا إذا تعلق الأمر بموضوع الدواجن.

الأخت العانس، المتعلقة بيرسين، بعد دراسات البيانو، والتقاليد الراقية التى اكتسبتها فى منزل أشجار التين، بدلاً من أن تحلم بحفل زفافٍ جميل، تريد ، بثروتها الصغيرة، أن تبنى منزلاً ريفيًا فى منطقة بيل فو **Bellevue** أعلى البحيرة، حيث تتخيل نفسها وهى تربى المرموط أو النحل، وتحسم أمرها لتربية الطيور. تبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا. أما يرسين الأعزب العجوز، فبعد عدة سنوات قضاها فى المجال الطبى فى هانوى ، يعود من جديد إلى نهاترانج ليشبع نزواته. لقد ورث مزايا وعيوب الوالدين. نزوات الأخ والأخت، هى نتاج نزوات الأب والأستاذ المعلم ذى الكنزة الصوفية السوداء، القبعة الرسمية، صناعة البارود، والجهاز العصبى لصَرًّار الليل فى الريف .

•

الدجــاج المثـير للجـدل

غالبًا ما نعرض تاريخ العلوم بوصفه طريقًا فسيحًا مستقيمًا ينقلنا مباشرةً من الجهل إلى الحقيقة، ولكن هذا خطأ. إنه بالأحرى، متاهة من الممرات بلا مخرج حيث تضل المعرفة أو تتعثر. مجموعة من المحاولات الفاشلة المُؤسفة، وفى بعض الأحيان، المُضحكة. يمكننا أن نقارنها ببدايات الطيران، التى كانت أيضًا معاصرة لبدايات السينما. هذه الأفلام بالأبيض والأسود التى تسببت فى ارتجاج اجتماعي، حيث رأينا من يكسر الأخشاب ويمزق نسيج اللوحة. يحلمون بإيكاروس، منزوعى الجوانح الجامحة، يجرون وأذرعهم ممتدة مثل راقصة الباليه نحو حافة شاطئ صخري، يلقون بأنفسهم فى الفراغ، يتساقطون مثل الحصى، ويُسحقون على الساحل الرملى السُفلي.

بددت إيملى الكثير من الأموال من أجل تربية الدجاج. لقد استثمرت القليل مما تملكه من المال فى بناء وتجهيز عشة للدجاج كبيرة نموذجية فى لوناى Lonay. حاول يرسين أن يثنيها عن ذلك، جهد بلا جدوى. هذان التوأمان من نفس الطينة وطموحاتهما لانهائية. لقد صارت إيملى أول مستوردة فى أوروبا لغذاء أمريكى - على شكل حبيبات- هو الأحدث على الإطلاق لتغذية الدواجن، يُطلق عليه فول-أو- بيب Full-o-PeP. تُجرى إيملى التجارب، وتسجل، يومًا بيوم، النتائج فى دفتر، عدد البيض، وزن الدواجن ذات اللحم الأبيض. نشرت مجموعة من الأخبار فى مجلة الحياة فى الريف la Vie à la Campagne وفى مجلة الأرض الفودوازية la Terre Vaudoise.

على الرغم من أن يرسين يُقدِّر، بشكلٍ خاص، بيض الدجاج، الذى يشكل مع الخضروات أساس طعامه، إلا أنه يبدى اهتمامًا بالفناء الخلفى لمنزله، حيث توجد دواجن صغيرة من إقليم آنام، لونها رمادى ومجهولة النوع، طليقة تعفر التراب أمام المنزل، ولكن يرسين يحظر دخول الدواجن إلى بستان الفاكهة والخضر. أما الآن، فيرسين يرى الدواجن بنظرة مختلفة، كما أن الدواجن، أيضًا، ترنو إليه بنظرة دلال مسبلة الجفون، وبإيماءات دقيقة لرأسها تراوح بين الانحناء والتَّرفع على نحو منتظم، مثل الآلات، وكأنها تشعر بأنهُ يخفى شيئًا ما، وأنها سوف تصير دواجن للبحث العلمي. يدين الباستوريون، كما يعلم الجميع، بالكثير للدواجن. قرر يرسين أن يعمل على التحسين التدريجى للفصيل المحلي. أرسلت له أخته ديكًا كبيرًا من سويسرًا من أجل دواجنه الآنامية. وهنا بلا شك، يجب علينا، بلا شك، أن نتساءل عن العصبة الصغيرة التابعة لفرويد وعن هذا التفويض لزواج المحارم. لم يرَ الدجاج المُنْدَهِش الضربةَ وهى مُوَجَّهة إليه، ولكنه سرعان ما استساغ هذا البحث العلمي.

لكن، كل هذا لا يكفي، يجب العودة مرة أخرى إلى الميكروسكوب وإلى المجلات العلمية. جالسًا أمام مكتبه، على أريكته المصنوعة من الخوص الهندي، يدرس يرسين علم الأجنة، ومبدأ هايكيل **Haeckel**، والذى بموجبه يعتمد تطور الكائن الواحد على نمو الفرد منذ النطفة الأولى وحتى البلوغ، وهو ما يرجع باختصار إلى علم الأجنة فى الكتكوت وينطبق على كل الأنواع، النشوء والتطور، فى إطار هذا النظام الجينى وتسارعه داخل البيضة، يجتاز الجنين بسرعة كبيرة التطور من مرحلة زحف الكتكوت حتى المرحلة البلوغ الدجاجية. ولأنهُ يحب البيض، ولأنه يحب أخته، يريد يرسين أن يعرف كيف يمكن أن نحصل من صفار وبياض البيضة على منقار وريش وأرجل، وقريبًا فى الطبق، على جناح أو فخذ

دجاجة، وأحيانًا البطاطس المقلية. عندما يهتم بأمر ما، فهو لا يرضى أبدًا بنصف اهتمام، بل يشمر أكمام المعطف الأبيض. يجب على يرسين دائمًا أن يعرف كل شيء، إنها غريزة أقوى منهُ. لن يستسلم هذا العَالِم الذى انتصر على الطاعون أمام الدجاجة.

تضاعفت الرسائل، يتابع الجميع تجاربه من طرف لآخر على كوكب الأرض. تُسابق إيميلى الكثيرين من أجل الحصول على جهاز الأشعة المعملى إكسوجراف **Xographe**. وهو جهاز تم عرضه فى مسابقة لبين **Lépine**، حيث ادعى مُخترعه، نوستراداموس **Nostradamus** المتخصص فى تربية الطيور والدجاج، أن هذا الجهاز يستطيع تحديد جنس الكتكوت القادم منذ وضع الدجاجة للبيضة. يهرش يرسين رأسه. "يبدو لى هذا الجهاز أشبه بالموائد الدوارة وما على شاكلتها من الهزل. كما ينبغى معرفة المبدأ الذى أُسس عليه هذا الجهاز". طلب يرسين نموذجين من الجهاز، التزم بدراسة علمية، مع مساعده المتخصص فى علم الحيوان، أرمان كرمف **Armand Krempf**، وفق منهج الإحصاء.

من أجل ذلك، أبدى اهتمامًا بموضوع التفريخ الصناعي، و كما هو الحال فى كل مرة، عندما يهتم بأمرٍ ما، لا يرتضى أبدًا بنصف عمل. لقد وضع تصميمًا مخصصًا لتربية الدواجن، تبلغ مساحته مائتى متر مربع وارتفاعه عشرة أمتار. جَلَب أفراخ الدجاج الزرقاء من لوجهورن **Leghorn**، وديوكًا هندية، وحَضَّانة كهربائية من طراز سبرات **Spratt**، كما تصور، أيضًا، مناطق للمبيض ومَحَطًا للطيور.

كل يوم يسجل الرجلان عددَ البيض وأوزانه، يقيسونه بمقياسٍ دقيق، يصفون تشوهات بعض الكتاكيت عند انفقاس البيضة. هذا العالم الجليل، الذى

لم يستطع رو وباستور أن يستبقوه بالقرب منهما، هذه العبقرية العلمية التى بطرفة عين، فى كل مرة يتفضل فيها يرسين ويكرس وقته لمشروع ما، سرعان ما تصل إلى حَلّ ألغاز علم الجراثيم. وعلى نفس المنوال، ها هو حبيس حظيرة الدجاج ، بحذائه المطاطى فى القش والروث يكرس وقته للدواجن. كلٌ بدوره، يرسين وكرمبف **krempf**، يقطب الحاجبين، يضبط الساعة الدقاقة فوق البيض المُرَقَّم، ويسجل فى الدفتر ما يتوقعه من جهاز نوستراداموس المتخصص فى الطيور والدواجن. وضعا البيض بحذر فى الحضَّانات الكهربائية سبرات **Spratt** وكأنهما يضعانه فى مهد المسيح.

وكل واحد وعشرين يومًا، تعم الفوضى المرحة، حيث نجد قشر البيض مكسورًا بضربة منقار. يمسك الملكان الساحران الباستوريان بالكتاكيت قبل أن تتفرق وننسى أرقامها. يا ترى، عَمَّ يبحث العالمان بمعطفيهما الأبيضين، والعدسة المكبرة؟ عن قضيب للكتكوت أو نهود صغيرة للكتكوتة، لاندري! على كل حال، الجهاز غير نافع. جهاز الأشعة المعملى إكسوجراف **Xographe** ما هو إلا احتيال، إذ لن يتعرف حتى، على دجاجة تبيض بيضًا من ذهب! لقد قلت ذلك من قبل، وضعنا الجهاز فى الخزانة، أو بالأحرى قدمناه إلى أطفال القرية لعلهم يهتدون لاستخدام أفضل له.

بينما كنا نتخبط، فى نهاترانج، فى غائط الدجاج، بدأت جوائز نوبل تنهال على الباستوريين من باريس. حصل لافيران **Laveran** على الجائزة تقديرًا لأبحاثه حول مرض الملاريا. كما حصل عليها ميتشنيكوف **Metchnikoff** لأعمالهِ على الجهاز المناعي. أما يرسين، فقد وضع نهاية لاختباراتهِ على إنفلونزا الطيور، سجل ملاحظته، وأرسل نسخةً منها إلى إيملي. طلب ، من أجل الحصول على نسبة أكبر من البيض فى الهند الصينية، بتهجين الدواجن من إقليم آنام مع

هذه الدواجن التى جُلبِت من إقليم وياندوت **Wyandottes**. كما اخترع يرسين غذاءً متوازنًا خاصًا بتربية الدواجن، أفضل من فول-أو- بيب **Full-o-Pep** الأمريكي، فهو اقتصادى أكثر، ومناسب، أيضًا، لسويسرا. هذا الغذاء هو عبارة عن خليط مُكَوَّن من دقيق الفاصوليا، والدم الجاف وبودرة أوراق الجَنبة. كتب ملاحظة فى الأسفل، ولكن ما من سبيل للحصول على جائزة نوبل.

سفينــة

ربما يكون الجنون الجميل الذى يشعر به يرسين إنجيليًا. إذ ترجع جذوره العميقة إلى ترانيم الكنيسة الإنجيلية الحرة فى مورج. فى لحظةٍ ما يتوقف الرحَّالة الهائم على وجهه عن الرحيل ويسْكُن، يصبح حضريًا مُقِيمًا، صياد جامع للثمار قد يصبح مُربيًا أو مزارعًا، هابيل أو قابيل. فى السن الذى كان فيه والد يرسين يسحق بجبهته صرصار المزارع الأخير، كان يرسين يفكر، بلا شك، فى أن دورَه قد حان. أو يفكر بالأحرى فى تعميم مبدأ جديد لهايكل Haeckel، وفحواه أن كل فرد على مدار حياته يستعيد بالتصوير السريع تاريخ الإنسانية كلها. الامتداد ليس وراثيًا. يبدو يرسين الآن أكبر سنًا من والده، وقد ألقى مرساة السفينة فى نهر نهاترانج ليعيش هنا ما تبقى له من سنين حياته المديدة. وقتها لم يكن يعرف أنه سيعيش فيها طويلا.

جالسًا أمام مكتبه على مقعده المصنوع من الخوص الهندي، راح يرسين يفحص مجلات الميكانيكا أو مجلات الطب البيطري. كتب إلى باريس أو إلى سويسرا: فى يوم ما سوف يستورد الأرانب من الفصيلة النورماندية أو الهولندية، فى يوم آخر سوف يستورد منظار العبور، مركبًا صغيرًا يعمل بالبخار ماركة سربوليه Serpollet، فونوغراف وعشرات من الأسطوانات الموسيقية، أو مقياس وقت كرونومتر- مسجل ماركة ديتشهايم Ditisheim. وعند كل توقف للمركب فى الخليج، يتم تفريغ مغارة على بابا، ويقترب البحارة مجدفين صوب لسان الصيادين. فى ظل الغروب الأرجواني، وصفوف الرجال

الحاملين للبضائع، العُلب والصناديق على رؤوسهم، يتقدمون على المرفأ، نحو منزل الطبيب نام الذى ينتظرهم فى الشرفة. يسفر التنقيح فى هذا الركام، فى النهاية وعلى نحو استثنائى على خطاب ينتهى بهذا التوقيع: رامبو Rimbaud. عدن. الجزيرة العربية: "أريد الحصول على جميع ما تتم صناعته بشكل أفضل فى فرنسا (أو فى الخارج) من أدوات الرياضيات، البصريات، علم الفلك، الكهرباء، الأرصاد الجوية، وآلات شفط الهواء، والآلات الميكانيكية، والهيدروليكية، والمعدنية، ولا تعنينى أدوات الجراحة".

جالسًا أمام الطاولة تحت الشرفة، أمام سخاء الخليج المُشمس، يأكل يرسين، ببطء، البيض والخضار، والقليل من اللحم، لا يشرب إلا الماء، يضع منديل المائدة على الطاولة. لهذه الأطباق، بلا شك، مذاقٌ لذيذ بفضل أوراق الكزبرة الفيتنامية. فى سائر ساعات النهار، ينشغل يرسين بتربية المواشى والزراعة. إنه يستحق لقب المزارع الرفيع، يعيش فى الريف بعيدًا عن العالم المتجهم والحشد المُدَنَّس. بذات الدقة التى تميز بها أبوه عالم الحشرات، وغلو مُشَيِّدِى الإمبراطورية، عمل يرسين على توسيع مجاله، وفق نموذج الحقول البرتغالية، الذى ما زلنا نراه فى ساو توميه São Tomé، وبرنسيب Principe. إنه شريط طويل من الأراضى المُنْحَدرة من خاصرة سلسلة الجبال الآنامية حتى نهاترانج، عينة من المناخ، مزرعة أفقية، سجادة طويلة أراد أن يبسطها من القمة وصولاً إلى البحر يومًا ما. نحن نصعد دائمًا إلى أعلى وأعلى صوب ذرى الجبال، نتوسع أكثر، ونفتتح محطات جديدة. وسرعان ما تمت زراعة قطعة أرض مكتسبة فى الغابة، بالعشب من أجل قطعان الماشية.

زادت الفِرَق الزراعية أكثر فأكثر، رسمنا مخططًا لقرية فى سوا جياو Suôi Giao، الموجودة الآن فى منتصف الطريق بين المعهد والمزارع الجديدة، هنا حيث لم يَفِدْ أحدٌ ليستقر فيها بعد، وعلى امتداد الأرض البكر تم بناء منازل على

مجموعة من الأوتاد، كما شُيدَت حظائر، مُجففات للتبغ، معمل كيميائى، ومساكن الباحثين. أقام يرسين بنفسه ولنفسه بيتًا من طابق واحد، رسم مخطط قرية نموذجية، جمهورية عتيقة، اقترح على الصيادين جامعى الثمار أن يصبحوا مزراعين أو مربين للمواشي، هابيل أو قابيل. وضع يرسين تحت تصرفهم مئة هكتار مُعَدَّة لزراعة أرز الجبل. لقد زرع أيضًا نبات الكتان لنسج الملابس.

وهكذا تم كساء المتوحشين بالاستقامة البريئة.

نقطة انطلاق التقدم

بدأنا فى اتهامه بالتشتت. حقيقةً، لسنا على خطأ فى هذا. يرسين هو مكتشف جرثومة الطاعون ومخترع المصل المعالج لهُ. كان أجدى به أن يكون موظفًا كبيرًا فى باريس أو جنيف، على رأس معمل أو مستشفى، فى الأكاديمية، فى القمة. فإذا بنا نراه منسحبًا فى قرية صيادين على الطرف الآخر من العالم، يرفض استقبال الصحفيين، مما يضطرهم بالتالى إلى اختراع قصص بشأنه، وإلى حبك أسطورة سوداء عنه. نقول أحيانًا إنه يعيش وحيدًا فى قلب بيت خشبي، يسير على لحيته لحية الزاهد، نصوره بوصفه ملكًا مجنونًا لشعب مسلوب العقل، يقوم بإجراء تجارب وحشية لا يمكن تخيلها. ثريٌّ عظيم يستثمر العلم وجولاته الخادعة لمواجهة المحاربين السُذج، ويدعى أنه قائدهم المُرسل من السماء. طاغية يتخذ من سحر الغاز والكهرباء ذريعة لاستعباد القبائل الدموية التى تتوسل إليه بالعبادة وتضحى بالنساء العذارى قرابينَ له، وكأنه نصف إله أو ملك من ملوك مملكة سيدان، وحيدٌ وشارد الروح فى رحاب مملكته. صحيح، أن أول قالب ثلج كُسر بالمطرقة فى نهاترانج، كان له أن يُحدث تأثيره. تخرج من آلة الغاز بيكتيه Pictet: طبقة بيضاء متلألئة من حصوات الثلج المجروش الذى يحرق اليد، تفترشها الأسماك وتظل طازجة حتى الغد، إنه أمرٌ جدّ هائل شأنه شأن تضاعف الأسماك فى معجزة المسيح على نهر الأردن.

ربط يرسين ما بين المعجزات والحداثة بما يتفق ورأيه فى الميكانيكا، ربط بين الشحم الأسود والمفتاح الإنجليزي، بين الحقنة والميكروسكوب،

المعطف الأبيض والعفريتة الزرقاء التى يرتديها العامل. و بوصفه أول من قاد سيارة، احتاج إلى افتتاح أول مركز لخدمة السيارات. "لقد انتهيت للتو من إتمام الصيانة المتجددة لسيارتى السربوليه ٦ حصان **Serpollet 6-CV**. لقد اختبرتها البارحة و كان سيرها ممتازًا. لقد بدأت اليوم تجديد القارب الصغير، وهو ما سوف يستغرق عشرة أيام. بعد ذلك، ينبغى علىَّ أن أقوم بتركيب موتور ثابت يدير مضخة المياه فى المعمل، ثم إصلاح سيارتى القديمة سربوليه ٥ حصان **Serpollet 5-CV**، وأخيرًا إصلاح الموتور الخاص بدراجتى النارية وبطاحونة المياه،وهأنذا أصبح مهندسًا".

على عكس الحكاية الخرافية الخاصة بالعَالِم المجنون المفقود فى الغابات، كان نشاط يرسين- خلال هذه السنوات التى سبقت الحرب العالمية الأولى- مُسالمًا أوبالأحرى مُنفرًا بالنسبة للجاهل. لقد وضع قدرته على الملاحظة ودقته القصوى وميله للأرقام وهوسه بالالتزام بالمواعيد، فى خدمة مشروع إنشاء خط سكة حديد يربط نهاترانج **Nha Trang** بيان رانج **Phan Rang**. ساحات العمل والبناء هذه مشهورة بأنها أشبه بالسلخانة، إنها الصورة القديمة لمن يموت عرضًا.

وصل يرسين إلى الكونغو، التى سوف يكتب فيها كونراد **Conrad**، نقطة انطلاق للتقدم **Un avant-poste du progrés**، ثم فى قلب الظلمات **Au Coeur des ténèbre**، واصفًا الويلات الفظيعة التى جرت أثناء تنفيذ مشروع سكك حديد قطار البلجيكيين، من ستانلى بول **Stanly Pool** حتى المحيط الأطلنطي. كما وصف داجورش **Dageurches** فى روايته الكيلومتر **Kilomètre 81** المذبحة التى وقعت فى ساحة المشروع الفرنسى لخط السكة الحديد الذى يصل بين سيام وكامبودج **Siam-Cambodge**. قابل يرسين الطبيب المسئول عن الخدمة الصحية، نويل برنارد **Noël Bernard** وهو الشخص الذى سوف

يدير ،فيما بعد، معهد باستور فى سايجون، كما سوف يكون، أيضًا، كاتب أول سيرة ذاتية ليرسين وأيضًا، لكالميت. يعرف يرسين كيف يصالح ما بين خوفه المرضى وبين الإخوة. وقد قام لتوه، مع مُسَاعدِه الجديد وتلميذه، الدكتور فاسال **Vassal**، بتطعيم المصابين بالطاعون فى جزيرة لا رينيون **Réunion La** فى المحيط الهادي. استقبلا المرضى فى ساحة العمل فى نهاترانج، وقام الرجلان بأخذ عينات ودراسة الحمى الصفراء والملاريا. "نحن من جديد فى غمرة عدوى الكوليرا. الميكانيكى الذى دربته أصبح فى طور الاحتضار بسبب هذا المرض اللعين، أما نحن فلم نكن مسلحين بما يكفى لمواجهته".

مرة واحدة فى السنة، أثناء نمو المحاصيل، يتابع الباحثون الشباب من فريقه أعمالهم، كيميائيون وعلماء حيوان وعلماء فى علم الجراثيم ومهندسون زراعيون. استعار يرسين سُلَّمًا يصل إلى فتحة فى جانب الباخرة الفرنسية بول- لوكا **Paul-Lecat** وهى درة جديدة بين سفن الإرساليات، تعادل من حيث ما بها من رفاهية فندق لوتسيا فى باريس، حيث سيقيم بعض الوقت. يسير العَالِم الغامض، المُكتشف المنعزل فى غاباته، مجهولاً فى الشوارع. وحدهم أصدقاؤه الباستوريون يعرفونهُ، وكذلك صديقه سربوليه **Serpollet**. هذا الحرفى العبقري، الحائز على أول رخصة قيادة فرنسية، وبلا شك، أول رخصة قيادة فى العالم، أول منتج لصناعة السيارات، حتى لو كانت هذه السيارات مجمعة حسب الطلب، وهو من أنتج سيارة سيربوليه ١١ سى فى **Serpollet CV-١١** والتى ستجسد ذروة نشاطه. اشترى أرمون بيجو **Armand Peugeot** الموتورات من سيربوليه **Serpollet** وأطلق مصنعه، وتلاه الشاب لويس رينو **Louis Renault**، حتى اختفت ماركة سيربوليه **Serpollet** مع وفاة ليون سيربوليه **Léon Serpollet**. ونصب له تمثال مدهش نحته جان بوشيه **Jean Boucher** في ميدان سانت فرديناند **Saint Ferdinand** فى الحى السابع-عشر

فى باريس. هما صديقان متلازمان،يرسين وسيربوليه، لقد قادا معًا السيارة بسرعة مائة متر فى الساعة، فى شارع بوفيه **Beauvais**. بعد وفاة صديقه، اشترى يرسين سيارة كليمون- بايار ١٥ سى فى **Clément-Bayard 15-CV**، وبذلك انتقل من سيارة بخارية إلى سيارة تعمل بالوقود، وبعد ذلك اشترى سيارة توربيدو **Torpéde Zèbre**. وفى يوم من الأيام، لا شيء، قام بجولة، لديه فكرة أخرى، يريد طائرة.

على الرغم من أننا ما زلنا نجهل ما سوف يحدث، يمكننا أن نَعدّ هذه السنوات بالسلب، مع قياس الزمن الذى يقربها من كارثة عام ١٤. أخيرًا، افتُتِحَ فندق لوتسيا قبل ذلك بأربع سنوات. اختار يرسين الطابق السادس وغرفة فى الزاوية، حيث تتوفرالرؤية الطليقة لبرج إيفيل على مرمى الأفق. فى هذا الصيف، لديه موعد فى مطار شارتر **Chartres** لكى يجرب طائرة، رتب كل ما يلزمه للطيران، القفازات والنظارات الكبيرة. فى محاولته الأولى، لم يكن مطمئنًا تمامًا، نزل وسيقانه ترتجف، كتب لإيميلى يقول: "هذه الآلات ليست إلا ألعابًا خطيرة". هو مُعجبٌ بشجاعة لويس بليريو **Louis Blériot**، الذى استطاع فى العام الفائت عبور المانش بمفرده على متن إحدى الطائرات من هذا الطراز. ساوم فى الأسعار، وأجَّل المشروع لوقتٍ لاحق لعدم وجود مهابط للطائرات فى الهند الصينية. يمكن له أن ينشئ مهبطًا خاصًا به فى نهاترانج، ولكن إنشاء مهبط واحد يعنى أنه يحكم على نفسه بالطيران دومًا، وهذا أمرٌ مُمل.

بعد عامين، وقبل عامين من الحرب، عاود الطاعون ظهوره فى الصين. خشى يرسين أن يلقى فى الصين الضربة نفسها التى لاقاها فى بومباي. "هناك،أصلاً، العديد من الأطباء فى المواقع المُصابة. وعلى كل حال، كتبت إلى أستاذ رو لأقول له إذا كان يرى أدنى استفادة لمعهد باستور من تواجدى فى منشوريا **Manchourie**، فما عليه إلا أن يرسل لى برقية بذلك، عندها سأسارع

بالرحيل إلى هناك". فى العام التالي، قبل عام من عام ١٤، ذهب ألبير شفايتزر Albert Schweidzer إلى لمبارينا Lambaréné ليفتتح مستشفاه الإفريقى، مما أدى إلى حصوله على جائزة نوبل. قام بتمويل أعماله من جراء دخله من حفلاته الموسيقية التى يعزف فيها على آلة الأورج ومن تسجيله أسطوانات لموسيقى باخ Bach فيما بعد. فى هذه الآونة، كان يرسين مشغولاً بالمطاط.

جعل من نفسه مُزارعًا، وبدأ المشروع يثمر إلى حدٍ ما، ويكفى معاش معهده، ثم زاد المحصول كثيرًا وأصبح مورد ثراء. لقد استطاع أن يتنبأ بانطلاق السيارة والدراجة فى المستقبل. وضع الأرباح فى صندوق فى بنك هونج كونج شنغهاي. ثم جاء عام ١٩١٤. تم اغتيال جاستون كالميت Gaston Calmette بمسدس وهو فى مكتبه فى صحيفة الفيجارو، وقُتِل جون جورس Jean Jaurès فى المقهى. إنه شهر يوليو فى سراييفو Sarajevo. لمدة أربع سنوات توالت مجازر الرجال الأقوياء الشجعان، واستُخْدِم الغاز فى المعارك. من وقت لآخر يرسل يرسين شحنات من المطاط إلى كليرمون فيرون Clermont-Ferrand، لكنه لن يغادر جَنَّتَه أبدًا. راح يعظم من شأنها أكثر ويُجملها أكثر فأكثر.

ملك المطاط

هو أول راكب للدراجة فى آنام **Annam**، أول راكب للدراجة البخارية، وأول راكب للسيارة، وكان لديه من الذكاء العقلانى ما يكفى حتى يكون أيضًا أول منتج للمطاط منذ إقامته فى مدغشقر. يقرأ المجلات العلمية ويتتبع تطورات الصناعة والميكانيكا، مبهورًا بكل ما هو حديث على الإطلاق، وهذا هو حال العجلة المصنوعة من المطاط.

فى مدينة كوندامين **Condamine** ، ومن خلال قافلته الصغيرة المُكَوَّنة من العلماء التنويريين التى تم إرسالها إلى خط الاستواء فى القرن الثامن عشر، سنعرف لبن المطاط الذى يستخلصه الهنود من النباتات، ويستخدمون الصمغ لإحكام السد والعزل للحفاظ عليه. يخاطرون بالبحث عن شجر المطاط البرى فى الجحيم الأخضر لغابات الأمازون. سرق الإنجليز الحبوب من البرازيل، وراحوا يبذرونها فى سيلان **Ceylan**. قام الهولنديون بالأمر نفسه فى جاوا **Java**. هنا أيضًا ، سرعان ما أصبح الصراع سياسيًا وجغرافيًا استراتيجيًا. ذهب يرسين إلى جاوا.

من باتافيا **Batavia** ذهب إلى بويتنزورج **Buitenzorg**. "تتم الزراعة هنا على نحو مُدهش. شعبها شعب هادئ. توجد عدة براكين وأكثر منها ظواهر طبيعية مثيرة للفضول مما يجعل الجزيرة محط اهتمام". يزور مناطق الزراعة فى ماليزيا، يختار البذور من مالاكا **Malaca**. ينتقى بذور الهيفا البرازيلية

Heva brasiliensis. حين زرع أولى أشجار المطاط ، كان جوديير Goodyear قد اخترَع تقنية المطاط بالكبريت منذ خمسين عامًا، وكان دونبول Dunpole، أيضًا، قد اخترع العجلة منذ عشرة أعوام من قبل. لقد بدأنا بزراعة مائة هكتار. فى بداية الحرب، طرحت الأشجار كمية من لبن النباتات تصل إلى طنين فى الشهر. تواصلنا مع العبقرى ميشلان Michelin وصلنا إلى ثلاثمائة هكتار. عملية من ذهب. كان يرسين فعالاً وفكر فى الأمر جديًا.

يُعزى هذا النجاح، أيضًا، إلى لقائه بفرنيه Vernet، وهو مهندس زراعى أرسله فيلمورين Vilmorin إلى آسيا ليجمع منها النباتات. كلفه يرسين بالعمل معه، يعرف يرسين كيف يحيط نفسه بأفضل العناصر ويستمع إليهم. لم يكتف يرسين بأن يكون المُزارع الأول لأشجار المطاط فى آنام، بل أراد أن يقوم بدراسة الهندسة الزراعية. اتفق الرجلان على قواعد العمل، حررا المقالات حول الطبيعة الكيميائية للأراضي، قاما بتجارب على السماد، جمع البذور، تكنيك تخثر لبن النباتات، عمل المسقاة وشق قنوات لمجرى عصارة النباتات. أُجْرِيَت التجارب على أشجار تم التضحية بها، تُنزع منها كل أوراقها أو بعضها، وقد خلصنا إلى أن: "نسبة المطاط التى تحتويها أشجار لبن النباتات ترجع، فى جزءٍ كبيرٍ منها، إلى وظيفة المادة الخضراء فى النبات: نستطيع، إذن، أن نعزو إلى الأوراق الدور الرئيسى فى تكوين المطاط".

اخترع الرجلان جهازًا لقياس الكثافة النسبية -Picno dllamomètre أثبت فاعلية أكبر من جهاز الأشعة لقياس الكثافة Xographe ، وهو جهاز مُخَصَّص لقياس كثافة لبن المطاط ومقدار ما يحتويه من صمغ. أعدَّ الرجلان قوائم من الحسابات، ثم اختلفا فيما بعد. يشكو يرسين إلى كالميت قائلاً: "فرنيه Vernet شخصية قميئة، تفاهة فظة، عناد بغل، وعقل متناقض للغاية". يريد يرسين أن يعمل مباشرةً مع مُخْتَص من كليرمون- فِرون Clermont-Ferrand. طلب

يرسين منهُ أن يُعيره أحد مهندسيه فى نهاترانج". بالتأكيد، ميشلان هو الرجل الأكثر كفاءة وخبرة فى مسائل المطاط". طلب دعمًا من الباستوريين. " ومن ثم، كتبتُ خطابًا إلى ميشلان، استودعته الأستاذ رو، وهو الوسيط بينى وبين ميشلان".

لكنها الحرب فى أوروبا، ورو لديه مشاغل أخرى. فقد أرسلناه فى مهمة طبية إلى الجبهة. أما معهد باستور ومعهد كوخ ، فهما على الجهة الأخرى من حرب الخنادق، تَكَفَّل كلٌ منهما بخدمة دولته الأم. يرسين منعزل. لا تجيب فرنسا عليه قط. أخذ عصاه عصا الحاج، وعاود تجواله فى الجبال بصحبة أرمان كرمف **Armand Krempf**، انطلاقًا من سُوَا جياو **Suoi Giao**. بعد يومين من الإبحار، ويومين من تسلق الجبال، أقاما خيمتهما على الرُّبى، فى عزّ البرودة وتحت الأمطار، اكتشفا تلة هون با **Hon Ba**.

فى بضعة أشهر، أقمنا هناك مرصدًا للأحوال الجوية، بادرنا بمساعٍ لتوطين أنواع نباتية وحيوانية، وراعينا مشاتل. هبطت الحرارة حتى ست درجات، واكتست التلة بغمام كثيف فى الشتاء. المزيد من البعوض ونهر يغلى فى الصيف. أقام يرسين لنفسه بيتًا ريفيا على النمط السويسرى فى صقيع الغابة. "أرسلتُ تلغرافًا إلى الأستاذ رو أسأله عما إذا كانت هناك خدمة مفيدة أستطيع تقديمها لفرنسا أثناء الحرب، أنتظرُ منه ردًا". أبلغناه بأن يظل فى آسيا.

يعرف أنه لن يستطيع السفر أبدًا، يجب عليه أن ينسى فندق لوتسيا **Lutetia**، وأن يقلع عن فكرة الإقامة فى فندق بول-لوكا **Paul-Lecat**. لقد فاقمت الحرب، أو بالأحرى مشاجرته مع فرنيه **Vernet**، من بغضه للبشر. غلبته عادة قضاء عدة أسابيع متوالية بلا انقطاع، زاهدًا فى بيته الريفي، هنا على قمة التلة، على شاطئ النهر، حيث يذهب ليتزود بالماء، عازمًا على ألا يرى أحدًا وألا ينطق

بكلمة وأن يكسر الأخشاب للموقد. الآن أصبح لدى يرسين، مثل روسل **Russel** الأصغر منه سنًا، ثلاثة منازل فى ثلاثة أجواء مناخية مختلفة بدون الخروج من بيته، أى من المجال الذى يمتد لمساحة خمسة آلاف هيكتار، مساحة قد تتضاعف ثلاث مرات فيما بعد. منذ عامين، غاصتَ الحرب فى الوحل. إنها مدينة فردان **Verdun**، يجلس يرسين فى بيته الريفي، يدرس علم الطيور وعلم البساتين، ويسوِّد دفاتره. "لديَّ الآن بعض زهور الأقحوان من اليابان، زهور شعثاء، رائعة الجمال. إنها لمتعة حقيقية ألا أفعل شيئًا سوى تأملها".

ربما، بسبب الفراغ، راح يغذى ولعًا جديدًا بزهور الأوركيديا **orchidées**، يجمعها وينجح فى رفع عينات منها فى البلاد التى لم تطلها الحرب، ومن ثم استُبْعِدَت مشاتلها من موجات القتال. من أمريكا الوسطى، وعبر المحيط الهادئ، جلب إلى نهاترانج أنواعًا نادرة من النباتات من كوستا ريكا **Costa Rica**، وأقام مبنىً زجاجيًا هائلاً استنبت فيه هذه النباتات ووضع فى وسطها أدوات التصوير، كاميرا مُجسمة ماركة ريشار **Richard**. لأول مرة، فى معمله، يلتقط صورًا بالألوان. من بين كل الصور التى التقطها عبر عشرات السنوات، ظلت مئات من الصور، لم يرها أحد قط تقريبًا، مستقرة صابرةً فى أرشيف معهد باستور فى باريس.

زرع أمام منزله شجرة تين. كانت إيملى قد أرسلت له فسيلة منها، اقتطعتها من أشجار التين المُحيطة بمنزلهم بمورج. يدرس علم زراعة الأشجار، ويتعلم كيف يتم ترقيد الغصن حتى يصبح قابلاً للغرس وتكثير النبات. أعدَّ أدوات الغرس لأشجار الفاكهة ووطَّن أشجار التفاح والبرقوق: "لقد عانت شجرة المشمش أكثر من شجرة الخوخ فى فصل الرطوبة". حاول يرسين أن يثنى الفلاحين عن القطع والحرق **abattis-brûlis**. فهذا بمثابة كارثة بيئية، ومع ذلك تعطى هذه الكارثة لأرز الغابة النابت فى قلب الرماد مذاقه المدَخن اللذيذ. قاد

يرسين حملة لتشجير الغابة، بمعاونة عصبته الصغيرة فى نهاترانج، يعد قائمة للأنواع النباتية ذات الأمراض المستوطنة ويصفها: الليم، الكام اكسيه، جيونج هونج lims, cam x, giong huong . هنا تصلح أشجار الدنب الهندى لنحت أوتاد لإقامة أسوار الزرائب. نحفر مغارس، خنادق طويلة بطول كيلومترٍ واحد، نملؤها بأوراق أشجار فى حالة تحلل، وبالتربة التى تزيد فيها من نسبة المواد العضوية.

يستمر فى كتابة كل هذا فى رسائله التى يبعث بها إلى المعهد فى باريس، كما لو كان يتابع مع الباستوريين اليوميات ذاتها التى يداوم على إرسالها إلى فاني. كتب إلى رو يقول: «أزدادُ ولعًا بزراعة الزهور أكثر فأكثر، أرغب فى أن أكسو قمة الجبل بالزهور، وأتمنى تحقيق هذه الأمنية مع الزمن. أجرب نباتات جبل الألب، لديَّ، أصلاً، بذور التوت البرى و شجيرات الجنطيانا الزرقاء التى أراقبها بقلق». يمكننا أن نتخيل رو وهو يرفع كتفيه أمام قلق يرسين هذا، أو حتى الضحك الهستيرى الذى ينتابه عندما يتذكر رؤيته لليوم الرهيب الذى تطايرت فيه القذائف والأجساد المتهتكة العفنة على الأسلاك الشائكة. لبضعة أيام، يعود رو من الجبهة ، بزيه العسكرى المُلطخ بالطين والدماء، حاملاً شارة الصليب الأحمر، فتح الرسائل التى كتبها يرسين، شعر بالقلق حيال زهور الجنطيانا الصغيرة الزرقاء.

بعد البحر والجبال،الآن، تستهويه الزهور، ولم لا؟ الطيور الصغيرة أيضًا؟.

يبنى يرسين أقفاصًا للطيور، ويحيط نفسه بطيور أنثى وذكر الببغاء. علاوة على ذلك يجلب، من كل مكان تقريبًا، الطيور الغريبة، وراح يطلقها فى الصوبة الزجاجية لنبات الأوركيديا.

لم يعد الباستوريون يستمعون إليه قط، فتح بابًا للمراسلة مع هنرى كورفون Henry Correvon، يحدثه عن حديقة لتوطين النباتات فى إيفردون Yverdone فى سويسرا. طلب منه حبوبًا ونصائح. وسوف يذكر كُتَّاب سيرته الأوائل زهرة قَتْلايا وهى زهرة عطرة، وزهرة خبيزة hibiscus، ونبات أماريليس amaryllis، بالإضافة إلى أزهار منقار الببغاء becs-de-perroquet فى نهاترانج. أما على الرُّبى السامقة، فى سواى جياو Suôi Giao، فسوف نجد أزهار القطيفة amarante، والعينية l`oeillet، وزهرة نبات رعى الحمام verveine، وأزهار اللوف arum، وبخور مريم cyclamen، وزهرًا نباتيًا ألمانيًا fuchsia . و فى هون با، سنجد الورد و الأوركيديا. فى هذه الخطابات، يعرض يرسين قائمة النباتات التى تنبت أوراقًا ولا تؤتى ثمارًا أبدًا: منثور من الفصيلة الصليبية giroflées، والياقوتية وهى زهرة جميلة من الفصيلة الزنبقية jacinthes، والنرجس، وزهر الخزامى. يعكف يرسين على دراسة النباتات، الزهور هى الأعضاء الجنسية للنباتات.

ولكن، ربما تكون هذه الزهور، مثله، قد قررت ألا تتناسل أبدًا.

يعرف الترهات التى تخترعها الصحف. لقد قرأ فيها حماقات ملحمته السوداء، وأنها قد نسبت إليه ذرية، وأن إحدى مواطنات الجبال هى أم ابن الدكتور نام Nam. امرأة من هذه القبائل التى لا تهتم الجمهورية ولا إمبراطور آنام بإحصاء سكانها. سوف تكون هناك أقاويل أخرى. ما يُنسب للمرء يُسيئ لسمعته. الأكثر ترجيحًا هو أن يرسين، أصلاً، بعيدٌ جدًا عن السلوك العاطفى الذى يخلف نسلاً، فقد قضى زمنًا لا بأس به فى المعمل يزوج ذكور الضباع إلى إناثها، ويدس أنوف الفئران فى الأعضاء التناسلية للفأرات للتعجيل بالتجربة، وما من مرة التقط فيها جرثومة الحب فى هذه الطبخة. وهو، بلا شك، يبدى احتقارًا للمرايا والزنا والفسوق الذى يضاعف بلا سبب عدد الكائنات.

لن يسافر يرسين أبدًا من بعد، لقد قام بجولة حول العالم وحول السؤال. هو يعرف أن الكوكب يتقلص، وسوف يصبح فى كل مكان هو ذاته، وأن ما يجب أن نخشاه قريبًا هو "هذا السحر البرجوازى المتكرر عند كل النقاط التى تقلنا إليها السيارة". الآن هو شجرة. أن تكون شجرة فهذه حياة، وهذا لا يعنى ألا تتحرك. لقد ناهز العزلة الجميلة والعظيمة. ناهز الملل المدهش. وفى المساء، حين ينجح التعب فى استبعاد كل أهوائه، التى تستمر فى الدوران دونما حاجة لاحتساء الكحول. كنا سنتتحدث كثيرًا عن كل هذا مع أبيه حتى نسأله عن رأيه. يتذكر أنه اليوم أكثر تقدمًا فى العمر من أى وقت كان. بدأنا ننتظر الموت، ونرى له شعاعًا يعلو على التحلل. كم يتمنى أن يتحلل ها هنا على هذه الأرض. غالبًا فى المساء فى منزله الريفي، وهو وحده مع قططه السيامي، يعيد قراءة باستور. "إذا ما اختفت الكائنات الميكروسكوبية من على الكرة الأرضية، فإن مساحة الأرض سوف تزدحم بالمادة العضوية الميتة وبالجثث من كل نوع، حيوانات ونباتات. وهذه هي، أساسًا، ما يمنح الأكسجين خصائصه الحارقة. ودونها، سوف تصبح الحياة مستحيلة لأن عمل الموت سوف يكون ناقصًا". إنها الحياة التى تريد أن تحيا، تنفصل بأسرع ما يمكن عن هذا الجسد الذى يشيخ حتى تقفز إلى جسد جديد، وهذه الأجساد، تقوم الحياة بتعويضها ومكافأتها على مشاركتها اللاإرادية فى خلودها ، فتقدم لها عملة نشوة الجماع. ما من شيء يأتى من لا شيء، كل ما يولد يموت. بين الأمرين، كل واحد حر فى أن يعيش حياة هادئة ومستقيمة مثل فارس على حصانه. وحدها هذه الرواقية القديمة التى عثر عليها سبينوزا والقوة الملازمة للحياة هى ما يبقى. هذا المبدأ النقي، هذه الطبيعة المتطبعة التى يعود إليها كل شيء. الحياة هى التمثيلية الهزلية التى يمارسها الجميع.

استسلم قليلاً لبعض الأفكار المُحزنة، الحرب لا تنتهي، منذ أربع سنوات والشعبان الشقيقان يتقاتلان، يلقيان بالآلاف من أطفالهما إلى قمامة الخنادق. لاريب فى أنه لن يرى السلام أبدًا، لا فى باريس ولا برلين. النصر غير محسوم. وكلا الطبيبين كليمونسوClemenceau ورو Roux، يوسعان الخطى على الجبهة.

إلى الأجيال القادمة

بعدما وضع كتابه المُفضل، تراءى له التمثال الكبير للفارس الهمام منتصبًا في غمرة الظلام، بسترته السوداء ورابطة العنق، والعيون الزرقاء ، مقطب الحاجبين، وفمه يردد العبارات التي يحفظها يرسين عن ظهر قلب: " بما أن الطاعون مرض نجهل أسبابه تمامًا ، فليس من المستبعد منطقيًا أن نرجح أنه ناتجٌ ،هو أيضًا، عن جرثومة بعينها. ينبغي أن يسترشد كل بحث تجريبي ببعض الأفكار المُسبَقة، ربما نستطيع بلا ضرر، بل وعلى نحو مفيد جدًا، أن نشرع في دراسة هذا الوباء على اعتبار أنه طفيلي". عندما كُتِبَت عبارات باستور هذه بوصفها مُقدمة لنظرية الجراثيم أو بوصفها فرضية عمل. كان يرسين، حينها، في السابعة عشر من عمره. كان طالبًا شديد الجدية يجلس تحت أشجار الزيزفون في مدرسة مورج الثانوية. خمس سنوات قبل التطعيم الأول ضد سعار الكلب **antirabique**، وأربعة عشر عامًا قبل اكتشاف البكتيريا عَصوية الشكل في هونج كونج.

كما لو أن باستور قد اصطنعه اصطناعًا، هو، يرسين، وهيمن على حياته، حياة هذا الحيوان المعملي، وكما لو كان العجوز المفلوج العاجز عن السفر، قد أرسله إلى هونج كونج بدلاً منه، أرسل إلى هناك هذه الأقدام الشابة، وهذه الأذرع الشابة والعيون الزرقاء الشابة، عيون يرسين، ولاسيما الروح الشابة ليرسين التي هيأها لقوة الملاحظة، كما لو كانت حياته تستجيب لنبوءة باستور.

حتى المصادفة التى حرمته فى هونج كونج من فرن التجفيف، جعلته يكتشف- فى الحرارة المحيطة - البكتريا العصوية الَشكل قبل كيتاساتو Kitasato ، الذى شَرَد بسبب دراسته للبكتريا فى نطاق حرارة الجسد الإنساني. كما لو لم يكن اكتشاف يرسين إلا مثلاً مُبِينًا للحكمة التى كتبها باستور قبل ذلك بأمد طويل: " فى ميادين التجربة والملاحظة ، لا تتيسر الصدفة الكاشفة إلا للنفوس المُهيَّأة لها" .

يرسين هو عبارة عن شخصين، نسخة من الشاب المتخصص فى علم البلورات والذى طاف أوروبا فى عصر الإمبراطورية الثانية وكتب بحماس: "سوف أذهب حتى تريستا Trieste فى إيطاليا، سوف أصل إلى نهاية العالم، ينبغى أن أكتشف مصدر حمض مُرازم acide racémique". وها هو، أيضًا، نسخة من الشاب باستور ، يقفز فى عربات الجياد والقطارات من فيينا إلى ليبزيج Leipzig، ومن دريشد Dresde إلى ميونخ Munich ، إلى براج Prague، يقوم بأبحاثه فى المخازن أو فى حجرة السلم، يجر حقيبته من مكان لآخر، وهى زاخرة بأنابيب الاختبار والأجهزة المعملية والحقن والميكرسكوب وهو عين عيوننا. يتسلق بحر الجليد من شامينو Chaminox (بلدة فى فرنسا) حتى يحصل على عيناته من الهواء النقي.

لاحظ يرسين أن باستور الذى لم يكن طبيبًا قط ولكنه غَيَّر تاريخ الطب، تمكَّن من أن يكون مكتشفًا عظيمًا. كانت لديه الموهبة، هذه الموهبة التى تجلت فى الصور التى يستخدمها لوصف أبحاثه: "مع التقدم فى اكتشاف المجهول، أصبح العالم أشبه بالمسافر الذى يناهز القمم التى تزداد ارتفاعًا أكثر فأكثر، عندها تمْثُل لناظريه مساحاتٌ شاسعة جديدة عليه أن يسكتشفها" . عشر سنوات قبل وفاته، ذهب باستور إلى إدنبره Edimbourg بصحبة فرديناند ديليسبس Ferdinand de Lesseps. ذهب الرجلان وهما فى أوج شهرتهما لمقابلة ابنة

ليفنجستون Linvingstone، الطبيب، القس المُكتشف. بعدها بعدة سنوات، قام باستور بدعوة يرسين على العشاء بعد المحاضرة التى ألقاها فى الجمعية الجغرافية، سأله عن رحلاته الاستكشافية، وقرأ تقريره عن رحلته إلى قرية مواس Moïs، وسرعان ما حرر، بحماس، خطابات توصية، ووضع شهرته المرموقة فى خدمة هذا الشاب الذى ، مع ذلك، لا يرغب قط فى أن يسمع أى حديث عن البحث العلمى وغادر العصبة الصغيرة منذ أمد. أرسل له يرسين، تعبيرًا عن شكره لأستاذه ، سنَّ فيل بديعة منحوتة، ما زالت حتى اليوم معلَّقة على الحائط فى شقة باستور التى أصبحت متحفًا.

مُمددًا وحده، ليلاً، فى بيته الريفى فى هون با Hon Ba بعيدًا عن القنابل، وقد تجاوز الخمسين من عمره. لا يعيش يرسين أوهامًا بما فيها وهم شهرته هو نفسه، فهو يعرف جيدًا أنه لن يترك وراءه سوى هاتين الكلمتين اللاتنيتين Yersinia pestis اللتين لن يعرفهما سوى الأطباء.

الرسالتان العلميتان اللتان حررهما الشاب الباستورى هما: رسالة فى الكيمياء بعنوان: بحوث حول كفاءة التشبع فى حامض الزرنيخ. والرسالة الثانية فى الفيزياء بعنوان: دراسة للظواهر المتعلقة بالاستقطاب الدوار للسوائل، هاتان الرسالتان لم تدلا قط على رغبة يرسين فى إحراز نجاح شعبى مباشر لبحوثه.

العالم بيو Blot هو أستاذ باستور، وبوصفه طالبًا، حضر باستور احتفالية استقباله فى الأكاديمية الفرنسية، واستمع إلى الكلمة التى ألقاها، وإلى نصائح الشيخ العالم لشباب العلماء، بما يؤهلهم لأن ينذروا أنفسهم لخدمة العلم الخالص: "ربما سوف تجهل الجموع اسمك ولن تعلم بوجودك، ولكنكم سوف تُشهرون وتُحترمون، وسوف تُنَقِّب عنكم فئةٌ قليلة من أناس بارزين، موزعين

على كل مساحة الكرة الأرضية، إنهم منافسوكم ونظراؤكم فى مجلس الشيوخ العالمى للأذكياء، هم وحدهم لديهم الحق فى تقديركم وسوف يولونكم مرتبة ومكانة مُستحقة، لا تستطيع سطوة وزير ولا إرادة أمير ولا النزوات الشعبية أن تجردكم منها أو أن ترفعكم إليها. إنها مكانة ورتبة باقية بقدر ما تُخلصون للعلم الذى منحكم إياها".

بعد عدة سنوات، جاء الدور على باستور المُسن ليحرر كلمة الاستقبال ويرتدى الرداء الأخضر ويضع السيف فى غمده، ويُحَيِّى المثقف العظيم، الوضعي، كاتب سيرة أوجست كونت **Auguste Comte**، والمُعجمى الذى نحت الكلمات الجديدة: الميكروب الجرثوم **microbe**، الميكروبي **microbie** علم الميكروبات ، علم الجراثيم. لقد أراد أن يكون مفتتح الكلمة التى سوف يلقيها مُعَبِّرة عن تواضعه: "يهيمن علىّ شعورٌ بعدم كفاءتى من جديد ، وما كنت سأشعر بالاضطراب لوجودى فى هذا المكان، لو لم أكن أعرف أن من واجبى أن أمنح العلم فى ذاته هذا الشرف اللاشخصى، الذى غمرتمونى به". وبما أن الأمر دائمًا ما يكون أكثر تعقيدًا من ذلك، فإن مثل هذا التواضع يبدو بلاغيًا تمامًا.

إنه يخفى كبرياءً هائلاً، لقد كرس باستور أعوامًا من عمره لتشييد تمثاله الخاص، مُتحليًا بهذا الميل المُغَالى فيه- لدى الفرنسيين- للأبهة والصروح التذكارية، والمجد والمشاحنات السياسية. هذا الخليط بين النزعة العالمية والحب المقدس للوطن، والذى لا يمكن التخلص منه، هو ما جعل الطالب الشاب لويس باستور - وهو ابن رجل ناقم على بونابرت **Bonaparte**، قد صار جمهوريًا نشطًا - يكتب يقول: "مثل هذه الكلمات السحرية: الحرية والإخاء، ومثل هذا التجدد للجمهورية البازغة مع شمس عامنا العشرين، يثلج صدورنا بمشاعر لم نعرفها من قبل وهى بالفعل مشاعر لذيذة !".

كل هذه التطلعات السياسية، الغريبة تمامًا بالنسبة ليرسين، هى التى قادت باستور، فى أوج شهرته، إلى توسل التصويت الشعبى ورشح نفسه لمجلس الشيوخ، ولكنه خسر فى النهاية. يعرف يرسين الضياع اللانهائى للوقت الذى أنفقه باستور فى مشاحناته ضد الأطباء، ضد نظرية التوالد التلقائى **La génération spontané**، ضد بوشيه **Pouchet**، ضد ليبيج **Liebig**، وضد كوخ**Koch** . تم نحت تمثال لشخصه، وهو على قيد الحياة، بفعل صرخات قوية تتراوح ما بين التقريظ والنقد اللاذع، ما بين السندان والمطرقة، مما أشعل مشاحنات لا تنتهى فى أكاديمية العلوم وأكاديمية الطب. نظام الرسائل المُغلقة المُوَقّعة والمَختومة لتأمين أسبقية اكتشافاته، ولاسيما الاكتشافات الأخيرة التى لن تُعرف إلا فى نهاية القرن العشرين. شهادة الشرف التى حصل عليها ومُزقت وأعيدت إلى مدينة بون **Bonn** بعد سيدان **Sedan** و تفجيرات باريس، معاهدة فرانكفورت المخيفة مثلها مثل معاهدة فرساى التى ستُبرم فيما بعد. الدعم السياسى من قبل الإنجليز، ومن قبل الجراح ليستر **Lister**، والعبارة التى قالها عالم الفيسيولوجى هكسلى **Huxley** فى الجمعية الملكية فى لندن: " حسبنا اكتشافات باستور وحدها لتغطية تكاليف الحرب التى بلغت خمسة مليارات دفعتها فرنسا لألمانيا" وإلا سوف تضطر الجمهورية أن تصرف معاشًا لهذا المُفلس صاحب الفضل على الإنسانية. لكن باستور سوف يحفر اسمًا فى التاريخ وهو ما لن يتوفر ليرسين.

يعرف يرسين جيدًا أنه قزم. ومع ذلك فهو قزم كبير.

كان عليه، حتى يكسب الأجيال القادمة، أن يخترع منتجًا صالحًا للاستهلاك الجاري، وبما أن القرن العشرين سوف يكون قرن الهمجية والعلامات المسجلة باسم هؤلاء :

جستن فون ليبيج ، وتشارلز جوديير، وجون بويد دانلوب، وأندروا وإدوارد ميشلان ، وأرماند بيجو، ولويس رينو. فلن تنسى الجماهير إلا أسماءهم الأولى.

لو كان أطلق اسم يرسينيا Yersinia على الكوكا ، وقام بتسويقها على هذا النحو، لِكان اسمه قد ازداد تألقًا.

يتمدد يرسين ليلاً فى بيته الريفى فى هو با Hon Ba. فى عمره هذا، كان باستور وأبوه يعانيان منذ أمد من نزيف فى المخ. انتظر باستور المُسن الموتَ وهو على مقعده، منعزلاً فى فيلنوف- ليتان Villeneuve-L`Etang فى العقار الملحق بمعهد باستور، والذى ما زال تلاميذ باستور وأعوانه يطلقون عليه ملحق جارش Garches، والذى ما زال قائمًا فى مارن لا كوكيت Marnes-la-Coquette وسط الطبيعة والأشجار السامقة المحيطة بالمنتزه. إنه فصل الصيف، ها هى الشمس تلهو بأوراق الشجر، وعيون من نور ترفرف على الأرض. مطمئنًا ساكنًا، ينتظر جنازته الوطنية والشعائر فى كنيسة نوتردام. لقد رتب كل شيء مع رو Roux. سوف نرفض حتى أن يدفن فى مدفن مشاهير الأمة البانتيون Panthéon. سوف يستقبل رفاته مدفنٌ فرعوني، فى بدروم معهد باستور، ذو أعمدة رخامية ومذهبات وفسيفساء بيزنطية. تنبض روحه عبر الكلمات التى تُرَقِّم رثاءه: الفرح، البسالة، الاستقامة.

لقد التزموا ووقعوا جميعًا على حكمة فيلسوف قديم، وهى حكمة بسيطة جدًا: تصرف بحيث يمكن لقاعدة تصرفك أن تكون قاعدة للبشرية بأسرها.

فواكه وخضراوات

صباح الغد، استيقظ يرسين مغمورًا بالسكون والسلام، وسعد بأنه قد استطاع، فى الأرض المحيطة ببيته الريفي، أن يُوَطِّن زراعة البطاطس والفراولة والتوت والفاصوليا الخضراء، والخس، والبنجر والجزر. "لقد أكلتُ، منذ بضعة أيام ، أول ثمرة خوخ نضجت فى هون با Hon Ba". التربة حمراء خصبة غنية أسفل العشب الأخضر. بعد قرنٍ من الزمان، سوف يشهد إقليم دالات Dalat، دومًا، زراعة البساتين والحدائق والنباتات التى استوردها يرسين، كما سوف يُصَدِّر الإقليم الخرشوف وعش الغراب إلى كل أنحاء فيتنام. ليس من المدهش، إذن، أن تشرف صورته على البحيرة، وأن يُعْرَف اسمُهُ ويشتهر هنا أكثر ألف مرة مما شُهِرَ فى باريس.

عندما هبط مرة أخرى إلى نها ترانج Nha Trang، جلس أمام جهاز المذياع بموجاته القصيرة، يستمع إلى أنباء عن أعداد الأسلحة الكيمائية المُستَخْدَمة فى المَذْبَحة المُروِّعة التى جَرَت فى شومان دى دام Chemin-des-Dames ، كما لو كانت الحياة، هناك، بلون الأسود والأبيض، وكانت هنا بألف لون. اشترك فى خدمة إرسال الرسائل برقيًا فى هافاس Havas ورويترReuter. يمكن للروس والأمريكيين الآن أن يقتسما أوروبا المنهارة تمامًا، وأن يسودا على ساحات الدمار، والتربة المزعزعة لكل أوروبا، مثلها مثل ساحة مدينة فردان Verdum الفرنسية التى يَعمها الطين والغازات والأشجار الميتة، كما لو كانت القيامة

قد قامت هناك، وكانت مهمته فى هذه الآونة هى إنقاذ جمال أوروبا على ظهر سفينته الآسيوية. أصبح وصول الخطابات رهن الصدفة، وصارت عزلته أكبر فأكبر. "أختى العزيزة، منذ وقت طويل لم أتلق أخبارًا عنك، ينقصنى حتمًا خطاب أو اثنان، ربما يكونان قد غرقا فى البحر الأبيض المتوسط" . دوَّن يرسين أسماء السفن التى تبحر على خط مارسيليا- سايجون Marseille-Saigon والتى تم تلغيمها من قبل الألمان، كما دون تواريخ اختفاء هذه السفن وهي: Ville-de-la-Ciotat, le Magellan ، ثم l`Athos التى أبحرت من الجبهة بحمولة من لبن النباتات من سوا جياو Suôi Giao، ثم l`Australien...

كل الشباب الذكور رحلوا إلى الجبهة. أما فى الهند الصينية فنجد حفنة من رجال باستور المسنين الذين تم انتشالهم من الغرق. سيمون Simond، وهو رجل أكنف، غادر البرازيل إلى معهد باستور فى سايجون. استطاع يرسين أن يجعله شريكًا له فى محبة الزهور السحلبية وفن التصوير، واستأنف الرجلان التراسل. "كتبت إلى لوميير Lumiére أطلب منه رقائق معدنية خام، وأعتقد أنى سأتلقى إجابة منه قبل مُضى شهر، حينها سوف أبشرك باستمرار صناعة الرقائق المعدنية ذاتية الألوان أو انقطاعها عقب الحرب" .

أخبرها بأنه سوف يذهب إلى رحلة صيد مع كرمف Krempf: "حتى يلتقط صورًا لزهور السحلبية orchideés المثيرة للاهتمام فى نيو شوا شوان Nui Chua Chuan" . فى هذا الخطاب نفسه، يشكو يرسين، من جديد، من هذه الملحمة السوداء ومن هذه السخافات التى يُشيعها الصحفيون عن حياته العاطفية أو الجنسية، والتى تبدو، مع ذلك، مثل حياة كرامف حياة صحية نقية. "ثم عدنا بعد ذلك إلى حياة العزوبية التى أجدنى دائمًا جديرًا بها، لأن قصة زواجى بإنجليزية ما هى إلا شائعة كاذبة فظيعة ! " .

أريد أن أعرف ما آل إليه كالميت **Calmette**، ليس لديَّ أخبار عنه منذ إعلان الحرب، ولا أعرف على أى عنوان أراسله، بما أن مدينة ليل **Lille** مازالت مُحتلة من الألمان.

مع خالص محبتي".

سجل يرسين فى دفتره قائمة الشتلات التى ما زالت تتحدى مهاراته، وكأنها ترفض أن تترك أرض أوروبا لتتخذ جذرًا لها فى آسيا مثل: نبات الكشمش، شجر الجوز، شجر اللوز، ولاسيما كرم العنب، ثم يعيد نسخ هذه القائمة فى رسالة يوجهها إلى كوريفون **Correvon**، رسالة ربما لن تصل أبدًا إلى سويسرا، طوى دفتره عن الزراعة، وفتح دفتر علم الأوبئة الحيوانية **Epizootle**، ثم دفتر تربية الطيور والدواجن، ثم طواهما، قطب حاجبيه، واتته فكرة جديدة. وهكذا كل خمس دقائق. شرع فى كتابة رسالة للحاكم العام: "أفكر فى أننا نستطيع أن نجهز هنا مجموعة من نباتات الزينة الرئيسية لفصيلة السرخس الغريبة، مما قد يساهم فى أن تصبح محطة إقامتنا الجميلة على الجبل حديقةَ قومية حقيقية".

الظرف المختوم يعلو كومة الخطابات التى تنتظر إقلاع الباخرة المقبلة. ولكن ها هو يرسين، تواتيه فكرة أفضل، بقدر كل ما كان البلد المركزى فرنسا ترسله – قبل الحرب– إلى مستعمراتها ، بقدر ما دامت الصراعات فى أوروبا وتفاقمت، وبنفس القدر يمكننا قياس مدى القحط. من الجميل أن يكون لدينا فراولة وتوت، ولكن كل شخص من اثنين يعاني، هنا، من مرض الملاريا. يبتلع يرسين منذ ثلاثين عامًا دواء الكينين. عند كل نسف لسفينة، تغوص الشحنات فى عمق البحر. وجه الهند الصينية مُبلل بالعرق البارد ويداها ترتعشان. ثم ها هو هجوم **Les Dardanelles** الداردنيل فى البحر الأسود، ووباء الملاريا يتفشى بين جموع الجنود الذين يتقيأون ما فى بطونهم فى المياه الزرقاء لبحيرة مرمرة

de la Marmara. وتحتفظ فرنسا بمنتجات المعامل لسلاح الحملات العسكرية لجيش الشرق.

يعاود يرسين قراءة مؤلفات لا كوندامين La Condamine في مكتبته، والذى يعرف جيدًا أنه هو الوريث المدهش له. إنه شارل مارى دو لا كوندامين Charles Marie de La Condamine، الذى يشبهه ، فهو عالم ومكتشف، وهو أول من وصف عند عودته من رحلته إلى الأمازون، شجرة المطاط وشجرة الكينا. لقد طبعت أكاديمية العلوم نصّ بحوثه المقتضبة: عن شجرة الكينا، ورسالته عن المادة الصمغية المطاطة المُكتشفة حديثًا. يكتب يرسين إلى أصدقائه فى جاوا Java، ويطلب منهم أن يرسلوا له بعض شتلات شجر الكينا، ويواصل محاولاته الأولية لتوطينها فى البيئة الجديدة.

لا تنمو الأشجار عنوة، تلزمنا شهور، حتى نلحظ أن أراضى هون با لا تلائم هذه الأشجار. حصل يرسين على تحليل كيميائى لأراضى جاوا حيث يزدهر المحصول، وراح يدرس المنحنيات السنوية لدرجات الحرارة وعلم قياس المطر، ويبحث عن إقليم فى آنام يتمتع بإحصائيات قابلة للمقارنة بأراضى جاوا. فى روسيا ، قامت ثورة أكتوبر.

لم نر شيئًا قط بعد، ارتسمت معالم القرن. هو فى السابعة عشرة من عمره وهو جدّ متشرد، يرتدى قبعة بواقية أمامية تصون الجبهة، وعقب السيجارة على طرف الشفتين، والمسدس مندس فى الحزام. بعد وفاة الملايين فى الحرب العالمية، سوف تهل حرب موسكو الأهلية فى فلاديفوستوك Vladivostok، سوف تشيع المجاعة ووباء التيفود، لكن يرسين وعصبته الصغيرة فى نها ترانج، مستمرون فى إنبات بذورهم فى الأحواض، يغيرون تركيبة التربة وما يُضاف إليها من سماد. نمسح أراضى البلد لأخذ عينات منها إلى المعمل. سوف

تكون رابية دران Dran على ارتفاع ألف متر فى اتجاه دالات Dalat، نعرف تمامًا أن كل هذا سيستغرق أعوامًا، زمنًا أطول من الوصول إلى الجنة البروليتارية الخاصة بالطبقة الكادحة. سوف نجد، أيضًا، موقعًا أكثر مواءمة فى دجيرين Djirin، على بعد ثمانين كيلو مترًا من نها ترانج. ذات مساء، علمنا من المذياع أن الحادى عشر من نوفمبر هو بداية الهُدنة. فى هذا اليوم، أيضًا، كانت مراسم دفن أبو لليني Apollinaire الميت بثقب قذيفة فى رأسه. بعد ذلك بأربعة أيام، فى بيته الريفى فى هون با Hon Ba، أمسك يرسين بريشته وورقة تحمل اسم المعهد أعلاها، وكتب: "عزيزى كالميت، أنا سعيد ومُتأثر لأننى استطعت بعد أربعة أعوام من الفراق، أن أستعيد الصلة بيننا".

استقرت الاتصالات وعاد الناجون من الخطر إلى الحياة المدنية. قام يرسين بتعيين باحث فى البيولوجيا النباتية، هو أندريه لامبير André Lambert الذى تسلم مهامه فى جمعية الكينا. إنها بداية صداقة دامت خمسة عشر عامًا بين الرجلين، اللذين يشتركان فى محبة العمل بإتقان وسياحة الجبل. عاودا البحث، وشرعا فى نشر مقالاتهما فى مجلة علم النباتات التطبيقية.

أسند يرسين إدارة معاهد باستور فى الهند الصينية إلى كاتب سيرته الذاتية فى المستقبل نويل برنار Noël Bernard العائد من الجبهة، والذى قدم له التحية وأبدى له الاحترام علي هذا النحو: "لا يوجد بالتأكيد كثير من الأمثلة لمثل هذا التفاني، الذى يبديه من يتراجع ليفسح للآخرين مجالاً لحرية المبادرة التى يتعلق بها بشدة هو نفسه". أراد يرسين أن يكرس نفسه لدراسة الكينا، غالبًا، سيصبح وحيدًا شيئًا فشيئًا فى عزلته على ذرى المرتفعات، تدوم إقامته فيها أطول فأطول، وسط أقفاصه التى استودعها العصافير والقطط السيامي. منذ نهاية الحرب، عاود من جديد مراسلة رو Roux وكالميت Calmette. هذه الرسائل هي، فى آن، ودية وعلمية وسجل ليومياته. "المُساعد الذى توفى

ليس أول الوافدين: إنه أحد أبناء الملك السابق لآنام". هذا المساعد قد تطعَّم بالطاعون مصادفةً. طلب يرسين أن يتم تسجيل كل شيء فى الأرشيف، حتى لا ننسى المحاربين الذين سقطوا فى ميدان العلم. "اسمه فين تام **Vinh Tham**، كان صبيًا منفتحًا جدًا وذكيًا".

فى فرنسا، بعد الشيخين رو وكالميت، بزغ جيلٌ جديد من تلاميذ باستور لم يكن يرسين يعرفهم. فقد حصل بورديه **Bordet** على جائزة نوبل تقديرًا لأبحاثه فى مجال الأجسام المضادة، ولوى فرديناند ديتوش **Louis-Ferdinand Destouches**، وهو أشبه بالكاتب سيلين **Céline** فى المستقبل، كما سيحصل أندريه لووف **André Lwoff** على جائزة نوبل فى المستقبل أيضًا ، وقد تم إرسال كل هؤلاء إلى روسكوف **Roscoff** لدراسة الطحالب. لم يعد لدى يرسين الشجاعة للسفر، ما زالت السفن العابرة للمحيطات، كما كانت دائمًا، بطيئة. أما القطار العابر لسيبريا **Transsibérien** فقد وقع فى أيدى الألوية الحمراء. بعد مرور ثلاثين عامًا على إبحاره الأول إلى شاطئ الأوكسوس **Oxus**، خَمَدَ حماسُه: "هذه الرحلات البحرية الطويلة رتيبة ومُملة على نحو مريع، لو كان، فقط، هناك خدمات منضبطة للطيران!". كم تطلَّع يرسين إلى تأسيس خطوط للطيران الفرنسى **Air France** قبل إنشائها بعشر سنوات.

أخيرًا، وبناءً على طلب المعهد، حسم أمره، سوف يجتاز رحلة بحرية: "أفضل باخرة تناسبني، هى الباخرة التى تحمل اسم بورسوس **Porthos**، والتى سوف تغادر من سايجون يوم ٣٠ نوفمبر، وهو ما يسمح لى بأن أصل إلى باريس فى موعد أعياد رأس السنة بالضبط، وهو أمرٌ مثيرٌ للضجر أيضًا، لأن كل شيء سيكون مغلقًا وسوف يضيع الوقت دون جدوى! سوف أقيم فى فندق لوتسيا، مثل المرات السابقة، ولكن إن شاء رو، فسوف أشاركه الطهى بهذه المناسبة".

قبل رحيله، استقبل يرسين في نها ترانج الطبيب البيطري هنري جاكوتوت **Henri Jacotot**، وهو طالب قديم كان يحضر دروس رو أيضًا، وقد وصل لتوه ليتولى تدريب المُعدين والمُشرفين الصحيين. ما زالت أنشطة الزراعة وتربية المواشي ممتدة. ومنذ أن أوقفنا تمامًا نسف السفن أصبحنا نستورد الخرفان من سلالة كيلانتان **Kelantan** أو بيزا **bizet**، والبقر من إقليم بريتاني **Bretagne** في فرنسا ، وثورًا من إقليم سافوى **savoy** في فرنسا، حتى نزيد من إنتاج اللبن المبستر. ها هو يرسين راعٍ عجوز ذو لحية بيضاء وعصا طويلة على رأس أكثر من ثلاثة آلاف رأس من الغنم. منذ أن صارت الجمعية التي تم الاستثمار فيها ، من قبل "السادة يرسين، رو، وكالميت" ، تحقق أرباحًا، بفضل كاوتش المطاط، وكذلك قريبًا بفضل مادة الكيني (وهي مادة قلوية تُستخرج من لحاء شجر الكينا وتُستخدم كدواء للحمى)، تم التخلي عن الجمعية لصالح معهد باستور وتمويل أبحاثه في مقابل فرنك واحد رمزي. دأبنا على استصلاح الأراضي حتى نَفِي بغذاء كل هذه المواشي. نزرع المراعي بنسيلة الزوان المُعَمَّر و أعشاب النَفْل والنجيل.

ها هو يرسين مُرشح للحصول على نوط المعرض الزراعي، بينما يحصل تلميذ ثانٍ من تلاميذ باستور على جائزة نوبل تقديرًا لأبحاثه عن عدوى التيفوس الحمى الصفراء.

فى فوجيرار Vaugirard

إنه شتاء حقيقي، وليس هذا الشتاء البديل الذى اصطنعه لنفسه فى هون با Hon Ba، والذى انتهى به إلى الاعتقاد بأنه شبيه بشتاء لوزان Lausanne فى سويسرا. نشعر بالبرد الشديد، نرش الملح على الأرصفة. يرسين رجل قد تجاوز الستين من عمره، يرتدى معطفًا أسود، قبعةً ووشاحًا يغطى الأنف. لم يزر أوروبا منذ سبع سنوات، ولم يرِد قط هذه الملابس المضحكة ولا هذه القفازات.

يعاود سيره البطيء فى باريس، تصحبه سحابة صغيرة من بخار زفيره. لقد نسى هذا الأمر الذى يُذكره بطفولته على شاطئ البحيرة فى سويسرا. يبتسم، يتردد فى عبور الشوارع الفسيحة أمام هدير وسرعة سيارات الأجرة، والتى تتبعها بدورها أدخنة بيضاء من الغاز المتسرب منها فى الهواء المُثلج. يفكر فى كل هذه الأموال التى كان يمكن أن ينهبها صديقه سيربوليه Serpollet، ينظر إلى العجلات التى قد صنع بعضها من مطاط سوا جياو Suôi Giao. تضيء الزينة أشجارًا فقدت أوراقها. سمع يرسين فى الإذاعة خبرًا عن هذه الحداثة وهذا السُّعار الذى أعقب، كما نقول، المجزرة التى قضت على الجميع فى منتصف هذه السنوات العشرينية التى نسمها بالسنوات المجنونة. البرج الهائل الحديدى المضيء والذى يتذكر أنه تابع إنشاءه، ثم افتتاحه بعد أربعِ سنوات من حضوره إلى باريس، خلال فصل الصيف الذى أذعن فيه لرو، وحَلّ محله فى إلقاء دروس علم الجراثيم. إنه صيف اليوبيل الماسي. ها هنا، أكثر مما

كان عليه الحال فى نهاترانج، يشعر بثقل التاريخ، أو بالأحرى، يشعر فقط بثقل حياته على كتفيه. حينها كان عمره من عمر ويجند **Wigand** وباستور، عندما تعرَّف عليهما فى ماربورج وباريس. سار مُحاذيًا لميدان الكونكورد**Concorde** الذى صار ميدان الثورة والخلافات، ثم عرّج على رصيف دبغ الجلود ليرى الحيوانات. الجو قارس البرودة، حفظنا أقفاص الحيوانات بالداخل.

وعلى الرغم من أنه لم يضع قط أى حَدٍّ بينه وبين المعهد، منذ أن تضاعفت حصيلة أرباح التطعيمات البيطرية والمطاط وشجرة الكينين، إلا ان يرسين صار رجلاً ثريًا. لم يستغل هذا الوضع كثيرًا. عند فيلمورين **Vilmorin**، راح يختار الحبوب والبصيليات، اللوف والأزهار من جنس البغونيات، نباتات القطيفيات وأشهرها عرف الديك زهر البتونيا، بخور مريم، أزهار زينية ، زهر الداليا، زهر إسبانيا من فصيلة القرنيات الفراشية، والخشخاش الأحمر. وجه حصة منها إلى مارسيليا **Marseille** على رصيف الرسائل والطرود، وحصة أخرى إلى سويسرا، وباقة منها إلى أخته. عاد إلى الفندق. الرواد الجدد لفندق لوتسيا غير معروفين بالنسبة له، من بينهم كُتَّاب وفق ذوق العصر. منهم أندريه جيد **André Gide** عندما لايكون فى الكونغو، و بلاز سيندراس **Blaise Cendras** عندما لا يكون فى البرازيل. اثنان من صبية المصعد من مشوهى الحرب، أكتعان من جراء القتال، يحملان على صدريهما الأنواط والنياشين. لمدة سبع سنوات لم ير يرسين باريس، لمدة سبع سنوات ، لم ير وجوه هؤلاء الأعزاء ، كالميت ورو فى فرنسا، إيميلى فى سويسرا، إنها لمدة طويلة، يشعر قليلاً بالضياع.

فى الصباح، يعبر الشارع أمام الفندق، يهبط درج محطة سيفر بابيلون **Sévres-Babylone**، اشترى تذكرة درجة أولى، ثم سلك السبيل إلى خط رقم

١٢ والذى نطلق عليه خط شمال-جنوب، وهو خط يصل مباشرة إلى المعهد. "فى المترو الذى أركبه فى الأغلب الأعم، كان الزحام شديدًا عصيًا على الوصف. فى الشوارع الجماهير غفيرة أشبه بمجرى تيارٍ غير منقطع. فى الحى الذى يوجد به معهد باستور حركة الناس قليلة، حتى إننا نكاد نشعر أننا فى الريف". آثر أن يعاود نزهاته فى هذه الشوارع، حيث يسود الهدوء: شارع دوتو **Dutot**، شارع فولونتير**Volontaires**، والشوارع الجانبية والموازية، مثل شارع ماتورين-رينييه **Mathurin-Regnier**، شارع بلوميه **Plumet** ، أو بالأحرى شارع بلوميه **Blomet**. لقد ضُمَّت بلدية فوجيرار **Vaugirard** إلى باريس فى عهد الإمبراطورية الثانية، فى عام ستين من القرن الماضي، السنة التى اكتشف فيها موهو **Mouhot** معابد أنجكور **Angkor**، وهى ذاتها السنة التى تسلق فيها باستور جبل الجليد. بعد خمسة وعشرين عامًا. سمح لنا الاكتتاب الدولي، وقتها، بشراء بضعة هكتارات من قطعة أرض بساتين لنُشيِّد المعهد وسط حقول الكرنب.

فى منتصف العشرينات، وعلى بعد خطوتين من أَسِرَّة القش البيضاء المعقمة، كان لدينا حقن غير ملوثة وميكروسكوبات، معامل تتسم بالنظام والنظافة، إبريز ورخام أسود لقبو الكنيسة البيزنطي. كما تحولت المساكن المتداعية والأبنية الصغيرة المحيطة بنا إلى محافل للفنانين حول حانة ملهى للرقص الزنجي. هؤلاء الذين أقاموا فى المصانع المُهملة الخاوية أثناء الحرب، والتى أعيد بناؤها على مسافة أبعد فى الضواحي، وقام رجال الصناعة - ممن فقدوا ذراعًا بعد المجزرة الكبرى للجنود الفرنسيين فى الحرب العالمية الأولى- باستخدامها لإيواء أكوامٍ من العمال من شمال إفريقيا فيها. هؤلاء هم فنانون لا يستطيعون الدخول إلى فَندق لوتسيا، ولا شك فى أنهم لن يدخلوه أبدًا. هؤلاء هم المجهولون الذين عاشوا حياة الحرمان، أما كل هؤلاء التافهين فى مجال

الفن التشكيلي والأدب، فهم العصبة الصغيرة لشارع بلوميه Blomet: ماسون Masson، ليريسLeiris، دينوس Desnos، ميرو Miro، ولا شك أن الرجل العجوز ذا الكساء الأسود سيقابلهم عند محطة فولونتير Volontaires، هؤلاء الشباب الذين يرتدون السترات ويهبطون من عربات الدرجة الثانية. "تذكرني محطة فولونتير والمداخل الشهيرة للمترو، بالعظيم جودي Gaudi الذي طالما أثر فيّ"، هذا ما كتبه الرسام كاتالان catalan يوم أن أصبح هو أيضًا فنانًا وفق ذوق العصر.

ما زال طيف المستقبل، هذا الرجل صاحب الدفتر المجلد بفرو الطوبين، يتتبع يرسين مثل ظله، ويرحل بحرًا هو أيضًا من نها ترانج وقدماه مثلجتان، مُصاحبًا ليرسين في نزهاته في شارع بلوميه Plumet، ولأن البرد قارس فعلاً، يدفع الرجلان باب حانة سيليكت Select، وهي حانة صغيرة خارج الزمان، يبدو أن أثاثها لم يتغيرمنذ العشرينيات، طلبا قهوة.

نسخ طيف المستقبل في دفتره بعض عبارات روبير دينو Robert Desnos التي عرضها على يرسين. " المُتَنَزِه الذي، في عصر يومٍ ما، راح يتسكع في شارع بلوميه، يمكن له أن يرى، بالقرب من المرقص الزنجيِ، مبنى كبيرًا منهارا نبت عنده العشب. تطغى خمائل المنزل المجاور على السياج، كما تعلو شجرة صلبة خلف بوابة العربات. لقد سكنتُ في العقار رقم ٤٥ من شارع بلوميه، لسنوات طويلة، حيث أكثر من واحد من هؤلاء كانوا أصدقائي، ومنهم من ظلوا أصدقائي ". هؤلاء كونوا عصبة صغيرة أخرى: آرتو Artaud، باتاي Bataille أو بريتون Breton، وحسبما يتذكر، كان الرسام الكاتالوني (إقليم في إسبانيا) مرةً موافقًا لذوق العصر، لأننا نحب أن نكون مرةً مسايرين لذوق العصر، ولكن علينا أن نتذكر،أيضًا، أننا لم نكن كذلك دائمًا. "كنا نشرب كثيرًا، إنه عصر شرب العَرق الممتاز المخلوط بالماء والشراب المُسكر المُنكَّه بقشر البرتقال المجفف.

نصل إلى الحانة عن طريق المترو، الخط الشهير شمال- جنوب الذى يمتد كخط اعتراضى بين السيرياليين Surréalistes فى محطة مونمارتر Montmartre وبين الرجعيين فى محطة مون بارناس Montparnasse."

يرفع يرسين منكبيه، يفك معطفه، يعدل قبعته. اليوم، تحلُّ حديقة الأطفال واتحاد لاعبى الكُرَات فى الحى الخامس عشر بباريس محل الورش القديمة. وضعنا هنا تمثالاً منحوتًا للعصفور القمرى L`Oiseau Lunaire الذى صنعه الفنان الكاتالوني تكريمًا لدينو Desnos الذى مات ضحية لمرض التيفوس فى زريسيانستاد Theresienstadtبعد نفيه إلى بوشنفالد Buchenwald . يتابع طيفُ المستقبل ابتعاد الهامة المُدَثرة بمعطفها الأسود. يصعد يرسين إلى شارع دوتو Dutot، يلقى التحية، عند بوابة المعهد، على جوزيف ميستر Joseph Meister . بعد اجتماعات العمل مع رو ومع أوجين Eugéne وولمان Wollman- الذى يقوم ببحوث حول البكتريا عضوية الشكل التى اكتشفها يرسين، بما أن كل هذه القاذورات من الجراثيم لا تكف عن التهام بعضها البعض- جلس فى مكتب كالميت Calmette جيد التدفئة "حيث وَجَدْتُ ركنًا على المنضدة أستطيع أن أكتب عليه خطابي".

قبل رحيله، تناول الفطور مع صديقه دومار Doumar الذى لا يشبع أبدًا من السياسة. أربعة من أبنائه سقطوا فى ميادين الشرف. قام بدمج اليساريين فى اتحاد. وها هو من جديد وزيرًا للمالية فى حكومة آرستيد بريان Aristid Briand. لو كان يعرف ما ينتظره، لاختار، ربما هو أيضًا، العكوف على زراعة حديقته، وشراء الحبوب من عند فيلمورين Vilmorin أو الاعتزال فى دالات Dalat عند قصر لانج بيان Lang Bian الذى ابتناه.

بالنسبة لعمله على توطين شجر الكينا، حصل يرسين على وسام جمعية الجغرافيا التجارية، وهو تكريم متواضع، بينما انتخُب كالميت Calmette فى أكاديمية العلوم. لقد نسينا يرسين، فهو رجل من زمان وقرنٍ آخر. وها هى ثلاثون عامًا تمر على هزيمته للطاعون.

آلات وأدوات

لايُقاس عصر العلم والفكر بالساعات والتواريخ. إنه عصرٌ مُقتطع من التاريخ، يرسين: موسوعى من عصر الأنوار. من قبله، نشر لا كوندامين La Condamine ، وفق توجهاته وميوله، بحوثًا فى الجغرافيا وعلم النباتات، والفيزياء والرياضيات، والطب والكيمياء. مثل باستور كان يرسين عضوًا فى أكاديمية العلوم والأكاديمية الفرنسية، فى آن. لكن صديق فولتير **Voltaire** كان موسوعيًا بمعنى الكلمة، يتعاون مع ديدرو **Diderot** دالامبير **d`Alembert**. أما يرسين فهو يُلِمُّ بكل شيء، متخصص فى علم الزراعة الاستوائية، وعَالِم البكتريا، وعَالِم السلالات، ومُصوِّر. لقد نشر مقالات على أعلى مستوى فى علم الجراثيم وعلم النباتات. لديه فكرة أخرى، إنه حر يتحكم فى وقته كيفما شاء بفضل معجزة السلام التى يعيش فى كنفها، والتى تعيد إليه معاونيه من حين لآخر. يجلس تحت سقف بيته على مقعده المصنوع من أسل الهند، خلف عدسته الراصدة للفلك.

لقد عهد بالبحوث الطبية إلى نويل برنار**Noël Bernard**، وبحوث الطب البيطرى إلى هنرى جاكوتوت **Henri Jacotot** ، وبحوث الكينا إلى أندريه لامبير **André Lambert**. وإدارة كل ذلك من الناحية اللوجيستية والحسابات إلى أناتول جالوا **Anatole Gallois**، وإلى صحفي ماجن فى جريدة هايفونج **Journal de Haiphong**. إنها عصبته الصغيرة الجديدة، أما هو فلا يريد أن

يسمع شيئًا عن المواشي، فهو يكرس نفسه كُليةً لعلم الأرصاد. لقد جلب من باريس جهاز إلكترومتر، لقياس مقدار القوة الكهربائية، ذا خطين من طراز وولف **Wulf**. كما طلب تصنيع طائرات ورقية كبيرة مترابطة بواسطة حبال معدنية نحاسية متصلة بملفاف ورافعة رحوية. ثم قام بإطلاقها وسط السحب على ارتفاع ألف متر، وأطفال القرية يصفقون. يريد من ذلك، قياس الكهرباء المناخية والتنبؤ بالعواصف وأعاصير التيفون **Typhons** الاستوائية المُدمرة فى منطقة بحر الصين واليابان. يشعر كالميت ورو بالقلق إزاء صمته. "أقوم بإطلاق الطائرات الورقية لعمل إحصائيات حول التغيرات والظواهر المناخية".

كما كان الطاعون آفة العصور الوسطى، بدت النيازك مثل آفات مُهلكة، ينجم عنها الجفاف أو التجمد، وابل الثلوج والعواصف التى تسبب المجاعة والحرب. هنا يختفى الصيادون فى الأعاصير المُباغتة. ومن ثم فإن محاولة الوصول إلى تنبؤات موثوق بها عن أحوال المناخ ، يعنى العمل من أجل السلام والرخاء.

قام يرسين بإقناع فيشو **Fichot** ، المهندس الهيدروليكى فى البحرية والمُولع بعلم الفلك ، بالإقامة بجواره فى نها ترانج. ثمة سلم يصعد حتى السطح-الشرفة للمنزل الكبير المربع. ويختبئ تحت قبة السطح منظار، كان يرسين قد طلبه من إيينا **Iéna** ، من عند صانعه كارل زيس ، **Carl Zeiss**، هذا علاوة على أسطرلاب موشوري. كل ليلة يراقبان السماء. يدرس يرسين اللوغاريتمات، يتقدم فى الرياضيات ويستجلب المؤلفات المرجعية فى هذا الصدد. يريد أن يظل هذا الجزء من السماء أعلى مملكته، بمثابة ملحق بهذه المملكة، هو والنجوم والمُذنبات. يحلم بكيبلر **Kepler** وتيشو براهيه **Tycho Brahé**، بل يريد أن يكون الاثنين معًا. عالِم الرصد وعالِم الحساب. على الأرض كما فى السماء. أحيانًا يرى ما ظن العالِم أنه رآه. حتى إننا، يومًا ما، سوف نخلط ما بينه وبين الفلكى فيرمير **Vermeer** ، وسيذكر اسمه على اللوحة الجدارية

لمتحف ما. من الميكروسكوب حتى التلسكوب، يهتدى يرسين إلى ما بينهما من تقارب هندسى مدهش. من اللامتناهى الصغر إلى اللامتناهى الكبر، ونحن البشر نطفو بين الاثنين، مثل قناديل البحر (هذه الكائنات البحرية الهلامية التى تضيء فى الليل). ومع ذلك ما زال يرسين يحتفظ بقدميه على الأرض، يسوّد دفاتره ويتقدم فى النظرية الرياضية ، ينشر ملاحظاته وتقديراته حول الفلك فى الحوليات الفلكية **Bulletin Astronomique** التى أسسها هنرى بوانكاريه **Henri Poincaré** رائد النسبية . نور يرسين لم ينطفئ بعد.

إذا ما فاتته جائزة نوبل فى الطب، فلِمَ لا يحصل على نوبل فى الفيزياء؟.

ثم اتسع الفتق على الراتق، وبدت المهام ثقيلة جدًا، انتهى أمرُ علم الفلك بالنسبة له. لديه فكرة أخرى. قام بتفكيك كل المعدات، ثم قام برصِّها فى الفناء، من أجل الأطفال الذين ملّوا منذ أمد طويل من النقش على الخشب، إنها لعبة سخيفة جدًا، فى الحقيقة. مع تقدمه فى العمر صار يعشق الأطفال. يصطحب أطفال القرية فى زورقه من طراز سربوليه **Serpollet** الذى يسير بالبخار، فى رحلات للصيد على جزر الخليج الصغير. أحضر من باريس كشافًا لعرض الأفلام السينمائية على الشاشة، يعرض للأطفال الأفلام الوثائقية وأفلام شارلو **Charlot**، ويضحك الصبية، ها هو فيلم آخر، ومن بعد سيلعبون بالطائرات الورقية. لن ينتهى الأمر، بالنسبة الأطفال. ولكن الآن كفى، لديه فكرة أخرى، أسرعوا. هيا اخرجوا جميعًا.

أرسى شبكة لإرسال الرسائل والبرقيات لاسلكيًا من نها ترانج **Nha Trang** إلى سواى جيواى جياو **Suoi** وحتى هون با **Hon Ba**. موظفٌ مُقيم من أجل التحويلات فى كلٍ من المناطق الثلاث، يصل المُرسلين بالمستقبلين، ويُدرب يرسين ومعاونيه على استخدام أجهزة الإرسال والاستقبال. من الآن فصاعدًا

نستطيع أن نتبادل الأخبار والتوقعات الخاصة بالأحوال الجوية، نتبادل السماعات بالتناوب "للأسف، نحن بعيدون جدًا حتى نستطيع الاستماع للحفلات الموسيقية التى تُذاع فى شتى إذاعات أوروبا وأمريكا". يغوص يرسين فى الكتب الموجزة عن التكنيك، ويكتب إلى كالميت يقول: "يتقدم معملى الشخصى للكهرباء ويرتقى شيئًا فشيئًا، وأنا مستمتعٌ جدًا بذلك. لقد نجحت فى تسجيل إذاعة بوردو **Bordeaux** على شريط تسجيل، ما زال الأمر لا يسير على ما يرام، بسبب المحيط الهوائى الكثيف فى هذا الفصل من العام، ولكن إن لم تكن هناك صعاب تُقتحَم، فلن تكون ثمة متعة".

إلى الحد الذى نحن فيه، يمكن لأبله أن يرفع علمًا، وأن ينصب نفسه قائدًا، يشكل ميليشيا، ويأمر بتأليف نشيد وطني، ويرفع إلى القمة علمًا بألوان أسطولِه، ويسك عملة. هذا هو حال ويليام والكر **Wiliam Walker** وجمهوريته سريعة الزوال فى كاليفونيا وسونورا **Basse-Californie-et-Sonora**، ، وحال مايرينا **Mayren** ومملكة السيدانيين **des Sedangs**، وحال جيمس بروك **James Brook** وسلطنته ساراواك **Sarawak**، حسبهم جميعًا منبرٌ وميكروفون، زىٌ رسمى ونظارة سوداء، حتى يصبح أيٌ منهم قائدا، رئيسًا، باو داى **Bao Dai**، ثم زوجة هوليودية ولم لا؟ فقد تصبح مملكته أكبر بكثير من مملكة موناكو**Monaco**.

من الجميل، فعلاً، أن نتبادل الحديث فى الإذاعة، ولكن المسافة من نها ترانج إلى سوا جياو، ثم من سوا جياو إلى هون با، قد يستغرق اجتيازها، أيضًا، ساعات على متن زورق أو على سرج حصان لنقل البذور و إنزال المحاصيل. أما الآن، فيُقدر اتساع مجال الإذاعة و"نطاق الأثير" بعشرين ألف هكتار بما يشمل الجبال، هذا دون حساب السماء أعلاه. عندما منحته أكاديمية العلوم جائزة مادية تقديرًا لأحد اكتشافاته النفيسة، استخدم النقود لتعبيد طريق

متعرج طوله ثلاثون كيلومترًا. وها هو ذا مهندس صاحب عبقرية مدنية "بدلاً من تنفيذ هذا العمل على يد مقاولين، نهضتُ أنا نفسى به وبمساعدة الآناميين. سوف أزوِّد الطريق بمَطلع يبلغ طوله حوالى عشرة بالمائة من طول الطريق. أحيانًا، ينبغى كسر الصخور بالمتفجرات. "سوف تنفعنا الأنقاض لبناء سدود نشيدها بالحجارة الجافة". هكذا يختتم رسالته إلى رو: "هكذا سوف يكلف العمل ثمنا أقل، وسوف ينتفع به عمالُنا، بدلاً من أن نعَوّل على الوسطاء الذين لا يدفعون حتى للحمالين. بالنسبة لتخطيط الطريق، سوف أستخدم آلة عملية جدًا، إنجليزية الصنع اسمُها **Improver Road Tracer**".

سوف يسمح لنا الطريق بإقامة مجموعة من مولدات الكهرباء القوية حتى البيت الريفي، وتوفير الإضاءة لتسلية أنثى الببغاء، وتفعيل أداة رافعة للماء لرى أحواض أشجار الورد. استجلب يرسين من فرنسا سيارة مُزنجرة (عربة صغيرة مُصفحة ومُجهزة بزنجير تُستعمل لنقل الذخيرة) من طراز سيتروين **Citroën**، و"هى من نوعية السيارات نفسها التى تجتاز الصحراء". يحقق ملك المطاط وشجر الكينا أرباحًا، لقد نَحَتَ يرسين الزاهد وحده، إمبراطورية داخل الإمبراطورية.

وعلى كل حال سيحصل على جائزة نوبل، وهو ما سيُمَكنه من إنشاء مطار صغير.

ملك الكينا

أشجار الكينا عمرُها خمسة عشر عامًا ومحصولها كبير. نحن فى ثلاثينيات القرن، ويرسين فى السابعة والثلاثين من عمره. سوف ننتج أطنانًا عدة من لحاء شجر الكينا فى العام الواحد. وكما كان الحال بالنسبة للمطاط، كنا خاضعين لاحتمالاتِ الأحوال المناخية والحيوانية "فى هذه الآونة، كان لدينا فى سوا جياو Suôi Giao قطيعٌ كبير من الأفيال البريّة التى سَبَّبَت لنا خسائر جَمَّة، أتلفت الطريق ودمرت الخط التلغرافى".

فى هذا العام الثلاثيني، ثمة ثورى غير معروف غيَّر اسمه عدة مرات، وحاليًا يطلق على نفسه اسم: هو شى مينه Hô Chi Minh. منذ عشر سنوات مضت، حضر مؤتمر تأسيس الحزب الشيوعى الفرنسى فى مدينة تور Tours، كما أسس أيضًا، فى سِرِّية تامة، الحزب الشيوعى الهندوصيني. أما فى الفترة التى كان اسمُه فيها نجوين آى كوك Nguyën Aï Quóc فكان يدرس فى فرنسا. عاش قليلاً فى لندن وهافر Havre، وعمل طباخًا على السفن، ربما التقاه يرسين فى إحدى رحلاته البحرية. يتمتع هذا الشاب برشاقة الخيرزان وبابتسامة مشرقة، حينها لم يكن لديه، بعد، هذه اللحية الصغيرة المحفوفة على النمط التروتسكي. لا يصدق يرسين، ولو لثانية واحدة، هذه الأسطوانة الثورية المشروخة: ألا وهى قتل الرجال حتى تعيش الأحلام. لم يكن يرسين مثل الشاعر الشاب رامبو Rimbaud الذى ألف منذ خمسين عامًا قبل مؤتمر تور Congrés

Projet de constitution مشروع الدستور الشيوعى :de Tours كتابه communiste. وهو ما جعله بعد مماته مستحقًا لبطاقة العضوية رقم صفر فى الحزب الشيوعي. فى هذه السنة الثلاثينية، كان دوميه Doumer، الاشتراكى الخائن،رئيسًا لمجلس الشيوخ. أما بويز Boëz تلميذ باستور فقد أُصيب بحمى التيفود. وها هو بويز، الذى يرقد جثمانه إلى الأبد فى دالات، ينضم إلى قائمة كل المحاربين الذين سقطوا على جبهة علم الجراثيم، ممن سُجلت أسماؤهم فى أرشيف معاهد باستور فى الهند الصينية.

فى العام التالي، أُقِيم فى باريس المعرض الاستعمارى L'Exposition Coloniale، تحت رعاية لوايوتيه Lyautey. أقمنا فى غابة فينسان Vincennes نسخة مطابقة لأنجكور فات Angkor Vat. لن يذهب يرسين ولامبير Lambert إلى المعرض، ولكنهما سينشران، بهذه المناسبة، كُتيبًا عن زراعة أشجار الكينا، أسلوبه أشبه بالشعر المفيد: "فاعلية الحمض الفسفورى acide phosphorique الذى لا يقبل الذوبان بسهولة، كما أن فاعلية فوسفات التونكين phosphates du Tonkin، غير مؤكدة. والبوتاس Potasse، فى صورة ملح الألزاس Alsace ضعيف التأثير. بل حتى الجير الحى يبدو وكأنه لم يتفاعل على نحو ملائم. وعلى الرغم من أن التربة تفتقر لهذا العنصر، وأن أثر الكلس الأزوتى cyanamide، ونترات الجير nitrate de chaux ضارٌ تمامًا، فقد تَلِفَت شتلات كثيرة من هذا النبات، ونمت شتلات أخرى على نحو متأخر عن غيرها". كل هذا يتسم بحيويةٍ لا تقل عن حيوية بيت شعر لسندراس Cendras، بيت يمكنه أن يكون إيجازًا لسيرة حياة يرسين: "ناقوس تنبيه يرن تام– تام Gong tam-tam، لعبة قمار حيوان الأدغال، أشعة مشرط جراحى نافذ".

ثم تُوفى لامبير **Lambert** وهو فى السادسة والأربعين من عمره، بدأت المجزرة حول يرسين، حرر بيانًا عن الشخصيات التى وافتها المنية خلال هذه الفترة، ومنهم صديقه، لقد حرر بيانًا عن وفاته كى يمكن ضمه إلى الأرشيف. الصداقة عاطفة أشبه بالمفارقة، فهى عقلانية وليست انفعالاً. يتذكر يرسين وهو يعانى فراق الصديق، أن "مزايا زميله فى العمل وصديقه قد طغت عليه". صورة الصديق هى دائمًا صورة شخصية، إذ نسبغ عليه فضائل نحب أن نراها فى مرآتنا العاكسة لنا "رجل ذو شخصية، رجل الواجب، لا يمنح صداقته إلا عن بصيرة ورَويَّة، ولكن حين يمنحها، يظل مخلصًا لها على نحو مستقيم، حاسم مُطمئن، ومُستعد لكل التضحيات".

بما أننا، فى نهاية المطاف، سواء كنا نملك أو لا نملك تطعيمًا مضادًا للطاعون، نعرف، تمامًا، أننا لن نعثر أبدًا على تطعيم مضاد لموت الأصدقاء، وأن كل هذا الجهد هو، إلى حدٍ ما، أمرٌ بلا جدوى. بل يمكننا أن نعتقد أننا أحرزنا نجاحًا مثاليًا، وربما لا. منذ طفولته، كان يرسين يشعر بحواجز عازلة بين عقله وبين الشغف، حواجز صلبة لا تصدأ. أبدًا، لن يتجاوز قلب المفاعل نطاق التخوم، ذلك أنه عند أدنى تصدع ستكون الكارثة، الانفجار، الفناء، أو الاكتئاب والحزن، أو حتى ما هو أسوأ: ترهات الأدب والفن التشكيلي، أو لوبى العلماء. تبدو النزوات العلمية ليرسين بمثابة ضغط على صمام المنفس هو من القوة بحيث تنطلق منه حركة الأفكارالدوارة مثل مقذوفات عشوائية مشتتة تهيم فى كل اتجاه وتبتكر فى كل المجالات. بلا شك، لا يكترث يرسين كثيرًا إذا ما اعتلى اسمه أعلى اللوحة أم لا. بلا شك، إنه ينجز كل هذا لأن "الزرافة تظل مرفوعة الرأس فى شمم على كل حال".

نحن الآن، فوق الأرجوحة المشرفة على الحرب العالمية القادمة. يرسل يرسين إلى فرنسا ما لا يعلم أنه سيكون أشبه بما سيطلق عليه الآن، الشعر

المستقبلي poésie futuriste، مثل مقال له بعنوان: بعض الملاحظات حول الكهرباء المناخية فى الهند الصينية Observations d`électrecité atmosphèrique en Indochine المنشور من قبل أكاديمية العلوم. تم انتخاب دوميهDoumer رئيسًا للجمهورية. استمر يرسين فى اتخاذ مسافة مُترفعة فى هون با Hon Ba. العالم ينقلب رأسًا على عقب، العالم يتحرك وراء ظهره، وهو لا يعيره اهتمامًا. كل هذه القذارة فى التاريخ والسياسة، يظن أنه يستطيع أن يتجاهلها للأبد. كان له أن يعتنق النزعة الفردية لدى بودلير Baudelaire، إذا ما كان قد قرأه، والتى بموجبها لا يمكن أن يوجد تقدمٌ حقيقى إلا داخل الفرد ومن خلال الفرد نفسه. يرسين رجل وحيد، يعرف أنه ما من شيء عظيم الشأن أبدًا صُنِعَ فى إطار جماهيري. يكره الجماعة، التى يكون ذكاؤها، متناسبًا عكسيًا مع عدد أعضائها المُشكلين لها. العبقرية دائمًا منفردة، إنها الحكمة التى تناهز نفاذ البصيرة لدى الخلايا المائية الأحادية،وحِدّة ذهن القَدَّاد وهو من القوارض.

ذات مساء علمنا من الإذاعة أن دوميه Doumer قد اغتيل بالرصاص على يد الطبيب الروسى بافل جورجولوف Pavel Gorguloff الذى لم نعرف أبدًا إذا ما كان مجنونًا أم فاشيًا.

كان دوميه صديقًا للكُتَّاب، وقد أهداه الكاتب لوتى Loti كتابه حاج من أنجكور Pélerin d`Angkor. يوم مقتله كان يقف بجواره فارير Farrére الذى كان صديقًا للوتى Loti، وكان مثله بحارًا فى البوسفور. قبل الحرب، حصل فارير الأكاديمى على جائزة جونكور Goncourt عن رواية المُتحضرون Les Civilisés التى تدور أحداثها فى سايجون، يُذكَر ،أيضًا، فى الرواية أن فارير يُصاب فى حياته بضربة كبرى لكنه يبرأ منها. بحسب ما قيل فى الإذاعة، تسلق يرسين ودوميه Doumer معًا، منذ زمن بعيد، التلال حتى وصلا إلى هضبة لانج

بيان **Lang Bian** حيث أسسا دالات **Dalat**. منذ أمد أبحر يتيم مورج **Morges** ويتيم أورياك **Aurillac** معًا فى نهر ميكونج **Mékong** ، من سايجون **Saigon** حتى وصلا إلى بنوم بنه.

منذ خمسين عامًا قبل ذلك، فى أورياك **Aurillac**، قام مربو الخرفان بدعوة باستور إلى زيارة مدينتهم، حتى يقدموا له الشكر لأنه قد خلصهم من الفحم. أهدوه كأسًا كبيرة منحوتة تبرز على سطحها شعارات الميكروسكوب والحُقَن. تحت ظلال شجر الزينة من فصيلة الصنار المُزينة بالأعلام، وأمام صف جوقة البواقين، وبعض الخرفان الحائزة على جائزة جمعية المزارعين، راح عمدة المدينة يلقى كلمة يوجهها إلى صاحب السترة السوداء والعيون الزرقاء: "مدينتنا أورياك صغيرة جدًا، ولن تجد فيها هؤلاء السكان اللامعين الذين يسكنون المدن الكبرى، ولكنك ستجد فيها عقولاً فَطِنة قادرة على الشعور بالخيرات التى قدمتها لهم، والحفاظ على ذكراها". فى مجتمع هذا الحشد الصغير، عاش الشاب اليتيم دوميه **Doumer** مدرسًا للرياضيات. ولقد احتفظ بذكرى هذه الأيام إلى حد أنه، بعد عشرين عامًا من هذا التاريخ، أسس مُجَمعا صحيًا فى هانوى **Hanoi**، ونصب يرسين الباستورى رئيسًا له.

فى عام اثنين وثلاثين، وهو العام نفسه الذى اغتيل فيه دوميه، توفيت إيميلى فى سويسرا وسط أقفاصها التى وضعت فيها الدجاج، وهكذا أيضًا، وضعت نهاية لمراسلاته. فى هذا العام نفسه، أصبح طبيب قديم من تلاميذ باستور كاتبًا روائيًا مارقًا، ونشر روايته رحلة حتى آخر الليل **Voyage au bout de la nuit**.

ألكسندر ولويس Alexandre &Louis

فى الثامنة عشرة من عمره، أبرم ابن صانعة الدانتيلا التى تقطن ممر شوازل Choiseul، عقدًا لثلاث سنوات. لقد أُصيبَ فى المدرعة الثانية عشرة وهو فى موقع الحراسة لمعسكر رامبوييه Rambouillet ، ورُقِّىَ إلى رتبة متواضعة هى رتبة شاويش ثكنات. بالطبع وفرنا له سكنًا وغطاءً، ولكنها لم تكن فكرة طيبة. قريبًا سنكون على مشارف عام ١٤، وها هو يحصل، وهو فى العشرين من عمره، على النوط العسكري. يعانى عجزًا بنسبة خمسة وستين فى المائة، وهو ما جعل صورته تتصدر غلاف مجلة L`Illustration. ولكنه، على الأقل، لن يرى مدينة فردان Verdun ثانيةً. أرسلنا البطل المُحِب للإنجليز إلى إنجلترا، ثم رحل إلى الكاميرون التى طُرِدَ منها الألمان، ثم صار مُغامرًا فى حملة أوبنجى- سانجا Oubangui-Sangha، حتى وصل إلى بيكوبيمبوBikobimbo بعد مسيرة ثلاثة أسابيع على الأقدام، وهنا أُصيب بمرض الملاريا والإسهال.

تعرف لويس فرديناند ديتوش Louis-Ferdinand Destouches فى إفريقيا على ما اكتشفه يرسين فى آسيا وكتب عنه إلى فاني: "هذه الحرية البرية التى نستمتع بها لا يمكن فهمها فى أوروبا حيث كل شىء منضبط للغاية بفعل الحضارة".

هذه الحرية وهذه التلقائية البرية قد فُقِدَتا فى أوروبا.

بعد الحرب، فى بداية العشرينيات، كان مستقبل سيلين **Céline**، طالب الطب، متوقفًا على حصوله على منحة للتدريب فى معهد باستور. تم إرساله لدراسة الطحالب والجراثيم فى روسكوف **Roscoff** بصحبة أندريه لووف **André Lwoff** البالغ من العمر، حينها، ثمانية عشر ربيعًا. كان لويس فرديناند ديتوش يعد أطروحته عن إينياس سيملويس **Ignace Semmelweis** طبيب الصحة العامة المَجَرى، السابق على باستور. إينياس، هذا العبقرى النابغ غير المُقدر كما ينبغي، تم حجزه فى مستشفى الأمراض النفسية، قاوم ومات من جراء ضربات المستخدمين فى المستشفى. هكذا هى العبقرية، إما هذا أو ذاك: إما الفخامة والمُذهبات والرخام ومدفن عظماء الأمة، وإما قميص المجانين. فى أطروحته، أبدى سيلين **Céline**، التلميذ الوفى لباستور، احترامه للسترة السوداء ورابطة العنق: "يتمتع باستور بنورٍ مُشع كان ينبغى له أن يكشف، بعد خمسين عامًا، عن الحقيقة الجرثومية على نحو شامل لا يمكن دحضه".

لقد أصبح طبيب صحة عامة فى جمعية الأمم فى جنيف، تَوَلى العديد من المهام فى الولايات المتحدة وكندا وكوبا. ربما فى وقتٍ ما، كان يحلم بوظيفة علمية، أو بجائزة نوبل، ثم نسى الأمر وراح ، بالأحرى، يُفَجِّر القواعد التقليدية للرواية مثلما فعل رامبو بالشعر. فتح مكتبًا فى ضاحية باريسية، حيث يعكف فى المساء على خط ألاعيبه، لا يرغب فى أن يسمع أيًا من كان يتكلم عن البحث الطبي. وهذا يذكرنا بيرسين زمن التَّوسُل المُلح من قبل كالميت **Calmette** ولوار **Loir**: "ثم، إن رغبتى التى كبحتُها، أصلاً، هى عدم العودة البتة إلى معهد باستور".

فى الرواية، أصبح لويس باستور **Louis Pasteur** هو بيودوريه جوزيف **Bloduret Joseph** الطبيب العائد من ضاحية يتوسطها ركامُ الجثث والمستنقعات والأسلاك الشائكة لحرب عام ١٤. إنه طبيب يعيش حياة الفقراء

التي ظلت على حالها قبل النصر وبعده، قبل أو بعد النُّصب التذكارية والأعلام وأكاذيب السياسة. سوف يموت الطفل بيبار **Bébert** "قرب اليوم السابع عشر، قلت لنفسي، على كل حال سأصنع خيرًا إذا ما رحت أسأل عما يرونه فى معهد بيودوريه جوزيف بشأن حالة تيفود من هذا النوع".

أصبح وضع المعهد كارثيًا، قال طبيب الضاحية كلامًا بذيئًا، فالمكان أشبه بالغائط تفوح منه رائحة كريهة، فى نطاقها يعمل العاملون فى المختبر، وكأنهم يستفيدون من الغاز المجانى حتى يتم الطهي، على مهل وعلى نار خافتة، للطواجن ضمن "الجثث الصغيرة لحيوانات مبقورة البطون، وأطراف أعقاب السجائر، وفوهات الغاز المفتوحة، وأقفاص وأوعية زجاجية بداخلها فئران فى سبيلها للاحتضار". ربما سيصرخ أتباع باستور للاستغاثة من الكارثة والخيانة. ولكن نستطيع، أيضًا، أن نتذكر جملة بعينها قالها يرسين: "بدت الحياة التى نعيشها فى المعمل مُستحيلة منذ أن تذوقنا طعم الحرية والحياة فى الهواء الطلق". يلتقى الطبيب بالعَالِم المُسِن نافذ البصيرة بارابين **Parapine** ، الذى كان أستاذه وقت أن كان يثق فيه. السترة سوداء ذات مناكب مكسوة بقشر الشعر، الشارب أبيض ذو صبغة صفراء من جراء التبغ، يسخر من مساعده الباحث الطموح "أدنى حركة من حركاتى التى أقلده فيها تجعله ينتشي، ألا يسير الأمر على هذه الوتيرة فى كل الأديان؟ ألم يوجد أبدًا، منذ أمدٍ بعيد، سوى هذا القس الذى يفكر فى كل شيء ما عدا الله الرحيم الذى ما زال الشماس يؤمن به ... وعلى نحو صلب كالحديد؟".

يرسين: "البحوث العلمية مثيرة جدًا للاهتمام، لكن السيد باستور كان محقًا تمامًا حين قال: ينبغى أن يكون المرء ثريًا جدًا، اللهم إلا إذا كان عبقريًا، حتى يستطيع العمل فى المختبر تحت طائلة أن يعيش عيشة بائسة، حتى وإن حظى بشهرة علمية ما".

سيلين: "بسبب هذا الشخص الذى يُدعى بيودوريه Bioduret انحاز عدد من الشباب، منذ نصف قرن، للبحث العلمي، قد يخفق الكثيرون، على غرار من يتم استبعادهم من معهد الموسيقى، ولكن قد ينتهى الأمر بنا جميعًا إلى أن يشبه بعضنا بعض، بعد عددٍ ما من السنوات لم ننجح فيها".

ذهب الطبيب الشاب خائب الرجاء ليرى "مقبرة العالم الكبير بيودوريه جوزيف فى كهوف المعهد نفسه، مُوشاة بالمذهبات والرخام: فانتازيا بورجوازية بيزنطية من الذوق الرفيع". إنه قبو الكنيسة المكسو بالفسيفساء، الذى لم يرد جوزيف مايستر قط أن يراه مُدنسًا. وها هم الألمان، منذ ثمانى سنوات، يدخلون إلى المعهد ويدنسونه.

ما الذى كان يدور فى رأسه قبل حفلة الرقص الأخيرة؟ ولماذا جلب من حرب عام ١٤ هذه البندقية الرديئة؟ ولماذا ظل لأكثر من عشرين عامًا مواظبًا على تنظيفها وتشحيمها وتغطيتها بقطعة قماش من الشيفون وإخفائها فى قاع الدرج؟ بالتأكيد، كان يظن أن للسلاح علاقة بمهنته كحارس للمعبد هذا المعقل الأسمى. و ربما لأن أصوله من الألزاس Alsacien ومن ثم فهو يعرف أن النصر مؤقت، وأنه يومًا ما قد تنقلب الأمور، أو أنه، هكذا، سوف يحرس رفات باستور المتوفى منذ خمسة وأربعين عامًا بشكل أفضل. كان الألمان يسخرون من هذا الحارس العجوز الحريص على أن يقطع عليهم سبل التسلل إلى المعهد، كما لو أنه، بمفرده، أكثر مُكنة وعزة من خط ماجينو Maginot. نزيحه، ندفعه بقوة، ننزل الدرج متجهين نحو المذهبات والرخام. يفر العجوز الضعيف خيفةً، هل سيرى ثانيةً الكلب، الأسنان الحادة، واللعاب الأبيض الذى يسيل بطول اللسان؟ إنه الانفجار، نطيح بالجماجم الواثقة للعسكريين، ننبح بالأوامر، نهرول على السلالم. نعلم بعد ذلك أن الرجل العجوز الذى لفظ أنفاسه وهو غارق فى دمائه، لم يكن لديه فى حياته إلا مُهمة واحدة قد نهض بها على أكمل وجه: كان أول من شُفى من مرض السُّعار. إنه الدليل الحى على نجاح نظرية باستور. كان موضع تجارب.

أشبه بأحد الموتى من الأوروبيين البيض الذكور
الحكماء والعلماء dwem

منذ سنوات، يدير برنار **Bernard** وجاكوتوت **Jacotot** المحل ويطوران التطعيمات، يفتحان وجارًا لسعار الكلاب وزريبة لطاعون الخنازير. لقد تجاوزنا منذ أمدٍ بعيد العمل اليدوى ومضينا صوب الصناعة، ومن ألف جرعة أنتجناها قبل عام ١٤ أصبحنا، حاليًا، ننتج أكثر من مائة ألف جرعة. تم تدريب أعضاء الفريق فى نها ترانج: سوف يظل بوى كانج بوونج **Bûl Quang Phuong** هو طبيب المختبر لمدة خمسة وعشرين عامًا ، وهكذا سيظل مساعدوه من فنيى المعمل، فان دا **Lê Vãn Da** ونجو داى **Ngô Dai**. كل هؤلاء ما زالوا شبابًا، شأنهم شأننا جميعًا، لم يتخيلوا ما ينتظرهم. سوف يصيرون شيوخًا فى أثناء حروب الهند الصينية.

لأننا لم نر شيئًا قط، بعد. اندلعت الحرب العالمية الأولى على سبيل التمرين. اكتوت روسيا بنار ودم موسكو فى فلاديفوستوك **Vladivostok**، لكن هذا لم يكن أمرًا جللاً بعد. فى يومٍ ما، سوف يناهز القرن عامه الثالث والثلاثين. إنها سن موت المسيح والإسكندر الأكبر. ولكن قدر القرون أن تعيش مئات السنين، والفتى السوء فى عنفوان الشباب يصبح قائدًا لعصابة الأشرار. فى برلين، وصل جامعو الفنون: هتلر وجورينج **Göring** إلى السلطة. وفى باريس، فى العام نفسه، توفى كالميت **Calmette** ورو **Roux** على التوالى بفارق أسبوعين.

رو من باستور الحق فى جنازة وطنية، ثم دفنه فى فناء المعهد، وهو آخر من يُدفن فى هذا الفناء. و إلا ما كان ممكنًا أن تتسع المعامل للأجيال الجديدة دون أن تتعثر أقدامهم برفات العلماء. أطلقنا اسم رو على جزء من شارع دوتو **Dutot** الذى يتقاطع مع شارع باستور. فى رواية سيلين، أصيب رو بمرض الصفراء، وبارابين **Parapine** "يصف هذه الشخصية الشهيرة المريضة بمرض الصفراء فى إطار لحظة زائفة منافية للحقيقة، شخصية مهووسة مُرعبة، بل يسند إليها من الجرائم المُروعة غير المعلومة والسرية، ما يكفى لعقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة لمدة قرن من الزمان". يقول يرسين: "فى عالم العلماء، قد نجد شعورًا بالغيرة وسوء النية والإحباط أكثر مما نجد فى أى مكان آخر".

منذ وفاة كالميت ورو، أصبح يرسين آخر الباقين على قيد الحياة من عصبة باستور، وأصبح هذا الوضع أشبه بوظيفة سوف يضطلع بها لمدة عشر سنوات. سوف نطلق عليه المدير الشرفى للبيت الأم. كل عام، يسافر يرسين من سايجون **Saigon**، على الخطوط الجوية الفرنسية، متوجهًا إلى فندق لوتسيا **Lutetia** فى باريس ، حيث يرأس المَجْمَع العلمى فى سان سياج **Saint-Siège** الذى يجتمع فيه مديرو معاهد باستور من كازبلانكا و وتاناناريف **Tananarive**، الجزائر وطهران، إسطنبول وغيرها، بل أيضًا، من هانوى **Hanoi** ودالات **Dalat** وسايجون التى يمثلها هو نفسه، وكذلك المعامل المنتدبة فى هويه **Hué**، بنوم بنه **Phnom Penh**، وفيانتيان **Vientiane**.

بعد الجلسة الأخيرة من شهر مايو من عام أربعين، وعودته الأخيرة إلى ميناء الحوت الأبيض الصغير المصنوع من مزيج الألومنيوم والنحاس والمنجنيز المؤكسد، حاول يرسين أن يحافظ على التواصل بالعالم من منزله الكبير المربع عن طريق المذياع. السماعات الرأسية على الأذنين. الآن، نحن فى عام ثلاثة وأربعين. فى حقبة انتصار دول المحور، التى قد تختفى فيها معاهد باستور، أو تصير معاهد كوخ **Koch** أو كيتاساتو **Kitasato**.

لكن، فى العام الماضى ، رست سفن الحلفاء فى شمال إفريقيا. وفى هذا الحدث ما يُشتَمّ منه رائحةُ الحريق بالنسبة للألمان واليابانيين. فى هذه الآونة التى انقلبت فيها كفة الحرب، راح تلميذ باستور أوجان ولمان **Eugène Wollman**، يدرس آكلة الجراثيم من البكتريا العصوية الشكل التى اكتشفها يرسين. كنا قد نصحنا ولمان، شأنه شأن كل اليهود فى المعهد، أن يبتعد عن باريس حتى يصل إلى المنطقة الحرة (غير المحتلة الخاضعة لحكم فيشي)، التى كانت موجودة حينها. لكنه رفض، فتم توقيفه فى المعهد من قبل الشرطة الفرنسية، وإرساله إلى مدينة درانسى **Drancy** هو و زوجته. سوف يموت أولمان فى أوشفيتز **Auschwitz**، وسوف ينضم أبطال المستقبل وحائزو جائزة نوبل فى علم البكتريا إلى المقاومة. كما أنتج فريق أندريه لووف **André Lwoff**، بشكل سري، تطعيمًا لجماعات المقاومة فى الحرب العالمية الثانية. كل هذا، بالطبع، يجهله يرسين. منذ أكثر من ثلاث سنوات، وهو يدور حول نفسه، سيناهز قريبًا الثمانين عامًا متطلعًا للنهاية: نهايته أو نهاية الحرب، مُرابطًا فى البيت الكبير المربع ذى الرواق المُقوس على شاطئ البحر، ينتظر النهايات وهو جالس على كرسيه الهزاز فى الشرفة.

منذ عشر سنوات، أصبح كالميت **dwem**، رو أيضًا، أصبح **dwem**. منذ أمدٍ بعيد، منذ اكتشاف هذا "المحترف للأسفار **posh**" على متن البواخر. يعرف يرسين هذه العادة الخاصة باللغة الإنجليزية التى تتمثل فى تكوين كلمات من الحروف الأولى لكل كلمة. ولكن هذه الكلمة أمريكية **dwem**، ومع ذلك فهى تضم فى الحقيبة نفسها الإنجليز والفرنسيين والألمان والإيطاليين: الموتى البيض الأوروبيين الذكور النُّخَب العلماء **dead white European males**، مثل رو وكالميت ، ومن على شاكلتهم مثل دانتى **Dante** وفينشى **Vinci**، وباستور **Pasteur** أو ولمان **Wollman**، وباسكال **Pascal** ، وجوته **Goethe** وبيتهوفن

Beethoven، ومارات Marat، وكوك Cook، وجاريبالدى Garibaldi ، ورامبو Rimbaud، وسيرفانتس Cervantès، وميجلان Magellan، وجاليليو Galilée أو إقليدس Euclide، وشكسبير Shakespeare أو شاتوبريان Chteaubriand ، كل هؤلاء الذين ما زلنا وحتى عهد قريب نطلق عليهم الرجال العظماء البارزين المجنحين، هؤلاء الموتى العظماء من البيض الأوروبيين الذكور dwem مثلهم مثل تشكيلة من الحشرات، مثبتون بدبوس على كرتونة حافظة لأجنحة عدد من الحشرات، يُستبعد بعضها وتُستبدل بأخرى من حينٍ لآخر. مجموعة عديمة النفع ومثيرة للفضول منذ قديم الزمان. يرسين يكتب وصيته.

رو مثل باستور يبجل الجمهورية وشعارها الثلاثي. فلا معنى لإحدى الكلمات الثلاث دون الكلمتين الأخريين. فالحرية لا تعنى الاستباحة، ولا يمكن للظالم أن يكون حرًا، وإنما هو عبد أهوائه، وينبغي للمساواة أن تكون، منذ البدء، تساويًا للفرص، واحترامًا للكفاءة في النهاية، حتى تصبح النتيجة مباركة، اللهم إلا إذا كانت هذه الكلمات مجرد كلمات عاطفية لا تساوى شيئًا، كما ينبغي، أيضًا، أن يُستودَع جموع الشعب الأمر برمته.

"أوصى بمعهد باستور فى الهند صينية، إلى من سوف يتصرف - كيفما تراءى له- فى الأثاث الذى أمرت بتصنيعه، وفى كل منقولاتي: الثلاجة، وجهاز الاستقبال التلغرافي، وأجهزة التصوير، بما فيها مكتبتى وكل أجهزتى العلمية، بما فيها أيضًا الأجهزة العلمية الخاصة بفيزيقا الكرة الأرضية ورصد الفلك والأرصاد الجوية، إلخ، والتى يمكن إيداعها المرصد المركزى فى بو-ليان Phú-Liên ، فى حالة عدم وجود أى شخص فى معهد باستور قادر على استخدامها. كما أرغب فى أن يُمنح كبار السن من خُدَّامِى الآناميين المخلصين معاشًا طوال العمر يُستقطع من أرباح حساب سندٍ مُستَحق، كنتُ قد اشتريته لهذا الغرض من مصرف هونج كونج شانغهاى Shangai Bank Hongkong فى سايجون،

وهذا السند فى حيازة م.جالوا **M.Gallois** فى سوا جياو **Suôi Giao** . وليأذن جاكوتوت **Jacotot** عن طيب خاطر أن يتولى مهمة صرف هذه المعاشات للخدم: نوا **Nuôi**، دونج **Dúng**، إكسيه **Xê** فى المقام الأول، ثم للبستانى **Trinh-Chi**، ثم دو**Du** الذى يرعى عصافيري، ثم شوت **Chutt** وسائر الأشخاص من حاشيتى ممن يستحقون ذلك كما يتراءى لجاكوتوت" .

ظرف الوصية مُغلق ومختوم، وقد تم تسليمه إلى جاكوتوت مصحوبًا بكلمة: يوصى يرسين أن تُقام له عند وفاته مراسم جنائزية فيتنامية بسيطة، بخور وطعام يوم الخمسين، رايات من النباتات الفراشية البيضاء. وحرق أوراق الأرز فى القداس، وعلى الهيكل نضع آنية أرز، بيضة مسلوقة، دجاجة مطهوة، سباطة موز. يريد يرسين أن يُدفَن فى سوا جياو **Suôi Giao** الواقعة فى منتصف الطريق بين نها ترانج **Nha Trang** وهون با **Hon Ba**، فى مركز العالم والأملاك. الآن، كل شيء مُرتب. اختار يرسين الموضع وحدده. آثر أن يحصر مملكته الممتدة لعشرات الآلاف من الهكتارات فى مترين مربع.

يرنو إلى مكوثه إلى الأبد فى قلب كل هذا الجمال، يرسين عبقرية فذة، وربما، فى العمق، مريض عقلي. قد يلزم العالم القليل منه. إنه عبقري، ونهايته أكثر سلامًا من نهاية سيملفايس **Semmelweis**. ولنا أن نتخيل، لو كان القدر قد زَجَّ به إلى مستشفى الأمراض العقلية، لكان تمرد على ذلك أيضًا، لقد أراد أن يَقِى نفسه من العالم وأن يُغلق على نفسه محجرَه الصحى الشخصي، حديقة مقتطعة من العالم، من الفيروسات والسياسة والجنس والحرب، وأن يلزم نفسه عزلة اختيارية لمدة أربعين عامًا مع أهوائه المستمرة. والتى كان من الممكن أن تودى به الى الهاوية بعد المجد، وهو ما قد حدث مرارًا. أمرٌ أشبه بالخيال، جريمة قتل، طفرة، جلال أو فظاظة، منتحل مثير للسخرية. يرسين يصبح، على هذا النحو، مُصابًا بهوس السرقة أو سكيرًا. لكن لا، لم يسقط يرسين، بل ظل فى كل الأحوال، إنسانًا.

وسط كل هذه الحيوات وهذه الدوامة، حياة يرسين كانت مضاعفة، فهو رجل عقلاني، لا يسمح لنفسه، البتة، بأن ينساق وراء العواطف والانفعالات. هو رجل التنوير اليوناني. ومع ذلك فمن بين أعمدتها الأربعة، آثر يرسين ، بالأحرى، الرواقية والحديقة على المدرسة أو الأكاديمية. من رحلته الأخيرة، استدعى القدماء. إنه سر. حين يحل المساء، فى المنزل الكبير المربع، يضع النظارات أمام العينين الزرقاوين المُتعبتين، يُقلب يرسين الصفحات اليونانية واللاتينية، يخفى النص الفرنسى ويترجم بالقلم. إنه السر الأخير واللغز الأخير. لم يبق له من شيء سوى أن يموت حتى يصبح بدوره dwem ، لا ينقصه إلا الحروف الأولى.

تحت الشرفة

لقد شيده صلبًا، هذا البيت الكبير المربع ذا الأروقة المقوسة، ورحبًا بحيث يؤوى كل صيادى إكزوم كون **Xóm Cón** وعائلاتهم فى ليالى الإعصار الاستوائى المُدَمِّر تيفون **typhon** فى منطقة بحر الصين واليابان، وهو أيضًا يستقبل كل الأطفال الذين يقبلون عليه لقراءة الكتب المزينة بالرسوم والتى جلبها يرسين من باريس من أجلهم. يرسين ينتظر، يعرف جيدًا أنه سوف يموت، ولكن المنية لم تواته بعد. كُتب عليه أن يعيش من الإمبراطورية الثانية حتى الحرب العالمية الثانية. حياة الإنسان هى وحدة قياس التاريخ. وأبدًا لم يصل اليابانيون، بعد، إلى نها ترانج. إنه السباق بين الموت واليابانيين. الآن هو شخصية مرموقة مثل شخصيات جراك **Gracq**، يراقب البحر من حيث، ربما، سيأتى العدو.

ما زالت الحرب مشتعلة فى أوروبا، أما هنا فالحرب تدور فى المحيط الهادئ. يشعل الأمريكيون النار فى كل مكان، يموّلون الفيتنامى فى هو شى مينه **Hô Chi Minh** الذى يحارب المحتل اليابانى فى تونكين **Tonkin**. كل شيء فى حينه. بعد ذلك سوف نهتم بالفرنسيين. فى التربة الفرنسية يتقاتل الستالينيون والتروتسكيون الفيتناميون. أما عصبة نها ترانج الصغيرة فهى تعيش وسط كل ذلك. فى المساء، بعدما رتبوا ونظفوا فراشهم المصنوع من القش. حضر جاكوتوت **Jacotot** وبرنار **Bernard** لمقابلة المعلم العجوز تحت الشرفة.

أحيانًا، ينضم إليهم الكاتب الشاب جونج جيو نجوين **Cung Giû Nguyeên**. هذا الشخص سوف يموت حين يبلغ مائة عام فى القرن القادم. سوف يشهد الحروب الثلاث التى جرت فى الهند صينية ضد الفرنسيين، والأمريكيين ثم الخمير الحُمر من كمبوديا. سوف يعيش طويلاً حتى سن متقدمة جدًا حتى إنه سوف يشهد عصر الراسمالية الشيوعية، التى لم يتخيل بزوغها، يومًا، فى هو شى منه **Hô Chi Minh**. هذه المحادثات المسائية باللغة الفرنسية. يتحدث يرسين إلى فيتنامى برجماتى حاد وفعال، اسمه نجوين فووك كينه **Nguyën Phuóc Quýnh** الذى كان واحدًا من أبناء الصيادين الذين يلعبون ويجرون فى المنزل الكبير ذى الأروقة المقوسة، قبل أن يصبح صحفيًا. راح يتذكر أن "إحدى خصائص لغته الفيتنامية، هى استعمال الكلمات **nguöi ta**، غالبًا، بمعنى (**on**) للضمائر الثلاثة للمفرد وللجمع، وهذا الضمير المنفصل (**on**) ينطبق على البشر كما ينطبق على الحيوانات".

نحن أمام البحر وسط الزهور وأقفاص الطيور. يردد الببغاء ما يقوله الآخرون، وتسرى فى السكون همهمات أمواج البحر. يدون جاكوتوت **Jacotot** و برنار **Bernard** ملاحظات، ويشرع ،كلٌ من جانبه، فى كتابة حياة يرسين. منذ أمدٍ طويل توفيت كلٌ من والدته وأخته. وبيع منزل فانى **Fanny** المُسَيَّج بأشجار التين ، شأنه شأن بيت إيميلى **Emilie** الريفي، فقد ماتت هذه الأخيرة ولم تُخلف ولدًا. وهكذا، لم يبق له، بالتأكيد، أى أثر فى أوروبا. فى هذا العام، ما زلنا نتساءل أى المعسكرين سيصل أولاً إلى السلاح النووي: أوبنهيمر **Oppenheimer** بالنسبة للأمريكيين، أم هايزنبرج **Helsenberg** بالنسبة للألمان. ربما تكون آسيا وحدها التى ستنجو من هذا المصير. كيف نتخيل، إذن، أن هناك باستوريًا آخر، اسمه مولاريه **Mollaret**، سوف يعثر، يومًا ما، على كل هذه المراسلات التى تم الاحتفاظ بها بعناية، ويدفع بها إلى أرشيف معهد باستور؟

كان يرسين مقتنعًا بأن كل رسائله إلى فانى و إيميلي، والتى تشكل فى مجملها الرواية الحقيقية لحياته، قد اختفت منذ أمدٍ طويل. بينما كان يجيب من خلال هذه الرسائل على أسئلتهما مثل: كيف اكتشف الجرثومة العصوية الشكل، وكيف انتصر على الطاعون؟. لقد غادر سويسرا واتجه إلى ألمانيا، ترك معهد باستور من أجل الإرساليات البحرية، وابتعد عن الطب من أجل الإثنولوجيا، وجافى هذه الأخيرة من أجل الزراعة وغرس الأشجار. كيف أصبح، فى الهند صينية، مغامرًا فى جنبات عالم الجراثيم تارة، مستكشفًا ورسامًا للخرائط تارةً أخرى، كيف طاف فى ربوع الهند الصينية، لمدة عامين، قبل أن يذهب إلى بلاد سيدانSedangs؟ يسأله العالمان عن أهوائه واختراعاته: زراعة البساتين وتربية الماشية، الميكانيكا والفيزياء، الكهرباء وعلم الفلك، الطيران والتصوير. كيف أصبح ملكَ المطاط وملك الكينا، ثم كيف وصل سيرًا على الأقدام إلى نها ترانج، وإلى ميكونج **Mekong** ، بل حتى إلى بنوم بنه **Phnom Penh** ، ليعيش فى النهاية خمسين عامًا فى هذه القرية الصغيرة على شاطئ بحر الصين. سوَّدَ العالمان دفاترهما، ينظران إلى العينين الزرقاوين ليرسين اللذين شاهدا بدورهما عينى باستور الزرقاوين.

يراقب طيفُ المستقبل الرجلَ العجوز وهو جالس هنا على كرسيه الهزاز منذ بزوغ الشعاع الذهبى الشاحب للصباح حتى ساعة الاحمرار النحاسى للمساء، فى سعادة الأيام الخالية. يعرف يرسين جيدًا أنه لن يصعد قط، من بعد، إلى البيت الريفى فى هون با **Hon Ba** ، ولا إلى مزرعة سوا جياو **Suôi Giao**. يتخيل الخطوة البطيئة للمواشى فى توجهها صوب مرعى الحشائش، وكذلك النمو الأكثر بطئًا أيضًا لخضراواته وزهوره وفواكهه. هو من يعرف ما فى صدور الرجال، يجلس هنا أمام البحر والعشب واعيًا بأن خلاياه تتلاشى، أو أنها تتجاوب فيما بينها على نحوٍ أبطأ فأبطأ، مع المزيد والمزيد

من الأخطاء أو الضوضاء التى تصيب بث رسالة حمض النبتوز النووى désoxyribonucléique الذى ما زلنا نجهله. ولكننا نعلم منذ باستور إنه ما من شيء يولد من عدم ، وأن كل ما يعيش يجب أن يموت. ها هو يتنفس شذى مساءٍ حافل، ويترك رأسه العارى سابحًا فى الهواء.

ليس يرسين رجلاً من رجال بلوتارك Plutarque. لم يُرْد قط أن يتحرك فى التاريخ. وعلى اختلاف الحيوات التى عاشها بلوتارك على التوازي، حيوات الخونة وحيوات الأبطال، لا تقدم لنا حياة يرسين أى مثل نتجنبه أو نعيد إنتاجه ، ما من سلوك يُتَّبع: إنه رجل يحاول أن يقود قاربه وحيدًا ، أو أن يقوده، بالأحرى، بمهارة. خلفه البحر يمحو أثر سير سفينته. فى المساء، نعينه على العودة إلى مكتبه. يعاود دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية.

طيف المستقبل

فى عصر يرسين، اعتبرنا نها ترانج بلدةً نائية لأنها بعيدة عن أوروبا. أما اليوم، فهى فى مركز العالم على شاطئ المحيط الهادئ الذى يعقبه المحيط الأطلنطى والذى يعقبه بدوره البحر المتوسط. المكسيك فى الواجهة. آكابولكو Acapulco. أوروبا هى البعيدة. فى الجهة الأخرى من العالم ، على الوجه الخفى للكرة الأرضية. إذا ما بدا الزمن فى دالات Dalat وكأنه قد توقف عند صفحة المياه الساكنة للبحيرة تارة، وفى صالونات لانج بيان بالاس Lang Bian Palace تارة أخرى، فإن هذه المدينة حديثة بشكل مطلق.

سوف يبدى يرسين شعورًا أقل بالغربة لو تواجد اليوم فى باريس واستعاد حجرته فى فندق لوتسيا.

كان طيف المستقبل يتبعه أينما ذهب حول العالم، يمكن له أن يهبط هنا فى يازاكا Yasaka، على ناصية شارع يرسين وشارع البحر، نراه حينًا واقفًا أمام برج زجاجى فندقي، كما نراه، بالمثل حينًا آخر، فى بانكوك أو ميامي، فى كل مكان تحط فيه الحقيبة البرجوازية أو تنتقل جوًا نراه حاضرًا. نها ترانج هى محطة للمصيف، شاطئ سياحى يرتاده بصفة خاصة الروس والفيتناميون الشماليون، القاعدة العسكرية الأمريكية الكبيرة كام ران Cam Ranh، التى تبعد ثلاثين كيلومترًا من هنا، أصبحت قاعدة سوفيتية بعد إعادة توحيد البلاد. الرحلة الجوية الدولية الوحيدة المتجهة إلى نها ترانج تُقلع من موسكو. يرتادها

الروس لشعورهم فى جنباتها بسعادة الحنين للوطن، والتى تتيحها صورة المدار والمنجل والمطرقة على الأعلام الحمراء التى تحيط بشاطئ البحر. قوائم الطعام فى مطعم يازاكا مكتوبة باللغات الثلاث الفيتنامية والإنجليزية والروسية، ومع ذلك نرى فى دورات المياه مكتوبًا باللغة الإنجليزية فقط أن ماء الصنبور غير قابل للشرب، والمُراد هو تحفيز همم الروس بطريقة محمودة لتعلم اللغات، أو وفق نكتة مرحة للأخ الأكبر القديم، إنها إشارة إلى أن مياه الصنبور ليست نقية.

على ناصية شارعى يرسين وباستور، فى شهر فبراير من عام ٢٠١٢، يعمل العمال ليل نهار فى مشروع قصر نها ترانج **Nha Trang Palace** . يتجه الطيف صوب معهد باستور القريب جدًا من موقع العمل. عندما تم هدم المنزل الكبير ذى الأروقة المقوسة المفتوحة على لسان الصيادين، منذ عدة سنوات، نقلنا إلى المبنى الملحق بمعهد باستور كلَّ مابقى داخل المنزل: من المنظار الفلكى حتى أجهزة الأرصاد الجوية، مما أسفر عن افتتاح متحف صغير ليرسين. نشاهد فى هذا المتحف إعادة ترميم لمكتبه، كل أثاث حجرة المكتب من الخشب الغامق اللون، أما الأدوات العلمية فهى من زمن آخر مصنوعة من النحاس والبرونز. جلس طيف المستقبل على كرسى يرسين الهزاز، ينظر إلى خرائط رحلاته الاستكشافية على الجدران. على المائدة نضع كتابه **Les Moïs** عن سكان مواس، وهى كلمة مشتقة لم تعد مستعملة، "شعوب الجبال، الجبليون". اليوم نؤثر عليها عبارة "الأقليات الإثنية". حول دالات **Dalat** يقيم اللات **Les Lats** والشيل **Les Chills** والسر **les Srés**، وفى سوى داو **Suôi Dàu** يقيم الجاجليز**Jaglaïs**.

على الرفوف، مئات الكتب باللغة الفرنسية والألمانية تشمل حقل الهوايات و كتب التاريخ. لكن ربما تكون هذه المكتبة، أيضًا، مكتبة تلاميذ باستور الأوائل فى نها ترانج من برنار **Bernard** إلى جاكوتوت **Jacotot** أو جالوا **Gallois**.

هل قرأ يرسين كتاب آلن جيربو Alain Gerbault على طريق العودة- يوميات على متن سفينة Sur la route du retour – journal de bord ؟

على مكتبه أيضًا، قصائد فرجيل Virgile مكتوبة على الآلة الكاتبة باللغة اللاتينية، مع فاصل بعد كل سطرين من الشعر، وترجمة بالقلم الرصاص للأبيات الشعرية فى الفراغ الفاصل بين السطور، وقوائم للجمل باللغة الفيتنامية للتذكرة. صورة له فى باريس مع لويس لوميير Louis Lumière. آخر تذكرة طيران كانت فى الثلاثين من شهر مايو من عام أربعين. حجز يرسين، فعلاً، أفضل مقعد من المقاعد الاثنى عشر. مقعد K المُنعزل فى الخلف على الجهة اليسرى من الطائرة. تحدد قيمة التذكرة كمية الكحول المُتاحة للمسافرين، والعلامات التجارية للويسكي، الكونياك والشامبانيا التى يستمر تداولها فى سرور بين الأثرياء من الجنود الفارين بعد إقلاع رحلة الطيران الأخيرة للخطوط الجوية الفرنسية رغمًا عن الألمان. وصورة أخرى له عند عودته الأخيرة فى يونيو من عام أربعين، على عبَّارة الحوت الأبيض الصغير فى سايجون.

نستطيع من هنا أن نَمد هذا المسار إلى مدى ثلاثمائة مترٍ صوب الشمال فى اتجاه النهر. مكان البيت الكبير المربع ذى الأروقة المقوسة، شُيِّد فندقٌ لراحة رجال الشرطة ذوى مراتب الشرف فى كل الجمهورية الاشتراكية فى فيتنام، فى الشرفة مطعم سفتلانا Svetlana على مستوى الأمواج فى دورانها المُدَوي، يتم إغلاقُه خارج الموسم. يسمح الحارسُ للغريب بأن يحتمى بالمنزل من المطر الخفيف. لكن ربما، وللأبد، لم نرفض طلبًا للطيف. ها هو يجلس أمام الصخب الهائل للأمواج. وحدها النظرة صوب الأفق لا يعوقها شيء.

تم ترحيل الصيادين إلى قرية جديدة على الضفة الأخرى للنهر لنفسح مكانًا للفنادق. أسفل الجسر، فى الحانة، لا نقدم سوى مشروبين: شاى أو قهوة،

على الحوائط عُلقَت، بشكل غير لائق إلى حدٍ ما، خمس صور شخصية للموتى من الأوروبيين الذكور dwem: باخ Bach ، وبيتهوفن Beethoven، وآينشتين Einstein، وبلزاك Balzac وبونابرت Bonaparte . لا يرسين ولا باستور. ومع ذلك، هذان الشخصان مُبجلان فى فيتنام، ويبرز اسم كل منهما فى زوايا الشوارع. باستور هو القديس بالنسبة للعقيدة الكاودائية Cao Dai فى فيتنام ولا سيما تلك التى تشيع فى دلتا ميكونج Mékong . أما يرسين فهو بالغ الكمال بحسب العقيدة البوذية فى المعبد الصينى المتعدد الطوابق فى سوا كات Suôi Cat غير البعيد من هنا. جالسًا على كرسى مصنوع من البلاستيك، على حافة الرصيف، يُراقب الطيفُ الفيضَ المستمر للسيارات والدراجات البخارية التى تجرى على الجسر وتعبر النهر. كان يرسين أول من جلب سيارة إلى هذا المكان، وأول من قام بتصوير الخليج البديع.

ما كان لسانًا داخل الماء خاصًا بالصيادين، أصبح اليوم، بدون صيادين، اكزوم كون Xôm Côn . فإذا ما أرادنا أن نذهب إلى هون با Hon Ba، ينبغى علينا أن نعبر المدينة ونصل إلى طريق ماندارين Mandarine، نمضى فيه صوب الشمال وصوب هانوى Hanoi ، ثم ننعطف يمينًا، وبعد ثلاثين كيلو مترًا من الطرق المُلتوية نصعد الجبل. تُسارع الأقليات الإثنية باستصلاح التلال المنخفضة وزراعتها حتى تنتج منها الخشب وشجر الزينة والسنط، وشجر الجوز وثمر البلاذر (نبات طبي)، وحقول أشجار الموز، والذرة، وأعشابًا عالية وحادة. أمام أكواخ البامبو، ينطلق الدجاج ويعدو البقر مذعورًا من صوت المحرك الكهربائي. فى ظرف ساعة تشكلت حواجز شرطية باللون الأحمر والأبيض ومَرْقَب فيما وراء أنقاض الأحجار وانزلاقات الأرض المألوفة فى فصل الأمطار هذا. فى الأعالي، يمكن لنا أن نعتقد أننا فى غابات معروفة، غابات الهندوراس أو السلفادور، ثم مع كل منعطف تنخفض الحرارة وتغيم السماء

ويغشى السحاب الأرض. يساورنا شعورٌ بأن هذا المأزق لن ينتهى أبدًا لا سيما حين تعوى الكلاب فى الضباب ، وينتهى بنا الطريق إلى مستنقعٍ هائل من الطين.

يعيش هنا أربعة رجال بعيدًا عن كل شيء: حارسان للبيت الريفى الذى أقامه يرسين، وعلى التَلّ المُقابل يقف حارسان للغابات بزيهما الرسمي. وما بينهما تنتصب شجرة شاى عمرها مائة عام. داخل البيت نجد بعض الأثاث المصنوع من الخشب الأسود وسرير يرسين، وأجهزة علمية، وحقيبة قديمة فى الصوان. تتسلل السحبُ عبر الأبواب والشبابيك المفتوحة، ويسرى الضباب مثل دخان السيجارة يتدحرج فى البيت الريفي، كل شيء مُبلل يسيل وكأنه مُبَرنَق. فى الغابة حيث تنبت السرخسيات الكثيفة تحت المطر، عثر الحراس على أثر الإصطبلات القديمة، مساقى الحيوانات، والأحجار المحفورة التى صنعنا منها أحواضًا نزرع فيها لأول مرة الكينا. أبراص كبيرة بنية اللون ترفعها الكلاب، فتقفز إلى الأشجار. فى الأسفل، النهر الفائر باللون البرتقالى للطمي. فى وقت متأخر يجلس أمام كوب الشاى المغلى فى بيته الريفى الرطب. نثبت العَلَقة مصاصة الدم على الحائط، كما لو كانت هذه الحشرات البلهاء تعتقد أنها سوف تتغذى من دم طيف.

فى منتصف طريق العودة إلى نها ترانج **Nha Trang** ، فى سوا جياو**Suôi Giao**، التى تُعرف اليوم باسم سوا دو **Suôi Dāu**، نرى قضبانًا مطلية باللون الأزرق عند مدخل حقل، وقفلاً، ورقم هاتف مُتاحًا لتنبيه الحارس. فى الجهة الأخرى، يقود الراعى ذو القبعة المخروطية الشكل بعصاه الطويلة قطيعَ الخراف الذى ترافقه العصافيرُ البيضاء الكبيرة. الطريق إلى المزرعة التجريبية تحُفُّه كمارة ملتوية من الزهور، ونبات قصب السكر، والدخان، وعشب الأرز. ثم ها هو طريق شديد الانحدار مبلط، وعلى جانبيه يجلس الفلاحون يلوحون بمناجلهم. ضريح ذو لون أزرق سماوى أعلى التبة الصغيرة، ما من علامة دالة على ولاءٍ ما، فقط هذه الصيغة المكتوبة بحروف كبيرة :

ألكسندر يرسين

١٨٦٣-١٩٤٣

على اليسار هيكل برتقالى وأصفر محاط بأعواد البخور. متران مربعان أزرق سماوى من أرض فيتنام أصبحا فى قلب المملكة. وجد هنا الراحة، وجد مكانًا ومعادلة. يمكننا أن نكتب سيرة حياة يرسين بوصفها سيرة حياة قديس. زاهد منعزل فى أغوار بيت ريفى داخل الغابة الباردة، عصيّ على أى إلزام اجتماعي، حياة ناسك، دُبّ، بَرّي، عبقرى متفرد، طائش جميل.

العصبة الصغيرة

أكثر من حياته، لا شك فى أنه سيحب أن نكتب هذا. العصبة الصغيرة مجتمعة حول العِلم فى شخصه، السترة السوداء ورابطة العنق. كثيرون من العصبة الصغيرة التى ستعقم العالم على طريقة باستور وتطهره من الجراثيم، هم أيتام أو مُشردون يختارون لأنفسهم أبًا، وبالمرة وطنًا. علاوة على ذلك هم مغامرون طائشون، لأن أخطر ما فى هذا العصر هو الاقتراب من الأمراض المُعْدِية، مثل من يُحلق فى طائرة من خشب. عُصبة من المتوحدين، يتشاتمون بوقاحة ويتمتعون بصداقات سرمدية. زمرة صغيرة من نشطاء الثورة الجرثومية.

فى الانفجار الهائل للبركان فى باريس، كان هؤلاء هم الجمرات المتوهجة التى تتساقط فى الصحارى والغابات على نحو مفاجئ. رجال شباب شجعان أغلقوا حقائبهم على عينات الاختبار، والمعاقم، والمجاهر، يقفزون فى القطارات والسفن، ويهجمون على الأوبئة. بعض من الفروسية والرعوية. الحقنة مُشْهَرة مثل السيف، نبلاء إسبان مهاجرون منفيون، ريفيون، وأجانب يجوبون العالم. من باريس، ينخرط رو، يتيم مدينة كونفولون **Confolens** فى الحركة والعمل ويكثف الاكتشافات. جمعية أخوية، هذه العصبة المُنتَمِية لباستور كانت تتنافس مع عصبة كوخ على سبق الاكتشاف، ومع ذلك، ما زالت هناك مساحة بيضاء على خرائط أطلس، وأمراض غير معروفة. ما زال كل شيء ممكنًا، والعالم الطبى

مجال جديد تمامًا. لن يطول هذا الأمر. يعرفون ذلك جيدًا، إنهم فى اللحظة المناسبة التى سوف تعانق فيها أسماؤهم المكتوبة باللاتينية اسم البكتريا العصوية الشكل. يطبقون منهج باستور الذى تم ضبطه على مرض السعار. أخذ عينة، تحديد الهوية، زراعة الفيروس، إضعافه للحصول على التطعيم. يستفيدون من تسارع وسائل النقل ومن البخار الذى يسمح لهم بالوجود فى أيٍ من المناطق فور أن يظهر فيها الوباء. فى بضع سنوات، تتوالى الكوارث مثل أشباح هوميروس، الواحدة تلو الأخرى، الجذام، التيفود، الملاريا، السل، الكوليرا، الدفتريا، التيتانوس، الحمى الصفراء، الطاعون.

ما من شر إذا ما نفدوا بجلدهم من هذه الأماكن. ذهب رو إلى مصر ليدرس الكوليرا بصحبة لويس تيوييه **Louis Thuillier**، هذا الأخير كان أول دفعة شهادة الأستاذية فى الفيزياء، وقد عاد لتوه من حملة للتطعيم فى روسيا. كان عمره ستة وعشرين عامًا حين اكتشف البكتريا العصوية الشكل لمرض حصبة الخنزير، وقد حرر مع رو، باستور وشامبرلان **Chamberland** كتاب "وقائع جديدة لخدمة المعرفة بمرض السعار" **Nouveaux faits pour servir à la connaissance de la rage.** منذ وصولهم إلى الإسكندرية، أُصيب بمرض الكوليرا ومات. نحن بعيدون عن سيدان، وبعيدون عن السياسة. الفريقان يتآخيان. وبحسب شهادة رو، فى خطابه الذى سرعان ما أرسله إلى باستور: "الأستاذ كوخ ومعاونوه حضروا فى اللحظة التى انتشر فيها الخبر فى المدينة. وألقوا كلمات غاية فى الروعة فى ذكرى العزيز الذى رحل عنا". وقبل وصف البكتريا العصوية الشكل لمرض الكوليرا، لأن فى هذه المرة، كان هو الذى يحمل جرثومة المرض "كان الأستاذ كوخ يمسك بطرف من أطراف غطاء سرير الموت. قمنا بتطييب جسد زميلنا المتوفى. وها هو يستلقى فى تابوت من الزنك المنحوت. ارقد فى سلام، أيها الرفيق، لتلحق ببيساس **Pesas** و فين تام **Vinh**

Tham اللذين وافتهما المنية لإصابتهما بالكوليرا فى نها ترانج، ولتلحق ببويز Boëz الراقد إلى الأبد فى دالات Dalat.

بعد وفاة باستور، تفرقت العصبة الصغيرة من القديسين العلمانيين فى كل أرجاء قارات العالم، وفُتحت معاهدُ جديدة، تنشر العلم والعقلانية. لم يكفوا عن التراسل فيما بينهم من جهة لأخرى فى العالم وفق مواعيد إقلاع السفن. خطابات مكتوبة بدفقة قلم واحدة، وبلغة وضعية للجمهورية الثالثة حيث نظم الكلمات رائع ومثالي، وإن لم يكن الجميع بلغاء على غرار بلاغة ميشليه Michelet / وإن كانوا يكتبون على شاكلة كينيه Quinet. علماء متأدبون يعرفون أن كلمات حب، وبهجة وأرغن، تؤنث عند الجمع. بوصفهم ملاحين، يبلغون بأوضاعهم المستجدة. كالميت Calmette فى الجزائر ثم فى سايجون Saigon ثم فى ليل Lille. غادر كاروجو Carougeau نها ترانج ليذهب إلى تاناناريف Tananarive . أما لوار Loir فقد أنشأ بعدما غادر سيدني، معهد باستور فى تونس، راح يُدَرِّس مرضَ السعار فى روديسيا Rhodésie قبل أن يتوجه لتدريس البيولوجيا فى مونتريال Montréal. نيكول فى إسطنبول أو ريملينجر Remlinger قبل أن يذهب إلى طنجةTanger. فتح هافكين Haffkine، وهو من أوكرانيا ، معملاً فى كالكوتا Calcuta، وولمان Wollman ، من بيلاروسيا، أُرْسِل إلى شيللي. وبعد عدة سنوات فى جويان Guyane، أنهى سيمون Simond تاريخ الطاعون فى كراتشى Karachi وذهب ليُدَرِّس الحمى الصفراء فى البرازيل.

إلى نها ترانج، تصل برقيات، يعلم يرسين من خلالها وفاة كل أصدقائه القدامى، وتفرق الأحياء الأكثر شبابًا منهم. ومثله مثل رو لن تكون له ذرية ولو حتى افتراضية. لقد اختار يتامى كونفلنز Confolens ومورج Morges باستور كأبٍ روحى أبناؤه روحيون. سوف يصبح معاونو المختبرات باحثين. تقدم يرسين فى العمر جدًا فى عالم لم يعد عالمه. ما زال هو آخر معاونى لويس

باستور على قيد الحياة. لن يكتب مذكراته. مثل هذا الكتاب لن يروقه. ما الذى يعنينى هنا؟.

إنها السلسلة التى ينبغي، بلا شك، أن أكتب عنها لا عن حلقاتها، سلسلة طولها قرن ونصف من الزمان. باستور يختار ميتشنيكوف **Metchnikoff**الذى يختاربدوره ولمان **Wollman** ، إنه أوجين ولمان **Eugéne Wollman** ، الذى يعمل منذ عودته من شيللى على دراسة آكلة الجراثيم **bactériophage** عصوية الشكل التى اكتشفها يرسين، وذلك قبل أن يتم ترحيله إلى أوشفيتز **Auschwitz** (محرقة اليهود)، بينما انضم ابنه إيلى ولمان **Elie Wollman** إلى المقاومة. بعد الحرب، تم اختياره من قبل أندريه لوف **André Lwoff** ليعمل فى مختبره مع فرنسوا جاكوب **François Jacob** الذى انضم إلى القوات الفرنسية الحرة فى لندن، وحورب من ليبيا حتى نورماندي، استعادا معًا أعمال أوجين ولمان **Eugène Wollman**. حصل جاكوب **Jacob** على جائزة نوبل هو لوف **Lwoff** ومونو **Monod**. وهو من اكتشف جزيرة جرينلاند **Groenland** مع بول إميل فيكتور**Paul-Emile Victor** فى الثلاثينيات قبل أن ينضم إلى المقاومة. عشرون عامًا بعد نوبل، كتب لوف **Lwoff** مقاله : لوي- فرديناند سيلين **Louis-Ferdinand Céline** والبحث العلمى، لأننا مهما عملنا، فى إطار زمرة صغيرة ناشطة، وحاولنا أن نفر إلى أبعد مكان مثل يرسين، أو نغتاب مثل سيلين، أو نخون أو نتجه إلى كتابة الأدب، فلن نفلت من نباهة الزمرة الصغيرة.

اللغز الأخير فى حياة يرسين هو الأدب. لن نكتشفه إلا بعد وفاته عند تصنيف وثائقه وأرشيفه. لقد زج بأنفه فى مجال الأدب. وها هو، أيضًا، يدمنه ويخضع لأوامره. يعرف الآن أن "هذا لا يعنى شيئًا". يبدأ رامبو من الأدب اللاتينى ويرسين ينهى حياته عنده. هذا الإدمان الأخير أقوى من الكوكايين الذى فشل فى تعاطيه وربما كان هذا محط فشله الوحيد.

اكتشف جاكوتوت Jacotot ورشته السرية للترجمة وهو يرتب مكتبه. الكتب والأوراق وعلى الأغلفة بومة أو أنثى الذئب. استعاد، وهو ابن الثمانين عامًا، دراسته للغتين اللاتينية واليونانية، حاجبًا الصفحة اليُسرى ليترجمها فى الصفحة المقابلة. الترجمة مثل كتابة حياة. الاختراع المُلزم، ومع ذلك هى حرية عازف الكمان على التقاسيم المعروفة، ضربات قوس الكمان، تحليق نغمى خفيف لدقيق الأوتار والإيقاع المهموس والجهير. اندهش جاكوتوت Jacotot ودوَّن القائمة بإخلاص: فيدرا وفرجيل Phèdre et Virgile، هوراس Horace ، وسالوست Salluste ، وشيشرون Cicéron، وأفلاطون Platon وديموستين Démosthène . لا شك فى أن يرسين كان يقرأ هنا القيم القديمة التى كانت قِيَمَه هو نفسه: البساطة، الاستقامة، الهدوء، الاعتدال. فى النهاية كان يحسن تذوق الأدب ولاسيما أدب الوحدة .

البحــــر

من حين لآخر تستيقظ جروح الصراع القديم مع سوك **Thouk**، طعنة رمح بين الحنايا والإبهام الجريح. لم تعد قدماه تحملانه، فهو قعيد كرسيه المتحرك، وهذا لا يعني بالضرورة أنه سيظل جالسًا هنا لا يفعل شيئًا. فى أغوار هذا العقل العجوز تتردد جملة باستور كما لو كانت إيعازًا: "يبدو لى أنى اقترف جرم السرقة إذا ما قضيت يومًا بدون عمل". لديه فكرة أخيرة: مراقبة مدّ البحر وجزره.

سوف يختم حياته السعيدة منعزلاً فى بساطة الأيام والفضول الذى لا يُروى، إنه مثل كانط **Kant** فى كونيجسبرج **Königsberg** ولكن بدون مشكلات مع شجر الحور أو طير الحَمَام عند الجار. إنه سيد المكان والمشهد الطبيعي. من شرفة المنزل المربع الكبير، ناحية اليد اليسرى ، مصب الجدول والجبل الذى ينحدر سفحه حتى الأمواج، و ناحية اليد اليمنى، كيلومترات من الشاطئ. إنه الوضع الأمثل لدراسة المدّ والجزر، عند الزاوية القائمة التى يشكلها المصب والبحر، يدوِّن كتابةً الإحداثيات القمرية ويقيس مستويات هبوط الماء على مدار السنة ومُعامِل التمدد، ارتفاع البحر الأشبه بمصاعد متدرجة وسط الماء الجاري، تُعَلقً على ذراها المصابيح. جالسًا على كرسيه الهزاز، والدفتر على ركبتيه، يراقب بمنظار البحر أضواء المساء.

الأميرال دوكو **Decoux**، الحاكم العام للهند الصينية المُحتلة، الذى انزوى فى مدينة دالات، جلب له لوائح الأحداث البحرية. يشعر دوكو بالملل،

ترك قصر بوجينيه **Puginier** فى هانوي **Hanoi**، حتى لا يرى أبدًا الساموراى وهم يتبخترون فى المدينة ، واستقر هو ووزارته فى قصر لانج بيان **Lang Bian Palace** أمام مياه البحيرة. قصر صغير بالنسبة لأميرال، وبحيرة، هذا أمر مُخزٍ. حين كانت القنابل تتفجر فى كل مكان على ظهر الكوكب، ودبابات التحالف، التى استولت على الكفرة **Koufra**، تنطلق صوب الشمال، والطيارون الكاميكاز **Kamikazes** ينقضون على المُدَمِّرات الأمريكية ويقصفونها، فى حين كان الجيش الأحمر يهزم الجبهة الألمانية ويتقدم نحو بولونيا **Pologne**، وبينما كل هذا يحدث كان بيتان **Pètain** محبوسًا فى فندق بارك دو فيشى **Parc de Vichy**، وكان دوكو **Decoux** فى قصر لانج بيان **Lang Bian** بمدينة دالات **Dalat** جالسًا أمام مياه البحيرة. عظمة فرنسا التى تتخندق فى مدنها الساحلية حيث يتوافد أناس ليستشفوا بالمياه الحارة، عاطلون يرتدون معاطف الحمام البيضاء والنعال الخفيفة تحت التسقيفة ، ينبغى العناية بهم.

أمر دوكو بهدم نتوءات الزينة والزخارف من نمط العصر الجميل **Belle Epoque** التى تزين القصر. كما أمر بفعل الشيء نفسه بمسرح سايجون **Saigon** فى ساحة فرانسيس جارنيه **Francis-Garnier** ، الذى سيصير فيما بعد المجلس الوطني. ينبغى أن ننتهى من هذه الرخاوة من نمط الروكوكو المستوحاة بلا شك من الديانة اليهودية أو الفرنكوماسونية، التى كان لها أن تجر فرنسا إلى عمق الهاوية لو لم يكن المارشال قد وجد. إنه يرغب فى المثلث المستقيم، رقى وزهد الذوق الألماني. هذه هى نزوات التاريخ وهذا العماء الذى سوف يقود فرنسا بعد عشرة أعوام إلى تجميل وتوسيع خليج دالات أثناء معركة دين بين فو **Diên Biên Phu**، استشرافًا للدولة العظمى التى ستسعد بعد الانتصار بجولات قصيرة على الخليج. دالات المدينة المثالية ، التى تم تشييدها على الصفحة الخضراء البكر لانج بيان، والتى كنا نحلم منذ أمد أن نجعلها

عاصمة لكل الهند الصينية، ولكنها الآن مجرد جزيرة صغيرة مهملة حتى من قبل اليابانيين. يوسع الأميرال خطاه فيما يشبه مسحًا لأروقة القصر، مرتديًا زيه الأبيض الأبهة، ولكن يمكن له أيضًا أن يظل بالبيجاما. يشعر بقلق بشأن مخزون الكونياك والشامبانيا الذى يجب أن يُلقى به فى عمق البحيرة عند رؤية أول ساموراي، مثلما نُغرق الباخرة حتى لا نسلمها للأعداء. هو يعرف طولون Tolon ومرس الكبير Mers el-Kebir ، ولكن اليابانيين دائمًا ما لا يأتون.

منذ عامين وستة أشهر قبل هيروشيما، وستة أشهر قبل تحرير باريس، كانت جيوش هيروهيتو Hirohito، وهى فى سبيلها لتجرع الهزيمة على كل الجبهات، قد انطلقت لهجوم شرس على ثكنات الجنود الفرنسيين، التى كانت تنتظرها منذ خمس سنوات، والتى قد خفضت منذ أمد عدد حراسها. ذبح اليابانيون الجنود واعتقلوا المدنيين فى معسكرات. وقتها كان المستخدمون المحليون، شديدى الخنوع نهارًا ، وفى المساء يفيدون اتحاد استقلال فيتنام بالأخبار. نبحث فى سلال الأوراق وفى مكتب الأميرال، لنجد الخطاب الأخير ليرسين، الذى يحذر فيه عصابة الأنصار من أن الإمبرياليين يدرسون مد البحر وجزره فى نها ترانج، وربما يعدون العدة لاحتلال الشاطئ.

قبل وفاته ببضعة أيام، قدم يرسين الشكر لأميرال المياه العذبة لإرساله يوميات تلقى الضوء على الأحداث التى تجري. هذا هو خطابه الأخير: " سأسمح لنفسى بأن أبلغكم بنتائج هذه الملاحظات على شكل رسم بيانى عندما يتوفر لى العدد الكافى منها". سرعان ما سنحتفل بعيد ميلاده الثمانين. كان يشك فى أننا نعد احتفالية من وراء ظهره.فيما بين أوقات الرصد بنظارته المجهرية مع مساعده تران كانج Trãn Quang Xê، كان يقوم بترجمة اليونان. كتابه الوحيد المطبوع بعد وفاته لن يكون سيرة ذاتية؛ جاكوتوت هو الذى سوف يختار أحد العناوين التى قد تعجب جماعة باستور : رسوم بيانية لمستويات المد والجزر

التى تم رصدها فى نها ترانج ، والتى تم عرضها بحسب المستويات التى قيست من قبل الدكتور يرسين أمام منزله فى نها ترانج. وهو ما سوف يرسله جاكوتوت هذا إلى نشرة جمعية الدراسات الهندصينية.

فى منتصف الليل وفى السادسة صباحًا، ثم فى السادسة مساءً، يدون يرسين كتابةً ملاحظاته ويملأ القوائم فى دفتر، هو موجود الآن فى متحفه الصغير فى نها ترانج. أحيانًا ينعس، يعيش فى السحاب قليلاً، غالبًا ما يكون الموت موجعًا جدًا، لقد رأى ذلك فى المستشفيات. يطفو على صوت هدير الأمواج، على شاطئ صياد سمك بالجيبية نورماندى، أو فى مقصورة درجة أولى فى سفينة، بين النحاسيات والأخشاب المبرنقة فى Oxus, Volga, Saigon. إنه الصعود البطيء للأمواج السوداء مثل الهمهمة. المياه المالحة تبقبق عند مصب النهر وتختلط بالمياه العذبة. غفوة ثم يغرق كليةً بكل هدوء فى حزن غريب صاعد مثل أمواج البحر. أحيانًا تتردد على مسامعه عبارة باستور: "إنه، أساسًا، عبر عوامل التخمر والاحتراق البطيء، يكتمل هذا القانون الطبيعى للتحلل والعودة إلى الحالة الغازية gazeux لكل ما هو حي".

ها هو يصنع من المادة رؤى وأحلامًا. يشعل الصيادون القناديل ويركبون البحر. إذا ما جُرِحَ أحدهم فسوف نطعِّمه ضد التيتانوس، لدينا هذا الطُعْم فى الثلاجة. غدًا سنرى السمك اللامع على الثلج وقفزة الجمبرى إلى قعر قفة السمك. تتراقص الأضواء على صفحة البحر أو خلف جفونه. لديه فكرة جديدة، غدًا سوف يأكل الجمبرى أم سوف يُدفَن؟ يتساءل عما إذا كان قد فكر فى توطين نبتة الهندباء البرية فى هون با Hon Ba ، يختلط الأمر عليه بعض الشيء، الآن، تفكيره أشبه بطوفان بطيء، المياه السوداء وهمهمة المد والجزر تسرى تحت أيقونة القمر البيضاء الكبيرة. ارتفاع المياه الذى يناهز ما هو قابل للانصهار فى ورشته الكهربائية. ينبغى تفعيل الفاصل الكهربائي، النهوض ومغادرة الكرسى الهزاز، هذا مستحيل. ومضات قصيرة متقطعة للموصلات الكهربائية. انفجار شريان فى المخ. إنها الواحدة صباحًا، انطفأ النور.

المؤلف فى سطور:

باتريك دوفيل Patrick Deville.

كاتب فرنسى ولد فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٧، درس الأدب والفلسفة فى جامعة نانت Université de Nantes ، قام بجولات فى الشرق الأوسط ، وأقام فى الجزائر ونيجيريا، وسافر بشكل دورى إلى كوبا وأوروجواي.

فى عام ٢٠١١ تم اختياره من قبل مجلة القراءة Lire Magazine كأحسن أديب فرنسى عن روايته كامبوشيا Kempuchea ، وفى عام ٢٠١٢ فازت رواية الطاعون والكوليرا بجائزة فناك Prix Fnac وجائزة فيمينا Prix Femina ، تُرجمت مؤلفاته إلى عدة لغات ومن أهمها رواية "هذان الشخصان" Ces Deux là التى نشرت فى عام ٢٠٠٠. ورواية "المرأة الكاملة" La Femme Complète التى نشرت فى عام ١٩٩٥.

المترجمة فى سطور:

د. منى طلبة

أستاذ الأدب العربى والمقارن فى جامعة عين شمس، عملت أستاذًا زائرًا بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وجامعة شارل دى جول ليل III، وجامعة بروفنس بفرنسا، لها العديد من الترجمات من الفرنسية وإليها، من أهمها فى "علم الكتابة" لجاك دريدا، وإلى الفرنسية رحلة "ابن فطومة" لنجيب محفوظ، والعديد من البحوث فى الأدب العربى والمقارن، من أهمها "أدب الرحلة إلى العالم الآخر: دراسة مقارنة بين أبى العلاء المعرى والقديس براندان".

التصحيح اللغوى : مصطفى عبد اللاه
الإشراف الفنى : حسن كامل

ألكسندر يرسن (١٨٦٣ - ١٩٤٣) هو أحد الباحثين الشباب الذين شكلوا الفريق العلمي الأول في معهد باستور الذي تم تأسيسه في عام ١٨٨٧، شهدت حياته حراكا واسعا، فقد كتب يقول: ليست حياة هذه التي لا حركة فيها. سرعان ما رحل يرسين إلى آسيا وأصبح بحارا ثم مكتشفا. اكتشف جرثومة الطاعون في عام ١٨٩٤ في هونج كونج، واستقر في الهند الصينية، في نها ترانج، بعيداعن ضجيج الحروب، وراح يُضاعف مُلاحظاته العلمية ويُطوّر زراعة شجر المطاط وشجر الكينا. وافته المنية في عام في ١٩٤٣ أثناء الاحتلال الياباني الهند الصينية.

للوقوف على حكاية هذه المغامرة العلمية والإنسانية الرائعة، تتبع باتريك دوفيل آثار يرسَين حول العالم، فأبدع رواية ممتعة معتمدا على مُراسلاته والوثائق المحفوظة في أرشيف معاهد باستور.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح